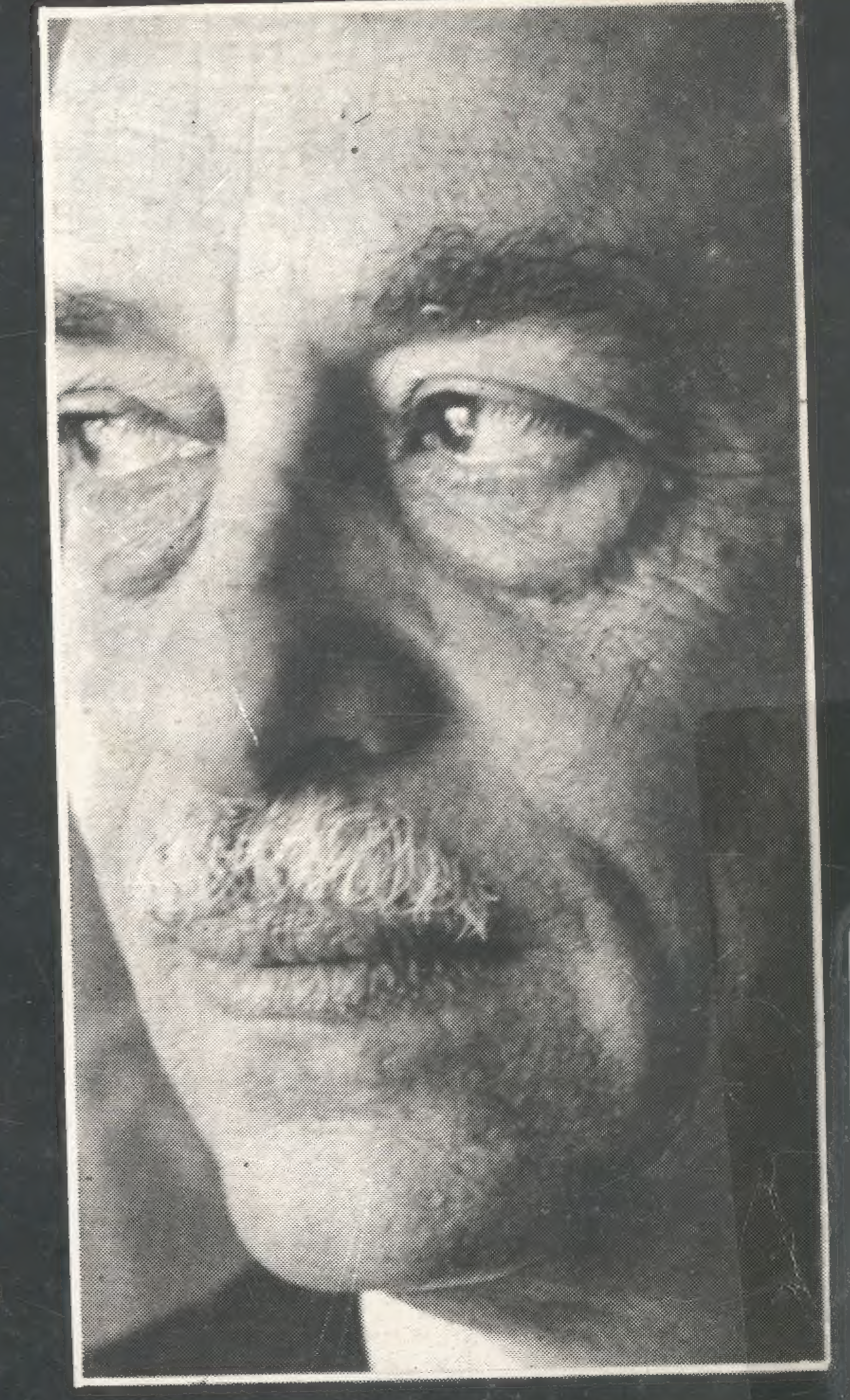
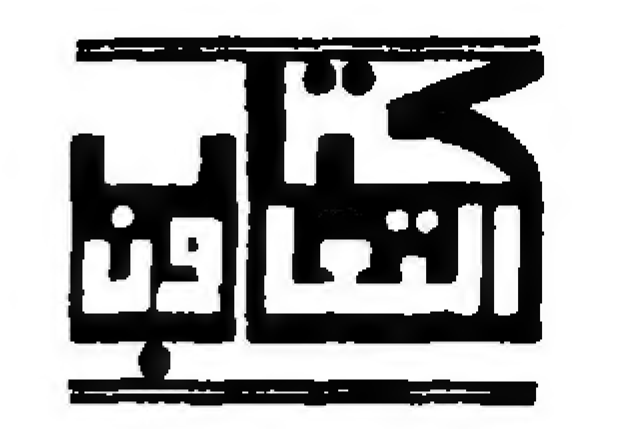


العائلة والسلطة والسياسة في مصر



سيد مرعى
العشيرة.
الأتباع.
الأعوان.

تأليف:
روبرت سبرنج بورج
ترجمة:
محمد سامى



العائلة والسلطة والسياسة في مصر

سيد مرعي

العشيرة .. الأتباع .. الأعوان

تأليف

روبرت سبرنج بورج

ترجمة

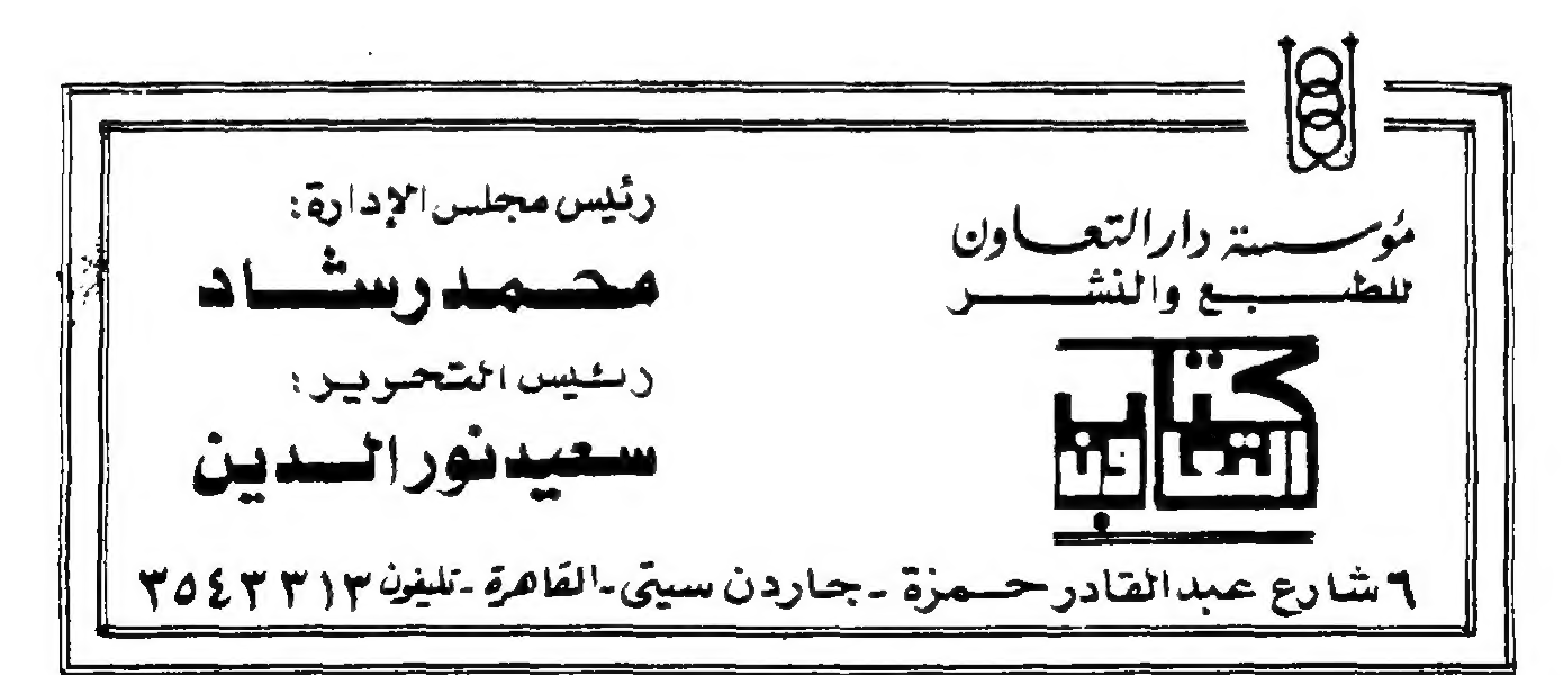
محمد سامي

الغـلاف

الفنـان : جميل شفيق

سكرتير التحرير التنفيذى :

نزيه عبد الغنى


مؤسسة دار التعاون
للطبع والنشر
كتاب التعاون
رئيس مجلس الإدارة:
محمد رشاد
رئيس التحرير:
سعيد نور الدين
٦ شارع عبد القادر حمزة - جاردن سيتي - القاهرة - تليفون ٣٥٤٣٣١٢

المهندس سيد مرعى
صفحات مضيئة فى
تاريخ العمل الوطنى

يسعد مؤسسة دار التعاون ويشرفها أن تقدم كتاب سيد مرعى .. العائلة .. والسلطة .. والسياسة فى مصر .. من تأليف الصحفى الأمريكى .. روبرت سبرنج بورج ..

والكتاب يتضمن كثيرا من الحقائق المضيئة عن المهندس سيد مرعى وكثيرا من المغالطات والمعلومات الخاطئة لطبيعة جمع المؤلف لبيانات الكتاب من مصادر عديدة بعضها مغرض ولم يلتزم بالحقيقة ووجدها فرصة للإساءة للمهندس سيد مرعى .

فى البداية .. فان اسرة دار التعاون تسجل بكل حقائق التاريخ ان مولد هذه الدار وانتشارها ودعمها تم بمساندة قوية وايمان لاحدود له من المهندس سيد مرعى .. ولأستاذنا الجليل الراحل محمد صبيح مؤسس دار التعاون وصاحب فكرة تأسيس دار متخصصة فى الصحافة الزراعيه والتعاونية .. ولتكون المنار الهادى فى بلد زراعى تعاونى .. ونموذجا يحتذى به العالم العربى والدول الافريقية .

ومجلدات وصحف مؤسسة دار التعاون على امتداد ٣٤ عاما سجل ناصع للتاريخ الوطنى .. والدور الرائد الذى لعبه المهندس سيد مرعى فى تطبيق الاصلاح الزراعى حتى أصبح نموذجا رائدا لكل دول العالم .. وفى النهوض بالزراعة المصرية .. وفى دوره السياسى المضىء عندما تولى منصب الامين الاول للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى فى فترة من اصعب فترات العمل الوطنى فى مصر .. وفى نجاحه الكبير بشهادة المعارضة عندما تولى رئاسة مجلس الشعب ومنصب مساعد رئيس الجمهورية .

المهندس سيد مرعى شخصية عامة .. ومن ابرز الشخصيات الوطنية التى لعبت ادوارا بارزة فى مجال الزراعة والسياسة المصرية .. والشخصيات العامة والمفكرون والفلاسفة على امتداد تاريخ البشرية يتعرضون دائما للنقد

والافتراءات والشائعات والمعلومات والبيانات المغرضة .. وهذا قدر كل من يتصدى للعمل العام .

لقد سجل لنا الله عز وجل فى كتابه العزيز (القرآن الكريم) كيف تعرض الانبياء حتى خاتم النبيين سيدنا محمد عليه افضل الصلاة والسلام وهم يدعون الى رسالات السماء للايذاء والافتراءات وواصلوا رسالاتهم انطلاقا من الايمان الكامل باهدافها السامية .

ان قيام « دار التعاون » بترجمة ونشر الكتاب .. ليس بهدف التشهير بالمهندس سيد مرعى بل بهدف عرضه وتفنيده بعد ذلك ونشر كافة الحقائق بعد انتهاء النشر فى لقاء شامل معه .. بعد أن انتشر تداول الكتاب فى مصر .. واتسعت دائرة الشائعات عما احتواه من بيانات وحقائق .

ولولا أن المهندس سيد مرعى من أبرز الشخصيات الوطنية المصرية .. ما كان هذا الكتاب والصحافة العالمية تنشر يوميا عشرات الكتب عن الرؤساء والملوك والشخصيات العامة وتتضمن كثيرا من الحقائق وكثيرا من الافتراءات .

لقد عشت بالقرب من وزراء الزراعة والإصلاح الزراعى واستصلاح الاراضى فى مصر على امتداد ٣٤ عاما ابتداء من المهندس سيد مرعى إلى كل من الدكاترة والاساتذة محمد نجيب حشاد وعبد المحسن أبو النور ومحب زكى وعثمان بدران ومحمود عبد الآخر ومحمد بكر أحمد ومصطفى الجبلى ومحمود داود وعبد العظيم أبو العطا حتى الاستاذ الجليل الدكتور يوسف والى نائب رئيس الوزراء ووزير الزراعة واستصلاح الاراضى الذى تفوق على الجميع فى دعمه ورعايته وربطتنى بهم كل علاقات التقدير والاحترام والمحبة ووجدت جريدة التعاون منهم جميعا كل الدعم والمساندة والايمان بلا حدود بدور الصحافة التعاونية الزراعية المتخصصة وتحفظ لكل منهم كريم رعايتهم وتعاونهم الصادق مع أسرتنا الصحفية .

إن المهندس سيد مرعى جزء غال من تاريخ العمل الوطنى فى مصر وسطر بأعماله المجيدة فى شتى المجالات صفحات مضيئة ستظل وساما على صدره وموضع فخر لكل مصرى .

إن المهندس سيد مرعى له مكانته الخاصة فى قلوب الاسرة الزراعية والفلاحية لأنه شخصية متميزة .. يتمتع بقدرات وجاذبية خاصة .. وكانت له قدرة عجيبة على اكتساب محبة الفلاحين والزراعيين .

المهندس سيد مرعى صاحب مدرسة فى الزراعة والسياسة وترك بصمات عميقة فى كل المجالات التى شرفت بقيادته الحكيمة والأمينة .

المهندس سيد مرعى .. ليس شخصية محلية .. بل شخصية مرموقة على المستوى العربى .. وعلى المستوى الدولى حيث اختير بالاجماع رئيسا لمجلس الغذاء العالمى الذى تولى رئاسته بعد ذلك الدكتور يوسف والى .

المهندس سيد مرعى سجل فكره الزراعى فى العديد من المؤلفات العلمية التى تعتبر مراجع اساسية للباحثين فى مجال الزراعة والاصلاح الزراعى واستصلاح الارضى .

وهو أول من دق ناقوس الخطر عام ١٩٧٤ فى كتابه الهام الذى ألفه بالاشتراك مع المهندس سعد هجرس بعنوان « اذا اراد العرب » لأزمة الغذاء فى العالم العربى وقدم استراتيجية متكاملة للخروج من هذه الازمة .

لقد اختار الزعيم جمال عبد الناصر المهندس سيد مرعى وزيرا للزراعة والاصلاح الزراعى بعد عدوان ٥ يونية ١٩٦٧ واستطاع بخبراته المتميزة ان يحقق معدلات قياسية فى انتاج جميع المحاصيل وقدم تيسيرات للفلاحين وبذل جهدا كبيرا لحل مشاكلهم .

لقد احدث تغييرا جوهريا على اجهزة وزارة الزراعة والتعاونيات ونظام التسويق التعاونى وعلاقة بنك التسليف بالفلاحين وعمل على توضيح معالم الصلة بين كافة اجهزة الفلاحين وانها وجدت لمصلحتهم ولهم حتى انصرف الجميع لزيادة الانتاج الذى حقق مافاق كل التوقعات طوال فترة ما بعد العدوان .

وفى عهده تمت اول تجارب تهجير الفلاحين من الدلتا .. والمنوفية بالذات الى الاراضى المستصلحة الجديدة .. فى أبيس وغيرها واثبت عدم صحة مقولة ان الفلاح ينفر من الهجرة ومغادرة مسقط راسه ..

وقد عشت التجربة فى القطار الذى نقل ٥٠٠ اسرة من ٥ قرى بالمنوفية الى منطقة ابيس مع الحاج رشاد عمران القيادة التعاونية اللامعة الآن .. ومع استاذ محمد صبيح والدكتورة هيفاء الشنوانى والمرحومين المهندس حلمى عبد البر والمهندس سيد مرعى محمود فوزى وغيرهم من القيادات الزراعية .

والمهندس سيد مرعى صاحب تجربة نواج لتنظيم الملكيات الزراعية .. وعشت جلسات حوار ممتعة بينه وبين الشيخ برج رئيس الجمعية بالقرية .. وكان وراء تنفيذ افكار الدورة الزراعية والتجميع الزراعى والتصنيع الريفى

وتحسين الاراضى .. وتأسيس صندوق موازنة اسعار الاسمدة ورعاية العمال الزراعيين واسلوب تأجير الاراضى .

وكان يؤمن بدور النظام التعاونى فى النهوض بالزراعة والريف وانه سلاح صغار الفلاحين ذوى الامكانيات الاقتصادية الضعيفة .

ويرى ان عصر الطعام الرخيص انتهى .. وسيتحول فى الغد القريب الى انتهاء الطعام اصلا من العالم .. اذا لم يتم تدارك الامر بسرعة ومواجهة قضية الامن الغذائى بالحسم الكامل .. وفى تصوره ان التنمية الشاملة فى مجال الزراعة لابد ان تكون تنمية عربية فى تمويلها وعالمية فى اساسها وترتبط بالمتغيرات العالمية .

ويشيد المهندس سيد مرعى بسياسة الاصلاح الاقتصادى التى يقودها بنجاح .

الرئيس مبارك والخطة الطموحة للتنمية الزراعية والانجازات الزراعية الكبرى التى تمت طوال السنوات العشر الأخيرة .

وكان يؤمن أن الظروف اختلفت منذ إصدار قانون الاصلاح الزراعى وحتى اليوم ولابد من تحقيق العدالة الاجتماعية والتوازن بين المالك والمستأجر .

تحية وتقديرا من أسرة التعاون للمهندس سيد مرعى القيادة الوطنية النظيفة ذات التاريخ المضىء والتى تعتز بها مصر كلها .

وقد بدأ مركز الدراسات التعاونية والزراعية بدار التعاون فى اعداد سلسلة عن قيادات العمل الزراعى والتعاونى فى مصر وستبدأ السلسلة بكتاب عن كل من المهندس سيد مرعى والدكتور يوسف والى فكلاهما تولى قيادة القطاع الزراعى لسنوات طويلة فالأول تولى منصب الامين الاول للاتحاد الاشتراكى والثانى تولى ومازال يجمع بين قيادة القطاع الزراعى ومنصب الأمين العام للحزب الوطنى الديمقراطى .

ونأمل أن يكون هذا الايضاح ردا مبدئيا على عتاب كثير من القراء .. ونحن على ثقة من تفهم المهندس سيد مرعى لدوافع النشر .. وانه شخصية كانت ومازالت موضع التقدير والاحترام كواحد من الرواد الذين يعتز بهم العمل الوطنى فى مصر .

محمد رشاد

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب هو حصيلة اهتمامى بمجتمع الصفوة السياسية فى مصر وهم الرجال المحيطون بالرئيس والمقربون منه والذين يساهمون بشكل أو بآخر فى صناعة القرار السياسى .

ولا شك أن ثقافة مجتمع الصفوة السياسية من الثقافات الجديرة بالاهتمام والبحث .. وقد بدأت البحث والتنقيب فى هذا المجتمع منذ بداية السبعينات حيث كان من حسن حظى اختيار موضوع هذا الكتاب اثناء قيامى باجراء ابحاثى لنيل الدكتوراه فى هذا الموضوع .

وقام مركز الأبحاث الدولى التابع لجامعة ستانفورد الأمريكية بتقديم الدعم المالى اللازم لى لقضاء عامى ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ فى القاهرة .

وقدمت جامعة مكارى بسيدنى باستراليا منحة اخرى لى لاستكمال ابحاثى فى القاهرة فى عام ١٩٧٧ .. وعلى مدى الزيارتين والفترة الطويلة التى قضيتها فى القاهرة قام مركز الأبحاث الأمريكى فى القاهرة بتقديم كافة التسهيلات اللازمة لاقامتى .

وقد ساعدتنى منحة جامعة مكارى الاسترالية فى قضاء عدة أسابيع فى لندن عام ١٩٧٨ لاستكمال هذا العمل بمكتب المعلومات القومى البريطانى .

وكان لجامعة بنسلفانيا الفضل ايضا فى اخراج هذا العمل للنور حيث أتاحت لى زيارة القاهرة فى صيف عام ١٩٨٠ كما كان لمعهد هوفر دور كبير ايضا فى ذلك .

واود هنا أن أوجه شكرى وامتنانى لأفراد عائلة مرعى وخاصة سيد مرعى وأسرته الصغيرة الذين التقيت بهم كثيراً واستمر كل لقاء على مدى ساعات امدونى خلالها بالكثير من المعلومات دون أن يعرفوا الهدف من هذا الكتاب .

واتمنى أن تقبل عائلة مرعى أسفى على المضايقات التى قد يتعرضون لها نتيجة نشر هذا الكتاب والذى ساعدنى فى إخراجه للنور كثير من المصريين .

وقد أمدتنى جامعتا بنسلفانيا للصحافة وسيراكوس للصحافة أيضا بالكثير من المعلومات فى هذا الكتاب واعفيهم من مسئولية أى أخطاء قد ترد فيه حيث أتحمل مسئوليتها وحدى .

وأوجه شكرى وامتنانى للسيد جوف ويتلام رئيس وزراء استراليا السابق لحرصه على كتابة مقدمة هذا الكتاب .

روبرت سبرنج بورج

مقدمة المترجم

المؤكد أن المهندس سيد مرعى شخصية سياسية جديرة بالاعتبار ..وعلى الرغم من اختلاف النقاد حول سياساته الا ان ذلك لاينفى أنه سياسى بارع محنك إستطاع اختراق الصفوف الأمامية فى عصرين متنافرين وربما يرجع ذلك لأنه اقتحم عصر الثورة ومعه رصيد سياسى من العصر الملكى بالإضافة لعوامل شخصية أخرى كثيرة .

ولا ينكر أحد أن مكانة العائلة الاجتماعية أحد عوامل صناعة السياسة فى عدد كبير من المجتمعات ولكنها وحدها لا تكفى لضمان نجاح مشوار حياته السياسية مما يعنى أن هناك ظروفا وملابسات تؤثر على مشوار الحياة وكما يحلو للبعض أن يقول إن « تركيبة الشخصية » تصنع قدر الإنسان .. بينما يقول البعض الآخر إن الذكاء يساعد كثيراً الشخص المحظوظ .

وهناك حقائق لا يمكن تجاهلها ومنها أن « الطموح » ليس عيبا فى « السياسى » إنما العكس هو الصحيح .

وأن تحالف السياسيين أمر لا بد منه وأنه عصب الحياة السياسية سواء فى مصر أو دول اوروبا أو الولايات المتحدة وان هذه التحالفات السياسية ستظل باقية بقاء الإنسان على كوكب الأرض .

ومما لاشك فيه أن سيد مرعى قد نجح فى استغلال مبدأ عبد الناصر الخاص « بتوازن القوى على المسرح السياسى » اقصى استغلال ممكن لفرض نفوذه وفلسفته على غرفة صناعة القرار أو « المطبخ » باللغة الدارجة لرجال السياسة .

وقد تلقى سيد مرعى فى بداية مشوار حياته السياسية بعد يوليه عام ١٩٥٢ دعما كبيرا من الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل أحد أقطاب مجتمع الصفوة السياسية فى العصر الناصرى .

وربما يضع البعض سيد مرعى فى إطار وقالب معين ..لكن خبراء السياسة يؤكدون أنه لايمكن الحكم على أى سياسى قبل مرور عشرات السنين لأن التقييم العادل يتطلب أحداثا جديدة فى ظروف أخرى للمقارنة والوصول لتقييم أفضل فى النهاية .

والمؤكد أن « السياسى » يجلس هنا ولا يعرف أن هناك مؤرخين ونقادا يرصدونه وإذا عرف ذلك فإنه يكون قادرا على الحركة .

وعلى أى حال فقد انتهى دور سيد مرعى مع « اغتيال » السادات مما يعنى أن القدر يرسم خطوطا فاصلة لايمكن تعديها بالرغم من أن سيد مرعى سياسى داهية .

وكل كلمات الشكر والامتنان لا تكفى أستاذنا الأستاذ عز الدين كامل الصحفى ومستشار تحرير جريدة التعاون الذى أمدنى بخبرة السنوات الطويلة فى مجال كتابة الأعمال السياسية .

وأوجه شكرى أيضاً للأستاذ محمد صيفى الصحفى ومستشار مؤسسة دار التعاون الذى صحح الكثير من معلومات هذا الكتاب خاصة أنه عاصر تلك الفترة .. وأقدم شكرى أيضاً للأستاذ أحمد مصيلحى مدير عام تحرير جريدة التعاون الذى بذل الكثير من الجهد حتى يرى هذا العمل النور .

وأقدم شكرا خاصا للأستاذ محمد إدريس سكرتير عام الاتحاد التعاونى الزراعى المركزى ورئيس اتحاد الفلاحين الأفارقة ـ وصاحب الثقافة والاطلاع الواسع ـ باعتباره صاحب فكرة هذا الكتاب .

ولا يسعنى إلا أن أهدى هذا العمل إلى أرض مصر الطيبة وشعبها الطيب وخاصة فلاحها العظيم .

محمد سامى

مقدمة الكتاب

ليس هناك شك أن سيد مرعى أحد السياسيين المصريين القلائل الذين يستحقون الكتابة عنهم لكونه أحد أعضاء مجتمع الصفوة السياسية البارزين فى مصر وأحد رموز نظامى عبد الناصر والسادات .

ويمكن القول إن مجتمع الأعيان أو ملاك الأراضى قد أمد مجتمع الصفوة السياسية بكثير من أعضائه على مدى هذا القرن .. ولكن كانت ثورة يوليه هى الخط الفاصل أو الأسوار العالية أمام مجتمع الأعيان للوصول لمجتمع الصفوة السياسية .

ولكن سجلت الأحداث عودة أصحاب الجذور العائلية العريقة ليمارسوا دورهم السياسى فى أعقاب تولى السادات السلطة .

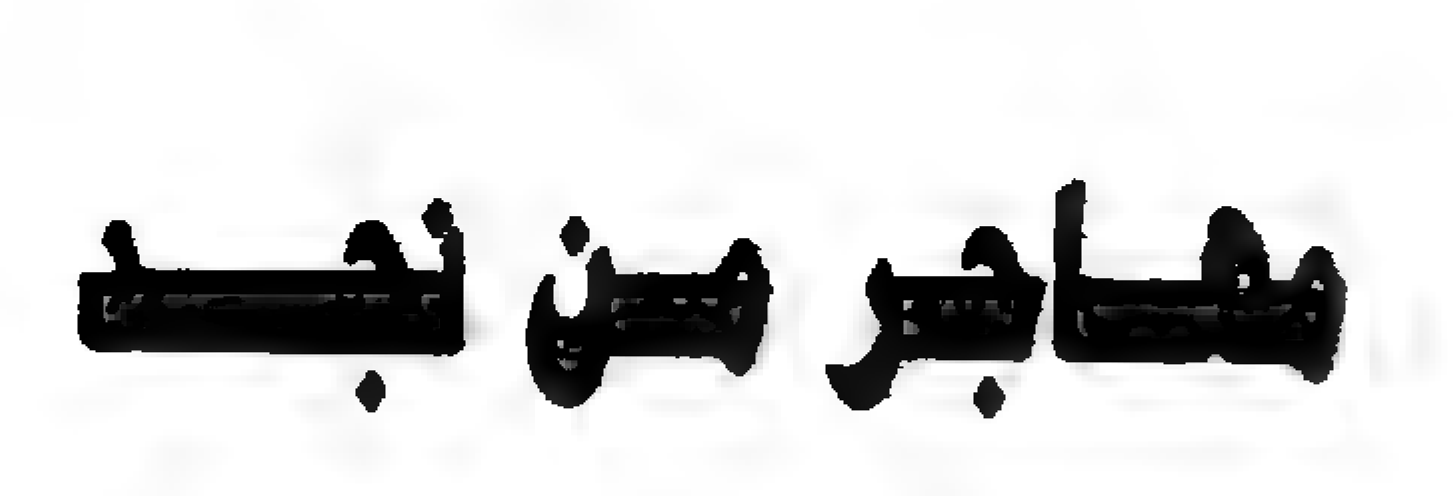
وبالنسبة لسيد مرعى فقد اقتحم عالم السياسة فى العصر البائد كأحد أبناء الأعيان ..وتمكن من مواصلة هذا المشوار كخبير زراعى فى عصر عبد الناصر وخبير سياسى فى عصر السادات .

ومن العدل أن نقول إن سيد مرعى وعائلته لايمثلون كل الأشكال والطبقات الاجتماعية الأعضاء فى مجتمع الصفوة السياسية ولكن كان لهم دور بارز فى هذا المجتمع .

جوف ويتلام

رئيس وزراء استراليا الأسبق

الباب الأول



ويسجل التاريخ أن القبائل العربية البدوية كانت حريصة على أن تهرب من مناطق الجفاف والقحط إلى مناطق أخرى يتوفر فيها أهم عناصر الحياة وهى المياه ..وتعد محافظة الشرقية ـ وهى الجزء الشرقى من الدلتا المصرية ـ مدخل أو معبر القبائل البدوية التى تفد إلى مصر من الجزيرة العربية .

وترجع أصول عائلة مرعى إلى نصر إبراهيم نصر شيخ قبيلة نصر والذى قرر أن يرحل مع قبيلته من منطقة نجد بالجزيرة العربية إلى منطقة منيا القمح التى تقع فى المنطقة الغربية لمحافظة الشرقية وذلك ـ بالضبط ـ فى بداية القرن الثامن عشر .

ويعد مرعى ابراهيم نصر من اجداد سيد مرعى . وقد ولد هذا الجد فى نفس وقت غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ وكان من الأثرياء حيث كان يعمل فى تجارة الأخشاب ثم قرر أن يستثمر أمواله فى شراء الأراضى الزراعية فى منطقة العزيزية ـ وهى إحدى قرى منيا القمح .. وقد توفى مرعى إبراهيم نصر فى فترة تمرد أحمد عرابى ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ وكان يمتلك ٣٥٠ فدانا من أجود الأراضى الزراعية مما جعله أكبر مالك للأراضى الزراعية بالعزيزية .

وقد عرفت هذه العائلات أن الوصول لقمة النظام السياسى فى مصر يبدأ من القرية بشراء أكبر قدر ممكن من الأراضى الزراعية والعمل بقدر الإمكان على شغل منصب العمودية ..وأصبح مرعى ابراهيم نصر عمدة للعزيزية خلفا لشقيقه الأكبر .

والجدير بالذكر أن مرعى إبراهيم نصر قد بدأ يتردد على سوق روض الفرج بالقاهرة كتاجر أخشاب جملة وتجزئة وكدارس أيضاً فى جامعة الأزهر لبعض الوقت . وكان متأثراً بالشيخ محمد عبده كأحد دعاة الإصلاح .

وقد حرص مرعى إبراهيم نصر على أن يعلم إبنه الأكبر حسنين القراءة والكتابة بالمنزل والا يحصل على قسط وافر من التعليم حتى لا ينسلخ عن الحياة الريفية .. وكان حريصا ايضاً على أن يلقنه دروساً فى السياسة حتى يصبح ممثلا للعائلة بالعزيزية .

وأرسل مرعى ابراهيم ابنه الأصغر من زوجته الأولى ويدعى حسين إلى باريس للدراسة تمهيدا للالتحاق بكلية الهندسة لكنه لم يكمل دراسته وعاد للقرية .

وانجب مرعى من زوجته الثانية إبنه فوزى والذى درس الحقوق فى باريس ولكنه توفى فى سن الخامسة والثلاثين .

وولد أحمد مرعى الإبن الأصغر لمرعى إبراهيم نصر قبل وفاة والده بعشر سنوات ولم يجد حتى من يشجعه على الالتحاق بالدراسة الثانوية فبدأ يعلم نفسه بنفسه الانجليزية والفرنسية وفنون الزراعة وتربية الحيوان . وبدأ يستغل أرباحه من الزراعة فى التوسع فى شراء الأراضى الزراعية .

وقد حرص أحمد مرعى على نقل أسرته للقاهرة والاستقرار بمنطقة العباسية عام ١٩١٩ لتيسير سبل التعليم للأبناء .. وظل يتوسع فى شراء الأراضى الزراعية حتى أصبح أكبر مالك للأراضى الزراعية فى أسرة مرعى والجدير بالذكر أن أحمد مرعى هو والد سيد مرعى .

البــاب الثــانى

الشخصية السياسـية فى العهـد البائـد

وقد كان سيد مرعى مثل الكثيرين من شباب جيله حيث نشأ فى القرية ثم انتقل للقاهرة فى سن السابعة ليعيش طرازا مختلفا من أسلوب المعيشة يعشقه أغلب شباب هذا الجيل وهو أسلوب حياة المدينة بصالوناتها ونواديها وأضوائها التى تخطف الابصار والعيون .

ورغم أن سيد مرعى قد بدأ يعتاد أسلوب الحياة الغربية بالقاهرة الا أن قراراته واختياراته لم تكن ملكا له حيث كانت ترتبط بولائه لوالده أحمد مرعى الذى كان يرتبط بالأرض والزراعة إرتباطا وثيقا .

وبينما حرص الشقيق الأكبر حسن على تجنب ضغوط الوالد واختار أن يدرس الهندسة وليس الزراعة كما كان الوالد يتمنى .. فقد اتجه الوالد أحمد مرعى إلى سيد وهو الابن الثانى فى الترتيب لمحاولة إقناعه لتولى شئون المزرعة والعمل السياسى نائبا عن هذا الفرع من العائلة .

وحصل سيد على البكالوريا ـ الثانوية العامة ـ بتفوق وكان ترتيبه السابع عشر على مستوى الجمهورية وكان يتمنى الالتحاق بكلية الطب حيث كان يتخيل نفسه دائما فى رداء الاطباء الأبيض لكنه فوجىء بإصرار أبيه على الالتحاق بكلية الزراعة .

وفى الصراع بين الارادتين : إرادة الأب وإرادة الإبن .. لم يجد الأب أمامه إلا أن يهدد ابنه ببيع كل اراضى العائلة بكفر الاربعين وبيع قطيع الثروة الحيوانية التى يمتلكها فى مزاد علنى إذا لم يوافق على الالتحاق بكلية الزراعة .. وبذلك انتصرت إرادة الأب .

وحصل سيد مرعى على بكالوريوس الزراعة بتفوق من جامعة القاهرة حيث كان ترتيبه الخامس ثم السابع ثم الأول ثم الرابع على مدى سنوات الدراسة بالكلية وفى فصول دراسية يزيد عدد الدارسين فيها على مائتى دارس .

وكان يتوقع الحصول على منحة دراسية للدراسات العليا ـ والتى تمنح للتفوق ـ فى بريطانيا أو الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراه وهروبا من حياة الريف .

وأمام التحدى الجديد الذى يواجه الأب لم يجد معه سبيلا إلا الاتصال بعميد الكلية لإلغاء المنح الخاصة بكلية الزراعة للدراسة فى الخارج فى ذلك العام .

والنتيجة واحدة على أى حال فقد عاد سيد مرعى إلى كفر الأربعين ليبدأ مشوار حياته الجديد كمالك للاراضى الزراعية ومشرفا على ممتلكات العائلة .. مع وعد من الأب بأنه سيكون له حق خوض الانتخابات البرلمانية محاطا بدعم العائلة بوصفه الإبن الأكبر الذى خضع لإرادة أبيه .

وخلال مشوار التعليم بالقاهرة كان سيد مرعى كفيره من أبناء العائلات الريفية البارزة لا ينتمى لأى حزب سياسى ولا يشارك فى أى مظاهرات طلابية حيث كانت الأنشطة السياسية من اختصاص عائلاتهم .

ولذلك يمكن اعتبار الطبقة المتوسطة السفلى التى ينتمى اليها جمال عبد الناصر وأنور السادات هى العمود الفقرى للحركة الطلابية وأحزاب الكفاح الوطنى وهى طبقة لم تجد اى منافسة من قبل افراد طبقة العائلات البارزة .

وقد كان زواج سيد من ابنة عمه سعاد أحد مظاهر التسليم بالتقاليد والعرف السائد وكانت فلسفة هذا الزواج هى جمع شمل العائلة لضمان مساندة سيد كمرشح عن العائلة فى الانتخابات .

وقبلت سعاد هذا الزواج بدوافع التضحية فقد نشأت فى المدينة وتعلمت فى المدرسة الفرنسية الخاصة بمصر الجديدة وهى ضاحية القاهرة الراقية .

ولتشجيع سعاد على ترك مصر الجديدة والحياة فى كفر الاربعين قام أحمد مرعى ببناء ڤيلا على الطراز الإيطالى ـ وهو الطراز المعمارى المعروف فى أبنية القاهرة فى ذلك الوقت ليقيم فيها العروسان .

وفضل سيد مرعى الانضمام للسعديين والابتعاد عن الوفد .. وبينما كان النقراشى باشا حريصا على ترشيح أكبر عدد ممكن من الأعيان من خلال السعديين لتوفير الاعتمادات المالية لحزبه فقد ساند سيد مرعى فى دائرة العزيزية الذى نجح فى هذه الانتخابات ليبدأ مشواره السياسى وربما يرجع ذلك لمقاطعة حزب الوفد لهذه الانتخابات عام ١٩٤٤ .

وكان من المألوف أن يصحب مرعى ناخبيه فى سيارته الخاصة للقاهرة لقضاء مصالحهم ضمانا لولائهم وتأييدهم وبدأ يقوى صلاته بمشايخ القرى لتأمين منصبه الانتخابى .

ورغم كل هذه الترتيبات والاستعدادات .. حدث مالم يكن فى الحسبان فى الدورة الانتخابية التالية حيث تم تشكيل حكومه جديدة للاشراف على الانتخابات وتولى محمد هاشم وزارة الداخلية .

ومحمد هاشم هو جار سيد مرعى بالشرقية وقد حاول هاشم الاستيلاء على قطعة أرض حكومية ومنعه سيد مرعى من تحقيق ذلك ووجدها فرصة للانتقام منه فى انتخابات عام ١٩٤٩ .

وممازاد الطين بلة أن فؤاد سراج الدين كان قد عرض على سيد مرعى أن يتم ترشيحه نائبا عن الوفد ولكنه صدم برفض مرعى ولذلك كان حريصا على هزيمته وانضم هاشم وسراج الدين والأخوان المسلمون فى مواجهة سيد مرعى .

وفى يوم الانتخابات قام محمد/هاشم وزير الداخلية بنقل وحدة من جنود الشرطة من صعيد مصر إلى العزيزية وقاموا بمحاصرة القرى وإيداع مشايخ القرى الموالين لمرعى فى السجن للسيطرة على الأصوات الانتخابية ومنع مؤيدى مرعى من الوصول لصناديق الانتخاب .. وبذلك نجحت قوات وزارة الداخلية فى تأمين نجاح زكى دياب مرشح حزب الوفد فى الانتخابات .

ويمكن القول إن وزن الاسرة الاقتصادى يؤثر على فرص أبنائها فى الحصول على وظائف سياسية .

والشىء المؤكد أنه لا توجد قواعد تضمن للخبراء الحصول على وظائف سياسية وإنما النجاح السياسى يتطلب من الفرد أن يقوم باتصالات شخصية مكثفة تضمن له وجود حليف واحد على الأقل - يتألق نجمه - فى ظل المتغيرات السياسية .

وبذلك يمكن التسليم بأن الاسرة أحد عوامل النجاح وضرورة لتحقيقه ولكنها وحدها لا تكفى لتحقيق هذا النجاح .

ولابد من الاشارة إلى أن بعض الأفراد يقومون بجنى ثمار انتمائهم للاسرة ومثال ذلك حين تولى المهندس سيد مرعى الاشراف على الاصلاح الزراعى وبدأ يمارس عمله فى مجالس إدارة عدة شركات زراعية - فى أعقاب ذلك - تلقى مرعى شقيق سيد مرعى دعوات للعمل فى مجالس إدارة ثلاث شركات مختلفة للقطن بينما تولى عمر شقيق مرعى أيضا مهام منصب عضو مجلس إدارة شركة مصر لتصدير القطن وأيضا عضو مجلس شركة مصر للألبان بالإضافة لعدة شركات أخرى تعمل فى مجال تصنيع الغذاء .

ويجنى أفراد الأسرة الثمار بالدعم المباشر وغير المباشر أو بامتطاء صهوة الجواد خلف نجم الأسرة المتألق .

الباب الثالث

العائلة فى عالم السياسة

الفصل الأول

روابط المصاهرة
مع عائلات ذات نفوذ

حرصت عائلة مرعى على ربط مصيرها بمصير عائلات اخرى عريقة بالمصاهرة او الزواج وهى عائلات نصير وعبد اللاه وشامس وصدقى وحبش .

وبحلول حقبة او فترة الاربعينات اصبح لعائلة مرعى صلات شخصية قوية مع قيادات احزاب الوفد والاحرار الدستوريين والشعب والحزب السعدى .. ولم تنس العائلة كذلك الارتباط بالتنظيمات السياسية الراديكالية كتنظيم مصر الفتاة والاخوان المسلمين .

وكان لهذه الزيجات الناجحة تأثير كبير على نجاح الاسرة فى ظل متغيرات جديدة وهى مرحلة حكم جمال عبد الناصر . .

وكان رجال الصفوة السياسية فى مصر - فى بداية حكم عبد الناصر - يعرفون بروابط المصاهرة بين عائلتى مرعى ومحيى الدين وان الامر يتعدى روابط المصاهرة الى نشاط اقتصادى وسياسى مشترك وتحولت هذه الروابط الى تحالف قوى .

والواقع ان هذا التحالف قد اصبح هدفا للخصوم السياسيين منذ الثلاثينات .. وحتى فى مصر اليوم تحرص العائلات الكبيرة على عدم الاعلان عن روابط المصاهرة حتى لا يبدو ان هناك علاقات اسرية تربط بين هذا او ذاك مع الوضع فى الاعتبار ان عائلة محيى الدين ليست عربية بل يرجع أصلها للاتراك المقدونيين .

وخلال الحرب العالمية الثانية تمت ثلاث زيجات بين عائلتى مرعى ومحيى الدين حيث تزوج ابراهيم ابن فاطمة وهى كبرى بنات حسنين مرعى من ابنة عم زكريا محيى الدين .. وتزوج جمال شقيق ابراهيم مرعى من سامية محيى الدين شقيقة زكريا .. وبعد اشهر قليلة تزوجت مها شقيقة ابراهيم وجمال مرعى من سيد محيى الدين شقيق زوجة ابراهيم .

وبعد الاطاحة بالحكم الملكى فى يوليه ١٩٥٢ تم اختيار سيد مرعى للتفاوض مع الحكام العسكريين الجدد ممثلا للحزب السعدى الذى ينتمى اليه . وكان قد عرف ان زكريا محيى الدين ضمن مجلس قيادة الثورة عن طريق الاذاعة .

وتم استدعاء مرعى الى مقر المجلس العسكرى الثورى فى فيللا على النيل .. وفى هذا الاجتماع شرح مرعى لمحمد نجيب القائد الصورى للمجموعة أبعاد موقف الحزب السعدى ..

وقد لاحظ مرعى انه منذ أن بدأ حديثه أن هناك ضابطا شابا ذا أنف معقوفة يقاطعه باستمرار .. وقد اثارت هذه المقاطعة غضب سيد مرعى فألمح الى انه اذا استمرت هذه المقاطعة فإن وجوده لامعنى له ولن يتمكن من توضيح الموقف لنجيب .

ولتفادى هذا الموقف الحرج اعلن زكريا محيى الدين ان الاجتماع قد تأجل وقام زكريا يرافق مرعى لخارج الغرفة موضحا ان الضابط ذا الانف المعقوف هو جمال عبد الناصر وانه القوة المحركة الحقيقية للاحداث الدرامية فى الفترة بين ٢٣ - ٢٦ يوليه وان اللواء نجيب ليس اكثر من واجهة ..

واثبت زكريا محيى الدين - وهو احد رجال الصفوة السياسية الاقوياء - فى هذا الموقف انه من الممكن ان يكون مفيدا لسيد مرعى كقناة اتصال يمكن من خلالها اقتحام اسوار الضباط الذين يحيطون بعبد الناصر .

وترجع علاقة سيد مرعى بزكريا محيى الدين الى صداقته الحميمة لعبد العزيز شقيق زكريا الاكبر الذى تخرج فى جامعة القاهرة وعمل بعدها مباشرة بوزارة الزراعة ..

وبعد تعيين مرعى وزيرا للزراعة عام ١٩٥٧ بدأت ترقيات عبد العزيز محيى الدين تسير بسرعة الصاروخ وفى عام ١٩٥٩ تم اختياره كأحد خمسة وكلاء لوزارة الزراعة ..

وترك مرعى الوزارة ثم عاد اليها بعد ذلك بنحو عشر سنوات فى اعقاب تشكيل وزارى جديد . وعرض مرعى على عبد العزيز محيى الدين منصب نائب وزير الزراعة لكنه تردد فى قبول هذا المنصب على اعتبار انه منصب غير مستقر وانه قد يتعرض فيه لهزات الكراسى الموسيقية وقرر مرعى ترقيته لمنصب وكيل اول وزارة الزراعة وهو منصب مختلق ومخترع حديثا فى ذلك الوقت ..

وعندما وصل عبد العزيز لسن التقاعد - اى بعد ذلك بنحو ثمان سنوات تم اختياره مستشارا لشركة سيبا جيجى للكيماويات وهى وظيفة اعدها له سيد مرعى .

وحرصت عائلتا مرعى ومحيى الدين على تكتم اخبار الزيجات بينهما واخفائها حتى عن رجال الصفوة السياسية حتى انه كان من الممكن عقد زيجة جديدة او حدوث حالة طلاق دون ان يلاحظها احد.

ويمكن القول إن هناك روابط مصاهرة تربط بين عائلتى مرعى وصبرى وهى عائلة على صبرى رئيس الوزراء الاسبق .

وكانت لهذه المصاهرة مظاهر إيجابية وأخرى سلبية حيث كان واضحا أن هناك منافسة واضحة بين سيد مرعى وعلى صبرى حيث كان الشابان يتميزان بالطموح السياسى .

وبعد ان نجح عبد الناصر ورفاقه فى الاستيلاء على السلطة وبدأ اسم على صبرى يتردد كواحد من الضباط الاحرار بدأ سيد مرعى يعمل على إبعاد شبح العداء المتبادل بينه وبين على صبرى .. وبعلاقته المتميزة مع اسماعيل الاخ الاكبر لعلى صبرى ـ وهو رجل الاعمال المشهور الذى كان يعمل بشركة السكر ـ بالاضافة لعلاقة مرعى المتميزة ايضا بذو الفقار صبرى الضابط بالقوات الجوية والذى يقوم فى بعض الاحيان بمهام دبلوماسية لعبد الناصر ..

ورغم ان سيد مرعى قد قام بتعيين عمر صبرى الاخ الرابع لعلى صبرى سكرتيرا خاصا فور توليه رئاسة لجنة الاصلاح الزراعى الا ان التوتر فى العلاقات بينه وبين على صبرى كان مستمرا ولاوقت فيه للمهادنة .

وفى عام ١٩٦١ تم استبعاد سيد مرعى من التشكيل الوزارى وتم وضعه فى منزله تحت الحراسة نتيجة لدسائس اعضاء المجلس العسكرى «كمال الدين حسين »« وعبد الحكيم عامر » .. فقام عمر صبرى بتقديم استقالته احتجاجا على ذلك وطلب من اخيه على صبرى التدخل دفاعا عن سيد مرعى فاستجاب على صبرى لطلب اخيه .

ولابد من الاعتراف بان على صبرى قد قام بانعاش المستقبل السياسى لسيد مرعى فى مارس عام ١٩٦٢ عندما صدر قرار بتعيينه عضوا بمجلس ادارة بنك مصر . ومع ذلك اختلفت مصالح الرجلين مرة اخرى فى نفس العام اى عام ١٩٦٣ حيث بدأ على صبرى وقتها بتوجيه دفه الحكم جهة اليسار وظهر اثر ذلك فى السياسة الداخلية والخارجية .. وبدأ يعمل مع عبد المحسن ابو النور وزير الزراعة والاصلاح الزراعى فى ذلك الوقت على اجراء تجارب فى محافظتى كفر الشيخ وبنى سويف بشأن تعميم المزارع الجماعية .

وقد كان مرعى يعارض فكرة المزارع الجماعية ولايؤمن بالاشتراكية كمبدأ .. ولذلك بدأ فى صراع آخر من خلف الكواليس مع على صبرى عندما تولى سيد مرعى منصب سكرتير اول الاتحاد الاشتراكى العربى .. وبات واضحا ان هناك اختلافات شخصية وسياسية وعقائدية بين الرجلين لاتسمح حتى بعقد هدنة .

وهناك سؤال يتردد فى الاذهان : ماذا كان يحدث لو ان على صبرى خرج منتصرا فى صراعه مع الرئيس السادات فى بداية حكمه ؟

ولاشك ان هناك مايدعو للاعتقاد بان سيد مرعي كان سيتعاون مع صبرى على الفور ويقطع علاقته بالسادات . وعلى اى حال فقد ظلت الاسرتان مترابطتين حتى بعد احداث ثورة التصحيح .

وبعد القبض على صبرى واعوانه قام سيد مرعي باعداد وظيفة لشقيقه عمر صبرى بمنظمة الاغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة .

وقد استفاد سيد مرعي من علاقة مصاهرة غير مباشرة بين عائلته وعائلة اباظة الشهيرة بالشرقية فى تدعيم علاقته باحمد اباظة الاخ غير الشقيق للشاعر الكبير عزيز اباظة .

وكان سيد مرعي يخوض الانتخابات على مدى عشر سنوات فى نفس القائمة مع سامى اباظة وهو ابن شقيق احمد اباظة فى دائرة منيا القمح وكان سامى اباظة يخوض الانتخابات كعامل ويخوضها مرعى كفلاح وفقا للدستور ،

وجاء تصنيف سامى اباظة كعامل لانه كان يعمل ببنك التنمية والائتمان الزراعى بمحافظة الشرقية - مع الوضع فى الاعتبار ان هذا البنك كان تحت سيطرة وزارة الزراعة والاصلاح الزراعى والتى كان سيد مرعى وزيرا لها .

وقد كان مرعى كسياسى يعمل منذ نهاية الاربعينات على الوصول للصحافة عن طريق اسرة اباظة وذلك لاهمية الصحافة لمستقبله السياسى .

وعلى اى حال فقد أخطأ وجيه اباظة بتأييده لعلى صبرى بعد وفاة عبد الناصر .. وسدد ثمن هذا الخطأ بقضاء فترة عقوبة مخففة فى السجن .

ولكن يبدو ان سيد مرعى كان يعرف جيدا مايريده أصدقاؤه وحلفاؤه فقد قام بتعيين سيدتين من اسرة اباظة فى السكرتارية الخاصة به فى مجلس الشعب فى الفترة بين عامى ١٩٧٤ - ١٩٧٨ .

وتعد عائلة مشهور من عائلات محافظة الشرقية التى ارتبطت مع اسرة مرعى بروابط المصاهرة .. حيث كان لنبوية نصير زوجة فوزى ثم احمد مرعى اخت وهى نفيسة نصير التى تزوجت سالم مشهور وانجبا فتاة تزوجها ابن عمها مشهور احمد مشهور .

وقد كان لمشهور احمد مشهور رئيس هيئة قناة السويس الاسبق نفوذ كبير فى عصر السادات .. وبدأ مشهور يعمل جنبا الى جنب مع عثمان احمد عثمان وسيد مرعى بالاضافة لشخصيات اخرى كانت تتغير من وقت لآخر ومنهم منصور حسن وزير الاعلام الاسبق فى عام ١٩٧٨ وكانت هذه المجموعة تشكل فريقا يمثل اكثر الرجال نفوذا حول الرئيس السادات .

وبالرغم من ان مشهور كان رئيسا لهيئة قناة السويس فإنه بدأ يوسع نفوذه لقطاعات تكنولوجية وسياسية اخرى فى مصر .

وقد تم انتخاب عبد الله احمد مشهور شقيق رئيس هيئة قناة السويس ـ عام ١٩٧٦ عضوا بمجلس الشعب عن دائرة الاسرة بالشرقية وهى دائرة مشتول السوق واصبح عضوا مرموقا فى حزب الوسط الذى ينتمى له الرئيس السادات .

وقد حرصت عائلتا مرعى ومشهور على عدم الظهور معا فى اى مكان عام .. وكانت اتصالاتهما تجرى بحرص .. إنه الحرص الا تلفت الصداقة بين الاسرتين نظر العامة .

وهناك ارتباط بين عائلتى مرعى وعلوان .. وعائلة علوان عبارة عن ملاك اراضى .. ورجال اعمال ومشايخ طرق صوفية ومن خلال المشيخة الصوفية اصبح للعائلة هذا النفوذ السياسى ومنهم الشيخ محمد علوان .

وبدأت خطوات جادة لتقليص نفوذ الدين ورجاله بعد استيلاء الضباط الاحرار على السلطة فى مصر .. وشملت هذه الخطوات الشيخ محمد علوان .. وقام الضباط الاحرار باعداد محكمة ثورية خاصة لمحاكمته .

ولكن بعد صراع بين عبد الناصر ونجيب على السلطة .. اصبح عبد الناصر فى حاجة الى الشعبية والعلاقات العامة .. واقنعه سيد مرعى ان الحد الاقصى من الشعبية يمكن ان يتحقق من خلال توزيع عقود تمليك الاراضى على الفلاحين .. واقترح على عبد الناصر ان يقوم بزيارة لقرية المنشية القريبة من بلبيس وهى مسقط راس الشيخ محمد علوان .

واقنع سيد مرعى ايضا الشيخ علوان بأن عليه أن ينسى مافات وأن يساعد عبد الناصر فى مهمته ـ وبالفعل وافق على مضض وجمع الفلاحين لمساندة عبد الناصر .. والحقيقة ان هذه الزيارة قد حققت نجاحا عظيما ونقلتها وسائل الإعلام فى عناوينها الرئيسية .

وفى مقابل ذلك قام عبد الناصر بتعيين الشيخ علوان شيخا لمشايخ الطرق الصوفية وتم زفاف هدى إبنة حسن شقيق سيد مرعى والدكتور أسامة علوان إبن شقيق الشيخ محمد علوان .

وخلال عامى ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ حلت المصائب بأسرتى مرعى وعلوان .. ففى مطلع عام ١٩٦١ تم إبعاد سيد مرعى من الوزارة وتم وضعه فى منزله تحت الحراسة .. وفى مطلع عام ١٩٦٢ تم القبض على عمر مرعى والشيخ محمد علوان بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم .

وتمت محاكمة عمر مرعى بمحكمة عسكرية وحكم عليه بالإعدام بينما تم وضع الشيخ محمد علوان تحت الحراسة فى منزله .

واستغل الشيخ علوان علاقته بالمشير عبد الحكيم عامر لرفع الحصار المفروض حوله وانقاذ عنق عمر مرعى من اسنان الديناصور .

ولم تكن هناك علاقة طيبة تربط بين سيد مرعى وبين المشير عامر ولذلك لم يحرص الاخير على التدخل لانقاذ عمر مرعى الاخ غير الشقيق لسيد مرعى لكن نجح عامر مع ذلك فى تخفيف حكم الاعدام الى السجن لمدة ٢٥ سنة مع مصادرة ممتلكاته .

وقد قضى عمر مرعى سنتين بالسجن قبل وضعه تحت الحراسة فى بيته وفى عام ١٩٧١ ظهرت شمس يوم جديد حيث تم رفع الحراسة عنه وكذلك إعادة ممتلكاته .

الفصل الثانى

العائلة شبكة للاتصالات

ويمكن القول إن العائلة قد أتاحت فرصا للمناصب السياسية لأفرادها فقد منحت العائلة افرادها فرصة الاتصالات غير المباشرة برجال الصفوة السياسية فى مصر وهى مجموعة من الصعب الاقتراب منها بغير هذا الأسلوب .

وهذه العلاقات يمكن ان تنشأ من خلال روابط المصاهرة أو من خلال علاقات الصداقة أو من خلال المشاركة فى مشروع تجارى .. إنها ببساطة علاقات تنشأ لتحقيق المصالح للطرفين .

وهناك أمثلة على التحالفات السياسية قصيرة الأجل خلال العصر البائد وفى عصر عبد الناصر وعصر السادات . ويتم فى العادة وقف العمل بهذا التحالف عندما يتحقق الهدف منه .

وفى الاربعينات على سبيل المثال بعد زواج أحمد مرعى نجل حسنين مرعى . من راوية علوبة قام سيد مرعى بفتح قناة اتصال مع على محمد علوبة شقيق راوية والذى كان يعمل بقطاع القطن . وكان سيد مرعى وقتها نائبا فى البرلمان عن محافظة الشرقية للمرة الأولى فى حياته .

وكان القطن فى ذلك الوقت هو المحصول الاقتصادى رقم واحد فى مصر حيث كان يجلب نصف الدخل القومى المصرى من الصادرات ولذلك كان القطن موضوعا هاما ومثيرا فى المناظرات البرلمانية .

وفى نفس الوقت كان مرعى النائب البرلمانى الشاب والمهندس الزراعى يشق طريقه فى المنافسة البرلمانية معتمدا على الموضوعات الزراعية التى تهم الفلاحين .

وعندما كان سيد مرعى يتعامل مع أسئلة تتعلق بإنتاج وتسويق القطن كان يعتمد على معلومات وإحصائيات وزارة المالية التى يمده بها صهره على محمد علوبة .

وبعد هزيمة سيد مرعى فى انتخابات عام ١٩٥٠ لم يعد لديه أى وازع سياسى للمحافظة على قناة الاتصال مفتوحه مع على علوبة .

وخلال الدورة البرلمانية الوحيدة التى قضاها سيد مرعى كنائب قبل حكم عبد الناصر حرص كل الحرص على توثيق صلاته بالمجموعة البرلمانية بمحافظة الشرقية من خلال استغلال علاقات العائلة وصلاتها .

وعندما استولى الضباط الاحرار على السلطة عام ١٩٥٢ حرص أعضاء أسرة مرعى على قطع العلاقات والصلات مع السياسيين الذين ينتمون للعصر البائد .. مع الحرص أيضا على إحياء علاقات أخرى مع الأفراد الذين يهيمنون على السلطة .

وبالإضافة لروابط المصاهرة بين عائلة مرعى وبين عائلات اثنين من الضباط الأحرار من عائلة محيى الدين وهما زكريا وخالد .. فقد حرصت العائلة على المصاهرة مع عائلة على صبرى وعائلة وجيه أباظة أحد الضباط أيضا .. أكثر من ذلك كانت لعائلة مرعى روابط مصاهرة مع عائلة كمال الدين حسين وهو أحد الأعضاء ذوى النفوذ فى مجلس قيادة الثورة .

وتقع ممتلكات عائلة حسين فى بنها بالقرب من الممتلكات والأراضى الزراعية الخاصة بأسرتى مرعى ونصير .

وكان والد كمال الدين حسين وفديا وكان من كبار ملاك الاراضى فى المنطقة وكان كثيرا ماتعتمد عليه عائلتا مرعى ونصير لمؤازرتهما فى الانتخابات البرلمانية .

وقد تزوج شقيق كمال الدين حسين من بنت أخت نبوية نصير الزوجة الثانية لأحمد مرعى .

وبعد الاستيلاء على السلطة عام ١٩٥٢ أصبح كمال الدين حسين عضوا بارزا فى الحكومة الجديدة وقد اختار أحد أفراد عائلة الشواربى ليكون سكرتيرا خاصا له مع الوضع فى الاعتبار أن عائلة الشواربى وثيقة الصلة بعائلة مرعى .

وفى بداية الستينات تزوج محمد نصير - نجل إبراهيم نصير شقيق نبوية - إبنة عبد اللطيف بغدادى .. لتشكل رابطة مصاهرة بين عائلة مرعى وبين عضو آخر من أعضاء مجلس قيادة الثورة . ويمكن أيضا إضافة زواج « حسن » نجل سيد مرعى من نهى إبنة الرئيس السادات .

وصدق أو لاتصدق أنه بحلول عام ١٩٧٥ أصبح لعائلة مرعى روابط مصاهرة مع عائلات أربع أعضاء بمجلس قيادة الثورة . مع الوضع فى الاعتبار أن مجلس قيادة الثورة يتكون من ١٢ عضوا .

وقد عرفت عائلة مرعى أهمية الصحافة لتحقيق النفوذ ولذلك استغلت روابط المصاهرة للوصول لصاحبة الجلالة . وذلك من خلال عائلة أباظة التى يعمل بعض أعضائها بالصحافة بجريدة الأهرام ومجلة المصور بالإضافة إلى محمد سيد أحمد وهو الصحفى البارز بجريدة الأهرام واحد دعاة الماركسية .

وكانت علاقة المصاهرة بين أسرة مرعى بالصحفى سيد أحمد من خلال بهية صدقى زوجة على مرعى حيث أن والدة بهية - زوجة إسماعيل صدقى - هى إبنة باشا سيد أحمد الصحفى بالأهرام .

والمعروف أن عائلتى صدقى وسيد أحمد من العائلات الغنية بمحافظة الغربية وهم يتشابهون مع عائلة مرعى فى المستوى الاجتماعى وعلى هذا الأساس جمعت الصداقة بين سيد مرعى ومحمد سيد أحمد .

وهناك نماذج من الزيجات أو روابط المصاهرة بين عائلة مرعى وأصحاب النفوذ فى مصر بعد عام ١٩٥٢ ومن هذه النماذج زواج عائشة شقيقة عمر مرعى إبن عم سيد من محمد عيد ابن عم عثمان احمد عثمان صاحب شركة المقاولات الشهيرة وصاحب النفوذ السياسى الضخم على مدى عصرى عبد الناصر والسادات .

ويمكن أن نقول إن روابط المصاهرة بين أصحاب النفوذ تقوم بتجديد شباب مجتمع الصفوة السياسية فى مصر حيث أن هذا المجتمع كبير وغير متجانس مما لايشجع على قيام علاقات شخصية بين أعضائها ولذلك يمكن لعلاقات المصاهرة أن تتيح الاتصال الشخصى والذى له أهمية سياسية واقتصادية كبيرة .

ولكن يجب أن يوضع فى الاعتبار أن روابط المصاهرة لاتمنع تحول اثنين من أصحاب النفوذ إلى عدوين لدودين حيث حدث صراع مرير بين كمال الدين حسين وسيد مرعى رغم وجود هذه الروابط .

والشىء المؤكد أن روابط المصاهرة ليست أكثر أهمية من عوامل أخرى مثل المصالح الشخصية .. وعندما تتضارب هذه المصالح يصبح الصدام امراً حتمياً . إنها دهاليز السياسة بلارتوش او تجميل .

ومما يؤكد هذا الكلام انه مع وجود روابط مصاهرة بين سيد مرعى وعثمان أحمد عثمان من خلال محمد عيد إبن عم عثمان إلا أن الرجلين كانا فى مواقع التنافس كعضوين فى حاشية الرئيس .

وكانت المنافسة بين سيد مرعى وعثمان لصالح عبد الناصر واستفاد منها كثيرا الرئيس السادات مع الوضع فى الاعتبار أن نجمى سيد مرعى وعثمان كانا متألقين فى عصر السادات أكثر منه فى عصر عبد الناصر .

ورغم وجود الرجلين فى حاشية الرئيس فقد كانا متنافرين ولاتربطهما اى صداقة او تحالف سياسى سوى تأييدهما المشترك للنظام الحاكم .

واذا كان الصراع يمكن أن يحدث رغم وجود علاقات مصاهرة .. فإن هذا الصراع يمكن أن يحدث بين افراد العائلة الواحدة ومثال ذلك علاقة محمد أبو نصير بباقى عائلة مرعى .

ويعد محمد أبو نصير حفيد اكثر أفراد عائلة نصير إسرافا وتبذيرا .. وكان يعيش مع والديه فى منزل ملاصق لمنزل أحمد مرعى بمنطقة العباسية بالقاهرة .

وقبل أن يصل محمد أبو نصير لمرحلة الشباب شبت النيران فى المنزل الذى يقيم فيه مع والديه وادت النيران لمصرع كل من فى المنزل فيما عدا محمد أبو نصير الذى ذهب ليعيش فى منزل أحمد مرعى .

ويبدو أن الفتى محمد أبو نصير قد نشأ وترعرع ومعه حقد وحسد دفين تجاه عائلة مرعى وأصبح ينتظر الفرصة للاستفادة من أقاربه الاغنياء .

وجاءت الفرصه عام ١٩٥٤ حين تم تعيين حسن مرعى وزيرا للاقتصاد والصناعة وبدأ يدبر الامر لتعيين محمد أبو نصير وكيلا للوزارة .

ومن خلال هذه الوظيفة بدأ محمد أبو نصير حملة شائعات ضد حسن مرعى وهو من قام بدعمه ـ وببساطة ـ استقال حسن مرعى وشغل محمد أبو نصير وظيفته .

وبعد هذا الحدث ببضعة أعوام إنضم أبو نصير لتحالف على صبرى ضد عائلة مرعى .. والجدير بالذكر أن قلوب أفراد العائلة يعتصرها الالم حتى اليوم وهى تتذكر ماحدث من محمد أبو نصير .

ولاشك أن حدوث صدع أو شرخ من هذا النوع فى العائلة يكون مكلفا حيث يستغله الخصوم السياسيون .. لكن يمكن القول إن هذه الخصومات ليست الا بعض الآثار الجانبية للترابط والاخلاص العائلى .

وفى بداية المشوار السياسى لسيد مرعى كان للروابط والعلاقات الاقليمية بمحافظة الشرقية أهمية كبيرة له . لكن مع انهيار البرلمان فى عام ١٩٥٢ وتركيز السلطة فى ايدى الصفوة من الضباط تراجعت أهمية روابط وعلاقات محافظة الشرقية .

وقد تم إحياء البرلمان مرة اخرى فى عصر الرئيس السادات وصاحب ذلك إعادة توزيع السلطة والنفوذ بانتزاعهما من الطبقة الدنيا واستحواذ الطبقة العليا أو العائلات الغنية العريقة عليهما .

وأدى شغف وحب الرئيس السادات للحياة الريفية لإحياء العلاقات بين العائلات الغنية فى الريف .

والجدير بالذكر أن سيد مرعى قد أصبح عضوا فى البرلمان لأول مرة فى عامى ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ وكان مرعى وقتها يذهب للبرلمان كما يذهب للنادى حيث كان يتعامل فى البرلمان مع الاصدقاء ومن تربطه بهم روابط المصاهرة .

وكانت عائلة مرعى خلال هذه الفترة قد ارتبطت بالمصاهرة أو تنوى ذلك مع عائلات سبعة نواب من اجمالى ١٦ عضوا بالبرلمان . وشملت روابط المصاهرة عائلة اباظة وكان من بين أفرادها أربعة أعضاء فى البرلمان .

وقد تميزت أول انتخابات برلمانية فى أكتوبر عام ١٩٧١ فى أعقاب تولى الرئيس السادات لمهام الرئاسة بعودة تمثيل العائلات البارزة بمحافظة الشرقية فى البرلمان .

والجدير بالذكر أنه من بين ٢٤ مرشحا كان بينهم سبعة مرشحين ينتمون لهذه العائلات . وقد نجح سيد مرعى دون منافسة فى مركز منيا القمح . ونجح حسين على حمدى سالم فى موطنه بأبو كبير حيث تعيش عائلة سالم .

ونجح صلاح الطاروطى ـ وهو المحامى البارز والمعروف فى القاهرة ـ فى دائرة فاقوس حيث ينتمى لاحدى العائلات الغنية والبارزة على مدى ثلاثة أجيال .

واستطاع عبد الله أحمد مشهور أحد أفراد عائلة مشهور العريقة ـ والتى ترتبط بعائلة مرعى بالمصاهرة ـ أن يحصل على مقعد فى البرلمان عن دائرة مشتول السوق . بينما نجح شقيقه مشهور أحمد مشهور رئيس هيئة قناة السويس فى الحصول على مقعد البرلمان بمنطقة نفوذه بالاسماعيلية .

وتم انتخاب محمد أمين عامر ـ وهو أحد أفراد عائلة عامر العريقة بفاقوس ـ نائبا عن دائرة أبو حماد .. بينما انتخب منصور الاحمد منصور عميد عائلة منصور ـ التى تتولى رئاسة الطريقة الاحمدية الشاذلية الصوفية بالشرقية ـ نائبا عن دائرة كفر صقر .

ويمكن القول إن كل هؤلاء النواب نجحوا فى دوائر محافظة الشرقية عام ١٩٧١ قد أعيد انتخابهم مرة أخرى عام ١٩٧٦ .

وقد خاض سيد مرعى وسامى أباظة الانتخابات البرلمانية معا بدائرة منيا القمح وكان سامى أباظة يخوض الانتخابات كعامل تاركا الصفة الاخرى لحليفه مرعى .

بينما خاض الدكتور شامل أباظة المعركة الانتخابية لاول مرة ـ وهو ابن عم سامى أباظة وشقيق ثروت أباظة الكاتب المرموق بالاهرام ونجل إبراهيم الدسوقى أباظة البرلمانى البارز وأحد قيادات حزب الاحرار الدستوريين .

وأصبح هناك سبعة من ٢٤ نائبا بمحافظة الشرقية ينتمون لعائلات ملاك الاراضى فى انتخابات عام ١٩٧١ ثم فى انتخابات عام ١٩٧٦ وهو نفس ماحدث فى انتخابات عام ١٩٥٧ قبل أن يبدأ عبد الناصر تجاربه فى الاتحاد الاشتراكى .

والوقائع تؤكد اختلاف الممارسات السياسية بين برلمان ١٩٥٧ وبرلمان ١٩٧٦ .. فقد سيطر ضباط الجيش على برلمان ١٩٥٧ مما يفسر عدم قيام النواب من ملاك الاراضى فى تلك الفترة بأى دور هام فى البرلمان .. ولكن بدأ هؤلاء النواب يتألقون عقب سيطرة الرئيس السادات على السلطة .

وخلال الدورات البرلمانية فى عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٦ كان أمر الله بليغ رئيسا للمجموعة البرلمانية بمحافظة الشرقية وصلاح الطاروطى نائبا للرئيس . وكان كلا الرجلين من العلامات البارزة فى البرلمان .

وكان النائبان سامى وشامل أباظة من النواب البارزين أيضا ضمن المجموعة البرلمانية لمحافظة الشرقية وكانا يشكلان معا سلاح سيد مرعى الذى يستخدمه عند الحاجة وكان لهما دور كبير فى الجلسات البرلمانية بين أعوام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨ .

وقد كان سامى أباظة أحد المنظمين الأساسيين للسياسات البرلمانية من خلال حزب الوسط الذى أسسه السادات ثم من خلال الحزب الوطنى الديمقراطى .. وبالاضافة لذلك كان رئيسا للجنة الشباب بالمجلس .

ويعد عبد الله مشهور أحد القيادات غير الرسمية لمجموعة محافظة الشرقية البرلمانية وربما يرجع ذلك لمكانة شقيقه مشهور أحمد مشهور كأحد أعضاء حاشية الرئيس السادات مع عدم تجاهل التحالف الذى يربط عائلتى مرعى ومشهور .

ويمكن أن نقولها بصراحة إن علاقات المصاهرة والروابط بين العائلات كان له تأثير كبير على مشوار مرعى السياسى خلال العصر البائد وخلال عصر الرئيس السادات . ولم يكن لهذه الروابط اى أهمية خلال عصر عبد الناصر حيث كانت السلطة مركزية ولم يكن البرلمان أكثر من واجهة .

الباب الرابع

التحالفات السياسية خارج نطاق العائلة

الفصـل الأول

شـــــلة الجـامعـــــة

« كانت شلة الدراسة بالجامعة تضم عزيز قدرى .. والمرحوم عبد القادر العبد .. وحسين مراد .. وحافظ عوض .. ومصطفى الفار .. وعبد العظيم شحاته وآخرين » .

« سيد مرعى »

ويقول سيد مرعى : منذ تخرجى فى كلية الزراعة حتى الآن .. أحرص على أن التقى بأصدقاء الجامعة كل ثلاثاء بمنزلى بالهرم .. إننا نلتقى كأسرة ـ ولا يهم فى ذلك الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها أى منا ـ ونناقش جميع الأمور بالروح الصادقة للأسرة المصرية .

وقد بدأ سيد مرعى تعليمه فى كُتّاب العزيزية حيث تعلم القراءة والكتابة على مدى عامين وتعلم خلال هذه الفترة أيضا تلاوة القرآن الكريم :

وعندما وصل إلى سن السابعة سافر مع عائلته للقاهرة ليعيش فى منطقة العباسية حيث بدأ تعليمه الأساسى بمدرسة السيدة نفيسة الابتدائية ثم انتقل إلى مدرسة الحسينية الابتدائية التى حصل منها على شهادة الابتدائية عام ١٩٢٨ وكان ترتيبه الأول على الفصل الدراسى الذى كان يدرس فيه .

ويمكن اعتبار مدرستى السيدة نفيسة والحسينية ـ فى ذلك الوقت ـ فى عداد المدارس الخاصة بمصروفات اعتبارية فقط أو إسمية .

والتحق بعد ذلك بمدرسة فؤاد الأول الثانوية وحصل على الشهادة الثانوية عام ١٩٣٣ وكان زملاء الدراسة بمدرسة فؤاد الأول ينتمون لعائلات يمكنها تحمل نفقات التعليم مع وجود زملاء ينتمون للطبقة الأقل المتوسطة واعتات العائلات التى تنتمى للطبقة الأخيرة ـ الأقل من المتوسطة ـ تقديم تضحيات مالية لتوفير التعليم للأبناء ويعنى ذلك أنه من بين ٢٥٠ دارسا حصلوا على الشهادة الثانوية عام ١٩٣٣ طلاب

ينتمون للطبقة الأقل من المتوسطة . وقد التحق أنور السادات ـ على سبيل المثال ـ والذى كان أبوه يعمل موظفا حكوميا بمدرسة فؤاد الأول عام ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ قبل أن ينتقل لمدرسة أخرى .

وعلى أى حال فإن اغلبية زملاء الدراسة بمدرسة فؤاد الأول وثيقو الصلة بسيد مرعى وينتمون لنفس الطبقة التى تنتمى اليها عائلة مرعى .

وكان فكرى مكرم عبيد من أبرز زملاء الدراسة وهو الشقيق الاصغر لمكرم عبيد ـ وهو من القيادات القبطية لحزب الوفد ـ الذين انشقوا عنه عام ١٩٤٢ وقام بتشكيل حزب خاص به أطلق عليه « الكتله » ولذلك كان فكرى مكرم عبيد صديقا حميما لسيد مرعى .

والجدير بالذكر أن فكرى مكرم عبيد كان أمينا للحزب الوطنى الديمقراطى عام ١٩٧٨ وهو الحزب الذى أسسه الرئيس السادات .

وكان محمود أبو زيد ـ أحد زملاء ـ الدارسة أيضا على غرار فكرى مكرم عبيد حيث كان زعيما سياسيا وفديا نشطا بمدرسة فؤاد الأول .

ويمكن ان نلاحظ بين زملاء الدراسة فى الصور المدرسية صدقى محمود والذى تقلد بعد ذلك منصب قائد القوات الجوية ثم اعتقل فى أعقاب هزيمة يونيه ـ بالضبط فى ٦ يونيه عام ١٩٦٧ .

وكان من بين زملاء الدراسة أيضا أحمد التونى السياسى البرلمانى فى عصر الرئيس السادات وعبد العزيز محيى الدين وشقيقه الاصغر زكريا اللذين انتقلا لمنطقة العباسية مع سيد مرعى بعيداً عن ممتلكات العائلة بمحافظة الشرقية .

وباستثناء عبد العزيز محيى الدين زميل الدراسة بالمرحلة الثانوية ثم الجامعة لم يكن لسيد مرعى صلة مباشرة بأصدقاء الدراسة الثانوية .

لقد كان سيد مرعى أكثر ارتباطاً بزملاء الدراسة بكلية الزراعة الذين تخرج معهم عام ١٩٣٧ . وربما يرجع ذلك لوصولهم لسن النضج وإدراك قيمة الصداقة .. مع عدم إغفال حقيقية هامة جداً وهى أن مجموعة طلاب كلية الزراعة فى ذلك الوقت كانت أكثر تجانسا وربما يرجع ذلك لتجانس أصولهم الاجتماعية عن مجموعة اصدقاء المدرسة الثانوية على اعتبار ان التعليم الجامعى فى ذلك الوقت كان لا يتحمله الا القادرون أو الموسرون .

وكمهندسين زراعيين كان عليهم أن يبدأوا مشوار الحياة العملية فى ميادين متقاربة وبمرور السنوات يشق كل منهم طريقه من خلال الوظيفة الحكومية أو أعمال أخرى .

وقبل التخرج مباشرة فى كلية الزراعة كان على زملاء الدراسة القيام برحلة ميدانية لمدة شهر كدورة تدريبية . وقد كان لهذه الرحلة تأثير كبير على سيد مرعى وزملائه حيث عاشوا معاً بعيداً عن محيط العائلة .

إن هذه الرحلات الدراسية التى يتم خلالها تبادل الخبرات العلمية تؤدى إلى تكوين المجموعات ـ والتى تكون بديلا عن العائلة ـ وهى المعروفة باسم اللشل .

وقد وجد زملاء الدراسة فى هذه الشلل كل فضائل الولاء والانتماء كما هى موجودة بين افراد العائلة .

وكان الرئيس السادات يقضى اسعد لحظات حياته مع الشلل التى كان يقوم بتكوينها فى الكلية الحربية مما يعنى أن الشلة تجلب السعادة لأفرادها .

وقد كان جمال عبد الناصر يعمل من خلال شلة يجمعها معا الولاء له أو الولاء لعبد الناصر لكنه أدان أفراد شلته فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ .

وكان عبد الناصر يشكو أن المشير عبد الحكيم عامر كان ضابطا كفء وشخصية ممتازة ولكن شلة ورفاق السوء هم السبب فى اخفاق وفشل عامر فى حرب ١٩٦٧ .

وفى ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠ تحدث الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء فى خطاب له بالبرلمان فى أعقاب وفاة عبد الناصر مؤكدا أن مرض النظام السياسى فى مصر يرجع للشللية وألمح الدكتور فوزى إلى الشلل والمقصود بها مجموعات المصالح الصغيرة التى تتكون من نفس حروف مرض « الشلل » والتى يقصد منها العجز وكلاهما وصف لنفس المرض وتؤدى إحداهما إلى الاخرى كنتيجة محتمة ومحققة .

وقد كانت الشلة التى ينتمى إليها سيد مرعى مكونة من خريجى كلية الزراعة عام ١٩٣٧ وكان الاشخاص القريبون من سيد مرعى حتى ولو لم يكونوا من أفراد الشلة يعرفون افراد شلة مرعى بالإسم كما لو كان افراد الشلة هم افراد العائلة .

وبسؤال القريبين من سيد مرعى لم يختلفوا حول أسماء أفراد الشلة .. ولكنهم اختلفوا فقط فيما يتعلق بمدى قرب أحد أفراد الشلة . من فرد آخر من افرادها أو ما يعرف بالثنائيات داخل نطاق الشلة الواحدة

وقد كان مصطفى الفار زميل دراسة لأحمد مرعى والد « سيد » وعائلة الفار من عائلات كبار ملاك الاراضى بمحافظة كفر الشيخ وعلى هذا الأساس كان مصطفى الفار ـ الابن ـ يعرف عائلة مرعى جيداً قبل أن يلتقى بسيد مرعى بجامعة القاهرة .

وخلال سنوات الجامعه الاربع حدث تقارب بين سيد مرعى ومصطفى الفار واصبحا صديقين حميمين . ولذلك لم ينقطع الاتصال بينهما حتى بعد التخرج . ويلتقيان مرة كل أسبوع على الاقل فى القاهرة أو الاسكندرية أو كفر الأربعين .

وقد استفاد سيد مرعى كثيراً من اتصالات عائلة مصطفى الفار خلال مشواره السياسى حيث كان اثنان من عائلة الفار بمجلس الشيوخ وفردان آخران من العائلة بمجلس النواب .

وكان محمد دسوقى الفار عم مصطفى هو أكثر افراد عائلة الفار لمعانا وكان ينتمى للسعديين مثل باقى افراد العائلة . وانتخب عضوا فى البرلمان فى الدورات ١٩٣٨ ـ ١٩٤٤ ـ ١٩٥٠ .

وقد قدم مصطفى الفار زميل الدراسة سيد مرعى لعمه السياسى المرموق الذى تخرج فى المدرسة الثانوية الزراعية فى دمنهور وانضم للحزب السعدى وشق طريقه حتى وصل إلى البرلمان حيث كان السعديون وقتها يشكلون الحكومات فى الفترة بين ١٩٤٥ ـ ١٩٤٩ .

وكان سيد مرعى وقتها مهندسا زراعيا حديث التخرج خاض الانتخابات لأول مرة فى حياته وأصبح عضوا فى اللجنة الزراعية البرلمانية ويريد أن يصنع لنفسه شهرة كخبير فنى متخصص فى قطاع الزراعة .. وكان محمد دسوقى الفار سعيداً بمساعدة سيد مرعى ودعمه لتحقيق هذا الهدف .

وقد قام محمد دسوقى الفار من خلال موقعه كرئيس للجنة الزراعية بمساعدة ودعم ابن أخيه « مصطفى »الذى كان يعمل بوزارة الزراعة .

والجدير بالذكر أن شقيق ـ حافظ عوض ـ أحد اعضاء شلة سيد مرعى هو الذى قام بتعيين مصطفى الفار بادارة المسح بوزارة الزراعة حيث كان مديراً لهذه الإدارة .. وبعد ذلك بدأ مصطفى الفار يتتبع نجم عمه الصاعد من خلال البرلمان .

وبدأ يجنى ثمار نجاح عمه . وفى عام ١٩٤٧ أصبح مصطفى الفار أصغر وكيل وزارة فى تاريخ وزارة الزراعة .

ويمكن القول إن عائلة الفار التى كانت تتمتع بنشاط سياسى ملحوظ فى العصر البائد ـ كما يطلقون عليه ـ قد عانت فى فترة التحول خلال حكم عبد الناصر حيث قامت سلطات الإصلاح الزراعى بالتحقيق مع اثنين من أفراد العائلة بعد صدور قانون الاصلاح الزراعى عام ١٩٥٢ وتم مصادرة ٣٢٣ فدانا من ممتلكات العائلة بكفر الشيخ .

وقد حاول محمد دسوقى الفار أن ينقذ مستقبل العائلة السياسى عام ١٩٥٧ فقرر أن يخوض المعركة الانتخابية . ويبدو أن هذا الترشيح جاء ضد رغبة النظام الحاكم .

وكان النظام الحاكم الناصرى يرى أهمية نجاح عدد لا بأس به من الموالين له فتم ترشيح أحد اقارب محمد الجيار سكرتير الرئيس جمال عبد الناصر ومترجمه الخاص واكتسح الانتخابات طبعا .

والمثير أن مصطفى الفار ـ صديق سيد مرعى ـ قد قام بترشيح نفسه فى الانتخابات النيابية عام ١٩٧٦ .. لكن يبدو أن نفوذ العائلة قد اضمحل وانكمش بدائرة دسوق بكفر الشيخ .

ورغم السنوات العجاف التى مرت بعائلة الفار فى أعقاب تولى عبد الناصر السلطة الا أن مصطفى الفار لم يشعر بهذه السنوات العجاف والفضل فى ذلك يرجع لوجوده فى شلة خريجى كلية الزراعة حول سيد مرعى حيث تم انتدابه مستشارا لمرعى بوزارة الاصلاح الزراعى إلى جانب عمله بوزارة الزراعة والتى كان مرعى وزيرا لها أيضا .

بعد ذلك قام مرعى بتعيين مصطفى الفار رئيسا لمجلس إدارة بنك التنمية والائتمان الزراعى .. وعندما وصل مصطفى الفار لسن التقاعد أو المعاش عام ١٩٧٢ قام مرعى بتعيينه مستشارا بمنظمة الاغذية والزراعة .

وفى عام ١٩٧٤ أصبح سيد مرعى رئيسا لمجلس الشعب فقام بإلحاق الفار بوظيفة مستشار لجنة الزراعةبالمجلس .

وقد استطاع عضو آخر بشلة سيد مرعى وهو حافظ عوض أن يجنى هو الاخر ثمار النجاح ويستمتع بمشوار حياة عملية طيبة بفضل الشلة وآخرين .

وينتمى حافظ عوض لعائلة من عائلات ملاك الاراضى بمحافظة الدقهلية وكان كبير عائلة عوض من الاصدقاء المقربين أيضا لأحمد مرعى والد سيد مرعى .

وقد التحق حافظ عوض بوظيفة مشابهة لوظيفة مصطفى الفار فى نفس الادارة وهى إدارة المسح بوزارة الزراعة فور تخرجه فى الجامعة وكان شقيق حافظ عوض مدير هذه الادارة .

وفى عام ١٩٥١ إنتقل حافظ لوزارة الشئون الاجتماعية .. وصدق أو لا تصدق أنه بعد عامين فقط اصبح مديرا للجنة العليا للاصلاح الزراعى التى كان يرأسها سيد مرعى وتمت ترقية حافظ عوض عام ١٩٥٧ لمنصب مدير عام بوزارة الاصلاح الزراعى وبعد ذلك بعام واحد أصبح مديرا عاما للاصلاح الزراعى .

وكان مصير حافظ عوض مرتبطا بمصير سيد مرعى حيث طرد عوض من وزارة الاصلاح الزراعى فى الاول من يناير عام ١٩٦٢ بعد خروج سيد مرعى من التشكيل الوزارى فى أكتوبر عام ١٩٦١ .

وعلى الفور قام كمال رمزى استينو وزير التموين وأحد خريجى كلية الزراعة عام ١٩٣٤ بإعداد وظيفة لحافظ عوض كوكيل لوزارة التموين .

ثم عاد سيد مرعى مرة أخرى إلى الوظيفة السابقة كوزير للزراعة والاصلاح الزراعى فعرض على حافظ عوض أن يرد له وظيفته بوزارة الاصلاح الزراعى .. لكن

فضل عوض أن يظل فى أمان بوزارة التموين حتى احالته للتقاعد عام ١٩٧٥ بعيدا عن لعبة الكراسى الموسيقية .

وشواهد التاريخ تؤكد أن أغلب أفراد مرعى عايشوا مشوار حياتهم العملية فى دواوين الحكومة .. الا أن اثنين من أعضاء الشلة قد فضلا ممارسة الاعمال الحرة وهما محمد سلماوى وحسين مراد .

وينتمى محمد سلماوى لعائلة من كبار ملاك الاراضى بدسوق بمحافظة كفر الشيخ .. وقد عمل كمستورد لطائرات رش المحاصيل الزراعية بالكيماويات .. وكانت هذه الطائرات تباع لوزارتى الزراعة والاصلاح الزراعى .

ويعد حسين مراد عضو الشلة الوحيد الذى ينتمى لمجتمع مدينة القاهرة وكانت بداية معرفته بسيد مرعى خلال الدراسة بمدرسة فؤاد الاول الثانوية .

وقد بدأ مراد عمله عام ١٩٣٧ فى الجمعية الزراعية الملكية . وعمل بعد ذلك بعدة شركات زراعية قبل ان يعمل بشركة جاناكليس وهى شركة مصرية يونانية ـ تم تأسيسها فى بداية هذا القرن ـ وكانت تعمل فى البداية فى استصلاح اراضى غرب الدلتا وانتاج النبيذ من العنب الذى يزرع فى هذه المنطقة .

واصبح مراد نائبا لرئيس شركة جاناكليس بعد تأميمها فى اواخر الخمسينات ـ او وضعها تحت سيطرة وزارة الزراعة ـ والتى كان مرعى وزيرا لها فى ذلك الوقت .

وفى عام ١٩٦١ وبعد خروج سيد مرعى من الوزارة تم القبض على حسين مراد وسجن لفترة وجيزة بتهمة إساءة استخدام المال العام بوزارتى الزراعة والاصلاح الزراعى ..

وقد بذل احمد مراد ضابط الجيش وشقيق « حسين » جهدا كبيرا لانقاذ أخيه ـ بعلاقته بالصفوة من الضباط اصحاب النفوذ . والمعروف ان احمد مراد كان معروفا وفى هذه الفترة كرئيس لنادى الجزيرة وهو المكان المفضل لتجمع الاعضاء القدامى والجدد للمجتمع الراقى .

ولا شك ان هوايات حسين مراد وباقى اعضاء الشلة قد زادت من تلاحم الشلة حيث تولى حسين مراد رئاسة نادى الفروسية المصرى فى بداية السبعينات فى الوقت الذى زاد فيه تألق سيد مرعى .

وفى نفس الوقت كان أمين زاهر ـ صديق سيد مرعى المقرب ـ لايزال رئيسا للمؤسسة الزراعية المصرية وهى الوكالة الحكومية المسئولة عن تربية الخيول العربية واستخراج شهادات النسب الخاصة بهذه الخيول .

ورغم أن أمين زاهر كان خبيرا فى الخيول الا انه كان العضو الوحيد من اعضاء الشلة الذى لم يكن مهندسا زراعيا . وقد توثقت الصلة بينه وبين سيد مرعى من خلال خبرته بالخيول حيث كان مرعى وزاهر وحسين مراد يملكون اسطبلات للخيول .

ويقضى عشاق الخيل الثلاثة مرعى وزاهر ومراد بعض وقتهم فى نادى السيارات .. (نادى السيارات الملكى سابقا) .. الذى يرأسه مصطفى الفار .

وفى المناسبات يرتاد اعضاء الشلة النادى الثقافى والذى كان يعد صالونا ثقافيا فى عصر ماقبل الثورة .. وقد سدد هذا النادى ثمن شهرته غاليا حيث تم الاستيلاء على الجزء الاكبر من المقر الخاص به ـ وهى الفيللا المطلة على النيل ـ نظرا لكراهية رجال الثورة لرموز العهد البائد .. وقد كان عضو الشلة حافظ عوض رئيسا للنادى الثقافى بالقاهرة لفترة طويلة .

وكانت الصفوة السياسية فى مصر تعرف اعضاء شلة سيد مرعى فردا فردا .. وعندما فقد سيد مرعى نفوذه عام ١٩٦١ قام مجموعة من ضباط مجتمع الصفوة السياسية وهم عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وعبد المحسن ابو النور واخرون بالعمل على تقليص نفوذ سيد مرعى بإبعاد اعضاء الشلة عن وظائفهم .

وقد ذكرنا من قبل انه تم ايداع حسين مراد السجن وتم طرد حافظ عوض من وزارة الاصلاح الزراعى ولكنه تمكن من العمل بوزارة التموين . وبينما كان امين زاهر يعمل وكيلا لوزارة الاصلاح الزراعى .. حيث عينه مرعى ـ الا انه فقد وظيفته وفى النهاية إلتقطه كمال رمزى استينو ليعمل بوزارة التموين بينما ترك القدر مصطفى الفار والذى كان وكيلا للوزارة ـ ليلقى مصيره .. وبذلك اتضحت ابعاد الصورة التراجيدية التى تعكس قمة البؤس والشقاء عقب تولى عبد المحسن ابو النور منصب وزير الزراعة .

ويعد عزيز قدرى صهر سيد مرعى احد افراد الشلة وكان مديرا لشركة جوت بلبيس ـ وهى الشركة التى كانت عائلة مرعى تمتلك جزءا منها ـ والتى تم تأميمها حديثا .

وقد مر عزيز قدرى بلحظات قلق قبل العاصفة التى أطاحت به من منصبه كمدير للشركة .

ويمكن القول على أى حال إن هذه الشلة كانت أقوى من أى قوى أو نفوذ حاولت الاطاحة بها وتفكيكها نتيجة السياسات المتطرفة فى بداية ومنتصف الستينات فى مصر .

الفصل الثانى

الشلة السياسية

وقد تعرف سيد مرعى لاول مرة بالكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل عام ١٩٥٣ عن طريق الصحفى عبد النور والذى كان صديقا مشتركا لكل منهما حيث كان عبد النور يعمل مع هيكل فى مجلة اخر ساعة وكان عضوا بارزا فى حكومة السعديين فى نهاية الاربعينيات .

وكان يربط كلا من مرعى وهيكل الاعجاب المتبادل بذكاء ونشاط كل منهما خاصة ان الرجلين من ملاك الاراضى .. وكان يجمعهما عامل الطموح كمدنيين لهما هدف مشترك وهو اقتحام الحكومة التى يسيطر عليها العسكريون .

وقد كان هيكل كدينامو سياسى بلغ حد الكمال يرى ان سيد مرعى وامثاله من الشباب المدنيين يمكن ان يكون لهم دور فى هذه الحكومة كخبراء ونجح هيكل بالفعل فى ان يجمع هؤلاء المدنيين حوله والعمل كمتحدث باسمهم .

ونظرا لأن هيكل على دراية بطبيعة العسكريين الذين تحولوا لسياسيين فقد استطاع ان يقتحم اسوارهم ويضع نفسه فى موقع ظاهر واستراتيجى .

وكان سيد مرعى وغيره من اهل الخبرة من المدنيين فى اشد الحاجة لشخصية مثل هيكل لانه فى حد ذاته قناة جيدة للوصول لمجتمع الصفوة السياسية .

ويمكن القول ان هذا التحالف التكتيكى بين المدنيين قد اكتمل تماما عام ١٩٥٦ وذلك بتشكيل حكومة جديدة فى شهر يوليو من ذلك العام شارك فيها اربعة من التكنوقراطيين او اهل الخبرة من مجموعة هيكل لاول مرة حيث تولى سيد مرعى منصب وزير الدولة للاصلاح الزراعى وتولى عزيز صدقى وزارة الصناعة ومصطفى خليل وزارة المواصلات وعبد المنعم القيسونى وزارة المالية .

وبذلك تكونت نواة شلة المدنيين التى كان ينضم اليها من وقت لاخر اعضاء من مجتمع الصفوة السياسية امثال محمود فوزى وانور السادات واسماعيل فهمى .

وقد كانت هذه الشلة اكثر من مجرد تحالف سياسى تكتيكى حيث كان افرادها يلتقون بصفة منتظمة وكان لصدقى ومرعى وخليل صلات ترجع لايام الدراسة فى جامعة القاهرة وربطت الصداقة ايضا بين قرينتى صدقى ومرعى .

وكانت الاجازات الاسبوعية تربط بين افراد الشلة وعائلاتهم وضيوف آخرين سواء فى مزرعة هيكل او مزرعة سيد مرعى المجاورتين لأهرامات الجيزة حيث يستمعون لام كلثوم او احد كبار المطربين او الموسيقيين وفى فصل الصيف تنتقل نفس الشلة للاسكندرية حيث يستأجرون كبائن متجاورة على البحر .

وكانت هذه الشلة تتبادل المصالح والمكاسب فيما بينها ومنها ان سيد مرعى قد عهد الى صديقه المقرب عادل الصيرفى ـ وهو المهندس الزراعى الثرى الذى عينه مرعى رئيسا للمؤسسة الزراعية المصرية . مهمة الاشراف على تطوير مزرعتى هيكل بالمنصورية .

وكان تبادل المصالح يشمل تغطية هيكل الصحفية لأنشطة مرعى وصدقى فى جريدة الاهرام ووضع صفحات جريدة الأهرام تحت تصرفهما فى أى وقت حتى فى حالة عدم توليهما لمناصب وزاوية .

ونظرا لقرب هيكل من عبد الناصر أصبح من اليسير عليه ان يمد افراد الشلة بمعلومات خاصة وحيوية لايعرفها غيره مع تقديم نصيحته وخبرته التى لها نفع كبير لهؤلاء المدنيين المتربصين والمتعطشين للسلطة .

لكن ذلك لاينفى ان الطموح والمنافسة والصراعات من الامور التى كادت تطيح بالشلة وتمزقها إربا حيث كان هناك شروع فى صدام وتوتر فى العلاقات بين مصطفى خليل وعزيز صدقى حيث انهما مهندسان والتنافس بينهما امر وارد وقائم .

وفى عام ١٩٦٤ شن مصطفى خليل نائب رئيس الوزراء ووزير المواصلات حملة انتقادات ضد سياسات صدقى فى قطاع التصنيع . وقد حدث نفس الشىء بين عزيز صدقى وسيد مرعى حين وضعهما السادات فى الحكومة فى موقعين متنافسين . وحدث صراع آخر بين مرعى والقيسونى حول السياسات الاقتصادية .

وفى الوقت الذى استمرت فيه اتصالات مرعى بهيكل كانت الشلة تتعرض لعوامل التفكك بفعل الصراعات . ولكن الشىء الذى لم يكن فى الحسبان هوالصدام بين السادات وهيكل .

وقد حاول سيد مرعى ان يجد حلولا وسطا لإحداث تقارب بين السادات وهيكل . وقد كان سيد مرعى مدينا بالولاء لكل منهما الا انه اجبر على الوقوف فى صف السادات .

وأصبحت الظروف او مجريات الأمور على ادق تعبير تقتضى حلا مؤلما ـ يعرفه كل السياسيين جيدا ـ وهو ان يقطع سيد مرعى اتصالاته بهيكل .. وقد حرص مرعى

على ذلك بالفعل منذ عام ١٩٧٧ الا انه كان يلتقى بهيكل لقاءات عابرة بمحض الصدفة على شاطىء الاسكندرية حيث كان يجمعهما الحوار الممتع والشيق والقصير فى نفس الوقت .

وبذلك سقطت آخر روابط شلة المدنيين التى تكونت فى منتصف الخمسينات ضحية الظروف السياسية المتغيرة فى عصر السادات .

ويمكن التأكيد على ان رجال الصفوة السياسية يضعون كثيرا من العراقيل والمطبات الصناعية والابراج العالية امام طموح أى مجموعة تريد تكوين شلة ثابتة لا تتغير حول الرئيس .. وامام الطموحات التى تتعدى الحدود يقوم الرئيس فى الغالب بوضع حدود لمرؤوسيه حتى يتمكن من الهيمنة على جميع من حوله .

ويمكن القول إن طموح رجال القمة او هؤلاء الرجال حول الرئيس يقابله ويقف له بالمرصاد حقيقة واقعة وهى حرص الرئيس على الاتصال بمجموعات مختلفة مما يمنع تكوين شلة لا تتغير حول الرئيس .

وعلى ذلك كان هناك تغيير مستمر فى افراد حاشية الرئيس السادات وكان هناك تغيير أيضا فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض أسرع كثيرا من المتغيرات التى تحدث فى نطاق الشلة التقليدية فيصبح البعيد عن مركز الدائرة او الرئيس قريبا جدا بين يوم وليلة .

وقد كان سيد مرعى مثل باقى افراد الحاشية - ومنهم عثمان أحمد عثمان و مصطفى خليل ومشهور احمد مشهور ومنصور حسن - ينعمون أحيانا بدفء القرب من الرئيس .. واحيانا تكون المسافة بينهم وبين الرئيس عدة مئات وأحيانا آلاف من الكيلو مترات وفقا لما تقتضيه السياسة .

وحتى لا نعيش فى الخيال والرومانسية علينا ان نعرف ان الشلل امر واقع وحتمى ومصيرى حيث تؤثر تأثيرا مباشرا على مستقبل السياسيين من أعضاء هذه الشلة .. واذا كنت تريد ان تعيش الواقعية بكل أبعادها عليك ان تعرف انه من النادر ان ينجح اى سياسى فى غياب هذه الشلة .

الفصـل الثـالث

التبعيــــة السيـاسيـــــة

وهناك نمط آخر يشبه نمط « الشللية » ويطلق عليه « التبعية السياسية » .. ويتكون هذا النمط من مجموعة من الافراد المتساوين وبينهم شخص اكثر نفوذا وبريقا ولذلك يدور هؤلاء الافراد فى فلك صاحب النفوذ .. ويمكن اعتبار هؤلاء الاتباع الحاشية الخاصه برجال الصفوة السياسية .

وقد كان نمط التبعية السياسية منتشرا فى عصر عبد الناصر .. وكان مجدى حسنين ـ على سبيل المثال ـ يشكل فى حد ذاته دولة داخل دولة فى مديرية التحرير . وكان عبد الحكيم عامر يفعل نفس الشىء فى القوات المسلحة . بينما حول على صبرى الاتحاد الاشتراكى العربى لعزبة خاصه به . وقد فعل سيد مرعى نفس الشىء بالاستعانة برجاله المخلصين فى المؤسسات الحكومية بقطاع الزراعة .

وعندما تم تعيين سيد مرعى رئيسا للجنة العليا للاصلاح الزراعى قام على الفور بتعيين بعض افراد شلة كلية الزراعه بهذه اللجنة . وقام ايضا بتعيين افراد آخرين لا تربطه بهم اى علاقات اجتماعية .

وقد أصبح عدد كبير من هؤلاء الموظفين رجالا مخلصين له مع انه لم يكن لاحد منهم الحق ان يحاول تكوين علاقة قوية مع رئيس اللجنة او ان يكون قريبا من الرئيس مثل اعضاء شلة الجامعة مثلا .

وكان المهندس سعد هجرس احد رجال سيد مرعى . وكانت بداية مشوار سعد هجرس حين قامت حكومة الوفد عام ١٩٥٠ بتبنى برنامج لتوزيع ستة الاف فدان على الفلاحين المعدمين تحت اشراف وزارة الشئون الاجتماعية .

وقد استفاد سعد هجرس من المنحة الدراسية ـ التى قدمتها الامم المتحدة ـ والخاصة بدراسة نظم توزيع الاراضى فى اوروبا ولذلك عين مستشارا فنيا لرئيس هذا المشروع .

وتعرف سيد مرعى على سعد هجرس من خلال نقابة الزراعيين وعرض عليه وظيفة باللجنة العليا للاصلاح الزراعى .

وحاول عباس عمار وزير الشئون الاجتماعية وقتها ان يكون له ولوزارته دور فى الاصلاح الزراعى فحاول وقف نقل سعد هجرس من وزارة الشئون .

وقد كان لسيد مرعى علاقات افضل برجال الصفوة من العسكريين تفوق بكثير علاقات عباس عمار .. ولذلك تمكن من نقل هجرس ومعه اثنان من افضل الخبراء الفنيين وهما محمود فوزى وعزت صقر من ادارة توزيع الاراضى بوزارة الشئون الاجتماعية .. واصبح الثلاثة من رجال سيد مرعى ـ الذين يعتمدون فى ترقياتهم ـ على تألق نجم سيد مرعى فى مجتمع الصفوة . وعمل سعد هجرس كوكيل لادارة توزيع الاراضى باللجنة العليا للاصلاح الزراعى فى الفترة ما بين ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦ .

وتم ترقيته الى وظيفة السكرتير الفنى لوزارة الاصلاح الزراعى فى هذه الفترة . وفى عام ١٩٦٠ أصبح مديرا عاما لهيئة الاصلاح الزراعى ـ وهى وظيفة ـ تم فصله منها مباشرة فى اعقاب سقوط اسم سيد مرعى من التشكيل الوزارى فى أكتوبر عام ١٩٦١ .

وبعد ذلك بسنة واحدة قام سيد مرعى باتصالات مع منظمة الاغذية والزراعة لترتيب وظيفة لسعد هجرس كمستشار للمنظمة فى نيجيريا .

وفى عام ١٩٦٣ قام سيد مرعى باعادة حليفه سعد هجرس الى مصر للمشاركة فى مشروع تحسين الاراضى فى محافظتى المنوفية والمنيا وهى مهمة كلف بها مرعى عن طريق جمال عبد الناصر . وربما يكون اسناد هذه المهمة لسيد مرعى احد وسائل جمال عبد الناصر لإحداث توازن فى القوى مع مجموعة على صبرى وعبد المحسن ابو النور فى قطاع الزراعة .

وقد عمل على صبرى وعبد المحسن ابو النور وزير الزراعه على تخريب هذا المشروع بحبس ومنع التمويل اللازم له .. وبذلك تسبب سيد مرعى فى وقوع هجرس فى ورطه كبيرة حيث بدأت شخصيه سعد هجرس تستحوذ على اهتمام عبد الناصر باعتبار إنه خبير لايؤدى اى عمل .

وقام عبد الناصر على الفور بنقل هجرس لشغل منصب وكيل وزارة التخطيط للشئون الزراعية .. وبتعيين هجرس فى هذه الوظيفة اصبح فى امكان عبد الناصر ان يراقب لبيب شقير وزير التخطيط واحد التابعين لعلى صبرى .

وبدأ هجرس من خلال عمله بوزارة التخطيط حملة شرسة ضد عبد المحسن ابو النور وزير الزراعة والاصلاح الزراعى واستصلاح الاراضى خاصة فيما يتعلق بخطته الطموحة جدا لاستصلاح الاراضى .

وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ عاد سيد مرعى الى الحكومة . وعلى الفور عرض منصب رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة للإصلاح الزراعى على حافظ عوض صديقه فى شلة الجامعة . ولكنه رفض على اعتبار ان قبول هذا المنصب مخاطرة كبرى .

وقبل سعد هجرس العودة لمنصبه حيث يشكل هذا المنصب عزبة خاصة بالنسبة له يديرها بمعرفته . وفى ظل حماية مرعى بدا هجرس يكثف اتصالاته فى وزارة الزراعة والتى كان يشغل فيها منصب وكيل الوزارة لسنوات طويلة .

ولكن بدأت علاقات الولاء تتحطم نتيجة طموح سعد هجرس والتى استغلها اعداء سيد مرعى افضل استغلال حيث قام هجرس بترشيح نفسه عضوا بمجلس الشعب بدائرة بلقاس ـ مسقط رأس عائلته ـ بمحافظة الدقهلية وفاز بالاغلبية الساحقة .

وبالرغم من ان سعد هجرس أصبح عضوا بمجلس الشعب للمرة الاولى ـ الا انه وبمساندة ودعم ممدوح سالم رئيس الوزراء وعدو سيد مرعى اللدود ـ اصبح رئيسا للجنة الزراعة وهى اكبر لجنة بمجلس الشعب .

وخلال العامين ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ كان ممدوح سالم يساند سعد هجرس الذى احرز تقدما على عدة جبهات حيث اصبح احد نواب رئيس الحزب الوسط وتم انتخابه رئيسا لنقابة الزراعيين ورئيسا لنقابة الزراعيين العرب .

وفى نهاية عام ١٩٧٧ بدأ هجرس حملته الانتخابية لمنصب وكيل مجلس الشعب . ولكن سيد مرعى كان يشغل وقتها منصب رئيس المجلس .. ونظرا لتزايد نفوذ سعد هجرس مع ممدوح سالم ـ قرر سيد مرعى مساندة جمال العطيفى الذى فاز فى الانتخابات واصبح وكيلا للملجس .

وبدأ سيد مرعى حملة شرسة ضد سعد هجرس خلال الجلسة التالية لانتخاب العطيفى وكيلا للمجلس .. وظهر التأثير المباشر لهذه الحملة بين اعضاء المجلس حيث بدأ هؤلاء الاعضاء يتهامسون بان منصب سعد هجرس كوكيل لوزارة الزراعة يتعارض مع منصبه كرئيس للجنة الزراعة بمجلس الشعب .

وببساطة يمكن القول إن علاقة سيد مرعى بسعد كانت علاقة الوسيلة للوصول للغاية حيث كان مرعى يقوم بحماية سعد هجرس ودفعه للامام عندما تكون الظروف ملائمة ـ فى مقابل ـ دعم سعد هجرس له سياسيا ووظيفيا داخل قطاع الزراعة .

ويمكن القول بأن العلاقة بين مرعى وسعد هجرس ينقصها روابط الولاء والانتماء والاخلاص التى تتميز بها الشلة .. وتؤكد الوقائع ان سعد هجرس لم يحضر أبدا اجتماعات وجلسات الشلة فى مزرعة سيد مرعى بالمنصورية .

وببساطة اكثر يمكن الحكم على علاقة مرعى وهجرس بانها علاقة وظيفية . وهى علاقة تظل قائمة طالما كان كل منهما فى حاجة للآخر .

وقد حدث تغير فى العلاقة بين مرعى وهجرس نتيجة لعاملين ـ فى نهاية عقد السبعينات ـ أولهما ان سعد هجرس كان قد وصل الى أعلى مستوى يمكن ان يصل

اليه بعلاقته بسيد مرعى .. كما ان نفوذ سيد مرعى وقتها كان قد بدأ يقل ويضمحل مما جعل هجرس يبحث عن روابط وعلاقات جديدة تحقق له مزيدا من النجاح .

والعامل الثانى هو تغير بناء ونسيج مجتمع الصفوة السياسية ذاته . والتطورات التى تلاحقت فى الاقتصاد السياسى للدولة ككل حيث بدأت اسهم القطاع العام تتراجع وبدأ يفقد أهميته بعد حرب ١٩٧٣ وبدأت تلوح فى الافق فرص جديدة للعمل بالقطاع الخاص مما ادى الى زيادة عدد اعضاء وافراد مجتمع الصفوة . واصبح على رجال الاقتصاد الموجه ان يفسحوا الطريق لنظام جديد تتاح فيه الفرص وهو القطاع الخاص .

وقد كان لشبكة المؤيدين والتابعين قيمة كبيرة ، فى ظل النظام المركزى الناصرى ـ ومثال ذلك شبكة التابعين التى كان يملكها عبد الحكيم عامر .

وفى الظروف الحالية يصعب تكوين شبكة من الاتباع لان القطاع العام لم يعد يتحكم الا فى نسبة ضئيلة من الاقتصاد القومى .

وقد كان سيد مرعى يرتبط بسعد هجرس كما كان يرتبط بغيره . وهى روابط فقدت قيمتها او نفعها لان القطاع الزراعى لم يعد مطعما فى حد ذاته حيث قلت وتناقصت الفرص والمغانم الاقتصادية والسياسية التى يمكن الحصول عليها من هذا القطاع .

ولم يكن سيد مرعى حريصا على استمرار علاقته بسعد هجرس وآخرين .. وبدأ يبحث عن علاقات وفرص جديدة من خلال عائلته واتصالاتها بمحافظة الشرقية والتى بدأت تطفو على السطح مرة اخرى كشبكة لها قيمتها فى مجتمع الصفوة السياسية والاقتصادية .

الباب الخامس

العائلة في دنيا المال والتجارة

الفصـــل الأول

قــائمـــة كبـــار مـــلاك الأراضـــى

عندما صدر قانون الاصلاح الزراعى فى سبتمبر ١٩٥٢ تم اعداد قائمة بجميع ملاك الأراضى الزراعية الذين تعدوا الحد الأقصى للملكية المسموح به فى القانون .

ولم يظهر فى هذه القائمة من عائلة مرعى سوى اسمين فقط الأول « أمين » نجل حسين مرعى و « على » نجل فوزى مرعى حيث كان « أمين » يمتلك ١٥٠ فدانا فى الزقازيق و٥٠ فدانا فى بلبيس .

ومن واقع المعلومات التى تم الحصول عليها من افراد أسرة مرعى نفسها ومن أشخاص آخرين وثيقى الصلة بالعائلة تبين أن قانون الإصلاح الزراعى الثانى الذى صدر عام ١٩٦١ ولم يكن سيد مرعى وقتها فى وضع يمكنه فيه التصرف ـ مما أدى لظهور أسماء من عائلة مرعى واسم واحد من عائلة نصر فى قائمة الاصلاح الزراعى .

وقد يكون القانون الثانى للاصلاح الزراعى ينص على أن الحد الأعلى للملكية الفرد مائة فدان بالإضافة إلى مائة فدان أخرى للأبناء .

وكان « حسين » والد زوجة سيد مرعى واثنان من بناته سميرة وسميحة ضمن أسماء عائلة مرعى التى تضمنتها قائمة الإصلاح الزراعى وقد تم اغفال اسم « سعاد » زوجة سيد مرعى والاخت الثالثة من القائمة وربما تم حذف اسمها لانها قامت بتحويل ممتلكاتها باسماء أبنائها بينما لم تفعل أختاها ذلك .

وظهر اسم « عبد العزيز » عم سعاد فى قائمة الإصلاح الزراعى عام ١٩٦١ وفقد ٥٧ فدانا بينما فقد « حسن » والد سعاد ٣٩ فدانا .

وكان على « أمين مرعى » أن يذعن للتحذيرات ويتخلص من ممتلكاته الزراعية بطريقة أو بأخرى ولكنه لم يفعل ذلك ولذلك ظهر اسمه مرة ثانية فى قائمة عام ١٩٦١ وبذلك يكون قد تم تطبيق قانون الاصلاح الزراعى على « أمين مرعى » .

والوقائع تؤكد أن سيد مرعى قد تعرض لاستياء وغضب أفراد الأسرة « أمين » و « حسن » و « عبد العزيز » الذين وجهوا له كثيرا من اللوم لانه لم ينبههم لهذا الخطر القريب .

وقد شعر « حسن » على وجه الخصوص انه قد غرر به حيث سأل سيد مرعى قبل ساعات فقط من اذاعة بيان القانون الجديد فى الاذاعة عن حقيقة اعداد قانون جديد للاصلاح الزراعى لكن سيد مرعى تهرب من الاجابة على هذا السؤال ! .

وبالرغم من أن عائلة مرعى لم تفقد أكثر من ١٢٥ فدانا على مدى قانون الإصلاح الزراعى ١٩٥٢ ـ ١٩٦١ فى فترة حكم عبد الناصر إلا أن هذه الخسائر ادت إلى شروخ فى نفوس أفرادها لكن يبدو أن خسائر فقد الأراضى لم تكن هى كل المشكلة حيث كان هناك تهديد آخر تبدو آثاره فى الساحة وهو تحول دفة السياسة جهة اليسار منذ منتصف الستينيات وكان سيد مرعى حامى قلاع العائلة وقتها على الرف أو خارج السلطة بعد صراع مع رجال الصفوة .

وفى شهر مايو عام ١٩٦٦ تم تأسيس لجنة تصفية الاقطاع مما يعنى ابتلاع مساحات جديدة من الأراضى الأمر الذى أثار الرعب فى قلوب أفراد العائلة .

ويسجل المؤلف الأمريكى إجتماعات العائلة فى ساعات الليل المتأخرة وكان سيد مرعى ومعه قيادات العائلة خلال هذه الساعات الطويلة يحددون ممتلكاتهم فى محافظات الشرقية والقليوبية والمنوفية على الخرائط المساحية لسرعة التخلص من هذه المساحات بالبيع أو بأى وسيلة أخرى قبل أن تسطو عليها لجنة تصفية الإقطاع .

ولكن تتغير الدنيا بين يوم وليلة فى أعقاب هزيمة عام ١٩٦٧ وانشغال المشير عبد الحكيم عامر رئيس لجنة تصفية الإقطاع فى تفادى الكارثة الكبرى ثم اختفائه من الساحة بموته .

ومع ذلك قررت العائلة التخلص بالبيع من بعض ممتلكاتها الزراعية وتم التركيز على بيع ممتلكات الافراد الذين ظهرت أسماؤهم فى قائمة الاصلاح الزراعى عام ١٩٦١ .

وعندما تولى سيد مرعى رئاسة اللجنة العليا للاصلاح الزراعى والتى كان يشرف عليها الرئيس بنفسه قام بتعيين « عزيز قدرى » عديله مديراً للابحاث بهذه اللجنة وبعد ذلك بزمن قصير قام بترقيته سكرتيرا عاما للجنة وفى عام ١٩٥٦ تم تحويل اللجنة إلى وزارة ولم تعد تصرف مرتبات وحوافز مجزية لموظفيها فلم يعد امام عزيز قدرى إلا أن يترك وظيفته .

وحصل عزيز قدرى على وظيفة أخرى افضل حيث تم تعيينه رئيسا لمجلس ادارة اكبر شركة للجوت فى مصر والتى أسسها أفراد عائلة مرعى مع بعض الأصدقاء المقربين .

وأصبحت شركة الجوت المورد الرئيسى للاكياس والعبوات لجمعيات الإصلاح الزراعى والتى كان سيد مرعى ـ رئيسا لها .

وبعد ذلك بعام واحد قام قدرى بنقل أعمال الشركة من شبرا الخيمة بالقاهرة إلى بلبيس بالشرقية حيث توجد ممتلكات العائلة من الأراضى الزراعية .

وبذلك يكون « عزيز قدرى » قد استفاد من سيد مرعى عن طريقين أولهما الاستفادة بموقعه الحكومى وما يمكن أن يقدمه من خلال هذا الموقع من وظائف ثانيهما الاستفادة بما يتيحه سيد مرعى من استثمارات .

ولكن باتجاه عبد الناصر نحو التصنيع وتأميم الشركات لم يعد فى إمكان أى شخص أن يتحكم ويسيطر على قطاع بعينه .

وقد تم تأميم شركات الجوت عام ١٩٦١ فقام عزيز صدقى وزير الصناعة واحد حلفاء سيد مرعى وقتها بالابقاء على عزيز قدرى مديراً للشركة وهى وظيفة ظل يشغلها حتى أحيل للمعاش فى بداية السبعينيات .

وفى أعقاب استيلاء العسكريين على السلطة فى مصر وقبل أن تبدأ حكومة عبد الناصر تجاربها البيزنطية كان يمكن لسيد مرعى أن يراس اللجنة العليا للاصلاح الزراعى ويؤدى بعض أعمال خاصة أخرى من خلال شركات أخرى يعمل بعضها فى مجال مستلزمات الانتاج الزراعى مثل الأسمدة والمبيدات والائتمان كالفرع المصرى لشركة شل وشركة ابو زعبل الزراعية وبنك مصر وكانت عضوية هذه المؤسسات تحقق لسيد مرعى دخلا سنوياً قدره ١٥ ألف جنيه علاوة على ذلك كان يعمل على مضاعفة مرتبه من وظيفته كرئيس للجنة الاصلاح الزراعى وكذلك مرتبات العاملين باللجنة لتحقيق أجور مجزية للاقارب .

وقد تم تعيين أحمد مرعى زوج أخت سيد مرعى فى وظيفة بشركة ابو زعبل ظل بها حتى أحيل للمعاش .

وبعد أن فقد « حسن » شقيق سيد مرعى منصبه كوزير للاقتصاد والصناعة عام ١٩٥٤ تم إنشاء مكتب استشارى له يقدم المشورة والخبرة لشركة الجوت التى تمتلكها العائلة ويديرها «عزيز قدرى » .

ويمكن القول إن عائلة مرعى التى انتعشت بعد تطبيق سياسة الانفتاح قد ركزت جهودها خلال فترة حكم عبد الناصر لخدمة مصالح افرادها عن طريق مبدأ « الواسطة » السائد وقد كان « الواسطة » هو عزيز صدقى للابقاء على عزيز قدرى مديراً لشركة الجوت بعد التأميم .

الفصل الثانى

الاستثمارات فى المدينة

وقد واجه سيد مرعى تحد آخر فيما يتعلق بممتلكات بعض افراد العائلة فى الزقازيق حيث كان هناك تهديد بفقد هذه الأراضى فى بداية عام ١٩٧٠ لانشاء جامعة الزقازيق وقد استفاد سيد مرعى من بطء الإجراءات الحكومية فى رفع سعر هذه الأراضى وبالطبع كان الامتنان والعرفان بالجميل والشكر هو المقابل الذى حصل عليه نظير جهوده فى انقاذ بعض افراد العائلة من هذه الورطة .

والشىء المؤكد أن العائلة ليست مؤسسة مالية وانما يمكن القول إن العائلة شبكة اتصالات تحقق لافرادها المكاسب .

وقد شق أفراد العائلة الذين لايعملون بالزراعة طريقهم من خلال الجهد والعرق أو من خلال استثماراتهم والواقع يؤكد أن عائلة مرعى لاتمتلك بكامل افرادها شركة لامداد افرادها بالوظائف .

ويمتلك سيد مرعى نفسه عدة شركات صغيرة بالاضافة لمجموعة من الخيول العربية والتى يشرف عليها « نصر مرعى » نجل سيد مرعى ويقدر عدد المهور العربية الأصيلة التى يملكها بنحو ٤٢ مهرا عربيا أصيلا باع ثلاثة منها للمربين فى أوروبا والولايات المتحدة وفقا لاحصائيات الخيول العربية فى مصر فى الفترة بين ١٩٧١ ـ ١٩٧٥ .

ويعد اسطبل « البادية » الخاص بالمهور العربية والذى يملكه سيد مرعى واحدا من أكبر اسطبلات الخيول فى مصر .. ويحقق للعائلة عائدا محترما خاصة فى ظل زيادة الطلب على شراء المهور العربية الاصيلة وزيادة اسعارها .

والجدير بالذكر أن ممتلكات سيد مرعى فى القاهرة والدلتا كانت هدفا للارهابيين من معارضى النظام فى نهاية عقد السبعينيات .

وقد نشرت جريدة « السفير » اللبنانية فى عددها الصادر بتاريخ ١١ يوليه عام ١٩٧٩ تصريحاً لتنظيم معارض لحكم السادات يطلق عليه « الضامرون » يعلن فيه عن مسئوليته عن الحريق الذى شب بمنطقة شبرا الخيمة .

والجدير بالذكر أن سيد مرعى يمتلك ثلاثة مصانع للنسيج بشبرا الخيمة وقد دمرتهم النيران وأدت لوفاة ١١ شخصا .

وفى مايو عام ١٩٧٦ شب حريق بمزرعة سيد مرعى بالحرانية وذكر تقرير الشرطة انه ربما يرجع « للعب الأطفال بالكبريت » .

ويركز أفراد العائلة نشاطهم فى ميادين بعينها خاصة الزراعة والطب وطبعا لايمنع ذلك من أن يعمل أحد أفراد العائلة كوسيط لتعيين أحد أفراد العائلة فى وظيفة ما أو تحقيق مكاسب لذوى القربى عن طريق أصحاب النفوذ ورجال الأعمال .

ويمكن لفرد من العائلة أن يحقق مكاسب لفرد آخر بالعائلة دون اللجوء للغرباء وقد حدث بالفعل عندما قام الدكتور عبد العزيز مرعى عميد كلية الاقتصاد فى وقت ما بتعيين الدكتور « أمين عبد اللاه » زوج « بهية » ابنة عمته فى منصب بنفس الكلية .

وقام صديق وحليف آخر هو مصطفى خليل وكان يشغل منصب وزير الصناعة ايضا بانقاذ « مرعى » شقيق سيد مرعى بالابقاء عليه رئيسا لمجلس ادارة الشركة القومية للورق بالاسكندرية بعد تأميمها عام ١٩٦١ بعد ذلك بخمس سنوات تم تعيينه رئيسا لمجلس ادارة مؤسسة الكيماويات التى تشرف على كل الشركات الوطنية التى تعمل فى هذا المجال .

وفى عام ١٩٦٨ عاد « عمر عبد الرحمن » نجل « عايدة مرعى » من بريطانيا بعد حصوله على زمالة كلية الجراحين الملكية الانجليزية وعلم ان وظيفة طبيب جريدة الأهرام شاغرة فقام بالاتصال بعمه سيد مرعى الذى صحبه لمكتب الصديق محمد حسنين هيكل ومازال الدكتور عمر عبد الرحمن يشغل الوظيفه للآن ويقوم باحالة المرضى الذين يحتاجون لأخصائيين إلى عيادة الدكتور « محمد » ابن خالته أو الدكتور « قاصرى مدور » زوج أخته .

والشىء الذى لا يمكن تجاهله ان مبدأ « الواسطة » هو مفتاح النجاح الاقتصادى فى ظل المذهب الاشتراكى حيث تسيطر الدولة على وسائل الانتاج وتصبح فى ايدى قلة من الصفوة ولا شك أن عائلة مرعى مثل عائلات أخرى استطاعت ان تحول نفوذ العائلة إلى عملة أخرى يطلبها كل الناس .

ان عائلة مرعى شأنها شأن عائلات اخرى من كبار ملاك الأراضى الزراعية كان لها دور فى الحياة السياسية والاقتصادية قبل يوليه عام ١٩٥٢ ثم استمرت فى تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية خلال عصر عبد الناصر .

لقد كان الحال يسير على نفس المنوال مع عائلة مرعى حتى أعلن السادات البدء فى تنفيذ سياسة الانفتاح الاقتصادى فى أعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ وهى سياسة تعنى فى المقام الأول تشجيع القطاع الخاص بصفة عامة مشابهة للظروف الاقتصادية قبل عام ١٩٥٢ .

الفصل الثالث

إقتحام عالم البنوك

وبدأت عائلة مرعى تعمل على تعديل استراتيجيتها بما يتفق مع المتغيرات الجديدة على الساحة وقد بدأ عمر مرعى يجنى ثمار الانفتاح بعلاقته الممتازة بالسعوديين بشغل منصب رئيس مجلس ادارة بنك فيصل الإسلامى وبدأ يبحث عن طاقم كامل يعمل معه حتى انه ألحق احد الارقاب وهو « احمد نصير » البالغ من العمر ٧٠ عاما مستشارا بالبنك مع الوضع فى الاعتبار ان احمد نصير قد نشأ مع عمر مرعى فى بيت احمد مرعى وزوجته الثانية نبوية ووالدة عمر .

وقد قام سيد مرعى بدعم احمد اصدقاء العائلة ليشغل منصب رئيس مجلس ادارة شركة سيبا جيجى وهى اكبر شركة منتجة للكيماويات الزراعية فى مصر وقد ألحق هذا الصديق نصر نجل سيد مرعى بوظيفة كبير مستشارى الشركة فى منطقة الخليج للاشراف على توسعات الشركة بهذه المنطقة كما قام صديق العائلة ايضا باتاحة وظيفة اخرى لحسن نجل سيد مرعى الاصغر وهى الاشراف على انتاج وتسويق معجون اسنان جديد من انتاج الشركة .

وفى عام ١٩٧٤ أصبح « مرعى » شقيق سيد مرعى مسئولا عن العلاقات الاقتصادية بين مصر وإيران .

ومن خلال هذه الوظيفة قام بالاعداد لاستيراد أسطول من أتوبيسات النقل العام من طراز مرسيدس والتى تم تجميعها فى إيران للاستعمال فى القاهرة عن طريق هيئة النقل العام .

وقد اتهم المسئولون عن صفقة الأتوبيسات الإيرانية بالفساد والرشوة خاصة بعد ان تبين ان ثمن الاتوبيس الذى تم تجميعه فى إيران يفوق بكثير سعر الاتوبيس الألمانى من إنتاج شركة مرسيدس نفسها .. وقد حاول زعماء المعارضه « حلمى مراد » و « محمود القاضى » إثارة موضوع الرشوة فى مجلس الشعب .. الا ان انصار سيد مرعى رئيس مجلس الشعب وقتها نجحوا فى اسكات هذه الأصوات .

والشىء المؤكد ان لعائلة مرعى علاقة ما بالبنوك والمؤسسات المالية ترجع لعام ١٩٣٢ عندما عمل احمد نصير ابن عم سيد مرعى بوظيفة إدارية ببنك الائتمان الزراعى والذى أسسه إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت فى عام ١٩٣١ وذلك لتخفيف حدة الازمة المالية الطاحنة التى تعرض لها ملاك الاراضى الزراعية فى مصر خلال سنوات الكساد التى سادت العالم .. والمعروف ان احمد نصير كان قد تزوج ابنة إسماعيل صدقى باشا عام ١٩٣١ .

وقد كان هذا البنك تحت إشراف وزارة المالية ثم تغير اسمه إلى بنك التعاون الزراعى ليكون تحت إشراف وزارة الإصلاح الزراعى بعد ذلك ليصبح تحت سيطرة سيد مرعى واصبح شقيقه « عمر مرعى » رئيسا لمجلس إدارة البنك المصرى العربى .. وقد فقد « عمر » هذه الوظيفة بعد خروج أخيه سيد مرعى من الوزارة بشهور قليلة فى عام ١٩٦١ .

وفى شهر مارس ١٩٦٣ عاد سيد مرعى مرة ثانية إلى الحياة العامة بصدور قرار جمهورى بتعيينه عضوا بمجلس إدارة بنك مصر . أى بعد ١٨ شهرا من العزلة السياسية .

وفى عصر الرئيس السادات أصبح الباب إلى البنوك مفتوحا على مصراعيه أمام عائلة مرعى حيث شغل « حسن » نجل سيد مرعى أول وظيفة له بعد تخرجه فى الجامعة الأمريكية بالبنك العربى الأمريكى فى بداية السبعينيات .. كما احتل « عمر » شقيق سيد مرعى موقعه بلا منافس ـ طبعا ـ رئيسا لبنك فيصل الإسلامى .

والشىء المؤكد أن العائلة عامل مهم جدا لأفرادها حيث يحصل عضو العائلة على وظيفة ـ بالطريق المباشر ـ من فرد آخر بالعائلة .. أو بالطريق غير المباشر عن طريق الاتصالات أو ما يعرف باسم « الواسطة » .. أى أن العائلة هى الملجأ الأول لأى فرد من أفرادها وهو يبحث عن الوظيفة .

الباب السادس

خبير زراعى
فى بداية عصر
عبد الناصر

الفصل الأول

الطريق للجنة العليا للإصلاح الزراعي

فى يوم ٢٣ يوليه ١٩٥٢ عرف سيد مرعى بقيام الثورة عن طريق بيان الإذاعة الذى تلاه أنور السادات . وقد كان سعيداً حين عرف أن زكريا محيى الدين ضمن الضباط الأحرار وذلك لوجود صلة مصاهرة بين العائلتين رغم أن سيد مرعى لم تكن تربطه أى صداقة بزكريا محيى الدين .

وكان سيد مرعى وقتها يشعر بالقلق فهو لا يعرف ماذا فى ظل المتغيرات الجديدة ؟ .. ولم يكن أمامه إلا تكثيف نشاطه بين رجال الأحزاب الذين يمثلون العصر البائد .

وقد أصدر حزب الوفد بيانا يوم ٢٩ يوليه أى بعد ستة أيام من قيام الثورة *أعلن فيه أن الحزب سيقوم بتطهير صفوفه بناء على رغبة الحكام الجدد .*

وقام مصطفى النحاس باشا رئيس الحزب بإجراء اتصالاته مع الضباط من خلال عيسى سراج الدين ابن عم فؤاد سراج الدين والتقى باللواء محمد نجيب وجمال عبد الناصر وثلاثة آخرين من أعضاء حركة الضباط .

وكان سيد مرعى يخشى وقتها ان تؤدى الاتصالات الى تحالف الضباط مع حزب الوفد .. بينما كان هناك شعور بالتفاؤل يسود قيادات الصف الثانى من مختلف الاحزاب السياسية لاعتقادهم انه قد جاء دورهم ليحلوا محل القيادات العليا لهذه الاحزاب بناء على اوامر الضباط بتطهير الصفوف .

وفى أول لقاء بين ممثلى الحزب السعدى وبينهم سيد مرعى وأعضاء مجلس قيادة الثورة كان الحديث ايضا عن تطهير الصفوف ـ وعندما نقل اعضاء الوفد لقيادات الحزب السعدى ما قاله العسكريون ـ إتهمت هذه القيادات القديمه سيد مرعى وغيره من قيادات الصف الثانى بأنهم يتخذون تعليمات العسكريين ذريعة للتخلص منهم حتى يحلوا محلهم .

وحتى يتفادى سيد مرعى هذا الموقف الحرج طلب من مجلس قيادة الثورة تفسيرا لتعليماتهم بشأن « تطهير صفوف الاحزاب » .. لكن المجلس رفض تقديم أى تفسير بخصوص ذلك .

لكن سيد مرعى وجدها أخيرا حيث نجح فى دعوة حسن ابراهيم عضو مجلس قيادة الثورة لمقر الحزب السعدى ـ عن طريق اتصالاته بزكريا محيى الدين لتوضيح ما يتعلق « بتطهير الصفوف » لابراهيم عبد الهادى رئيس الحزب السعدى .. والمثير ان عضو مجلس قيادة الثورة ردد نفس الجملة : « عليكم ان تطهروا انفسكم » .

وبدأ سيد مرعى يحدد ـ بالضبط ـ أبعاد المخطط وهو ان الضباط يريدون تدمير الاحزاب بالكامل بالاستعانة بالصفوف الثانية فيها . ولذلك بدأ يبحث عن مستقبله السياسى بعيدا عن السعديين .

وفى يوم ١٠ سبتمبر أى بعد يوم واحد من اصدار قانون الاصلاح الزراعى .. اتصل عبد الله سالم ـ اول وزير زراعة فى الحكومة التى شكلها اللواء محمد نجيب ـ بسيد مرعى صديقه القديم وابن محافظته ـ محافظة الشرقية ـ واشار اليه بضرورة دراسة قانون الاصلاح الزراعى جيدا لتعيينه عضوا باللجنة العليا للاصلاح الزراعى التى تحدد معايير تنفيذ هذا القانون .

وكان جمال سالم عضو مجلس قيادة الثورة يرأس اللجنة العليا للاصلاح الزراعى وكانت تضم فى عضويتها عبد الله سالم وزير الزراعة ـ ومجموعة من المهندسين الزراعيين ـ بالإضافة لوزراء الرى والاقتصاد والمالية والاوقاف ورئيس مجلس الدولة ومساعديهم .

والجدير بالذكر ان جمال عبد الناصر إعترض على تعيين سيد مرعى عضوا فى اللجنة على اعتبار انه يشبه الباشوات بملابسه واعتداده بنفسه .. ولكن تدخل على صبرى وزكريا محيى الدين دفاعا عن مرعى .. ولم يجد عبد الناصر امامه مفرا من الموافقة .

وفى الاجتماع الثالث للجنة الاصلاح الزراعى تم اختيار سيد مرعى ليقوم بدور كهمزة وصل بين جمال سالم رئيس اللجنة وباقى اعضاء هذه اللجنة . وكذلك همزة الوصل بين اعضاء مجلس قيادة الثورة المشرفين على الاصلاح الزراعى وبين اعضاء اللجنة وبذلك اصبح لسيد مرعى نفوذ يفوق نفوذ رئيس اللجنة بل ووزير الزراعة ايضا . وربما كان ذلك يرجع لان الضباط كانوا يريدون ان تكون اللجنة العليا للاصلاح الزراعى هيئة مستقلة عن وزارة الزراعة حتى لا تتأثر بالبيروقراطية الحكومية .. ولذلك تم نقل مقر اللجنة فى فبراير ١٩٥٣ الى قصر عابدين وهو المركز العصبى للحكومة العسكرية الجديدة .

وعين سيد مرعى رئيسا للجنة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٣ ورجحت كفته على كفة المرشحين لهذا المنصب لأسباب كثيرة متشابكة ومتداخلة .. وكان ابراهيم شكرى من بين المرشحين لرئاسة اللجنة خاصة ان له باعا فى الاصلاح الزراعى وقبل ذلك التاريخ بعامين - أى قبل قيام الثورة طالب ابراهيم شكرى فى البرلمان بان يكون اقصى ملكية للفرد ٥٠ فدانا فقط من الاراضى الزراعية .. وقد رفض مجلس قيادة الثورة تعيينه رئيسا للجنة حتى لايشارك احد الثورة فى انجازاتها أو حتى لا يكون لشكرى فضل تطبيق هذا القانون .

وكانت هناك اسماء شخصيات أخرى مرشحة لرئاسة هذه اللجنة . وهى شخصيات شاركت فى اعداد هذا القانون - قانون الاصلاح الزراعى - مثل الدكتور راشد البراوى الاقتصادى الاكاديمى واحمد فؤاد اليسارى الشهير .. وقد تم رفض ترشيحهم لنفس السبب الذى تم من خلاله استبعاد إسم ابراهيم شكرى .. وكذلك تم استبعاد اسماء العسكريين امثال جمال سالم وخالد محيى الدين ويوسف صديق لانهم ليسوا على دراية بالزراعة .

لقد كان لسيد مرعى منافسون آخرون فى شغل منصب رئيس اللجنة لكن يبدو انه كانت هناك عوامل تنقصهم ويمتاز بها سيد مرعى ومنها الاتصالات وتحديد ما يريده هؤلاء الحكام العسكريون .

ومن بين منافسى سيد مرعى على رئاسة هذه اللجنة عزت عبد الوهاب الذى تم تعيينه فى بداية عام ١٩٥٢ رئيس لجنة توزيع الاراضى الصحراويه على المنتفعين .. وكانت هده اللجنة مكونة من ١٤ عضوا من مختلف الوزارات وكانت توزع الاراضى التى تستصلحها الدولة بواقع خمسة افدنه لكل منتفع وكانت لعزت خبرة بهذا المجال ولكن تنقصه الخبرة السياسية ولذلك لم يع مفهوم الاصلاح الزراعى لدى مجلس قيادة الثورة .

وكان عبد الله سالم ايضا من المرشحين لمنصب رئيس اللجنة .. ولكنه ينتمى للعصر البائد ولذلك تم استبداله بعبد الرزاق صدقى فى ديسمبر ١٩٥٢ الذى كان يتطلع للمنصب هو الآخر لكن يبدو ان اتصالاته كانت محددوة فهو لا يعرف من رجال الصفوة السياسية الا « عبد الجليل العمرى » وزير المالية . وجاره فى العمارة ولم يكن للعمرى نفسه أى خلفية سياسية .. وكان عباس عمار وزير الشئون الاجتماعية يطمع فى احتلال منصب رئيس اللجنة لكن يبدو انه هو الآخر لم يكن لديه اتصالات عالية المستوى لتحقيق رغبته .

وقد كانت فرصة المرشحين لرئاسة اللجنة من الرجال الذين يمثلون اليسار المتشدد ضئيلة جدا لان اغلب اعضاء مجلس قيادة الثورة وعلى رأسهم جمال عبد

الناصر من المعتدلين .. ولذلك كان خالد محيى الدين ويوسف صديق فى اقصى اليسار بحيث لا يمكن اختيار احدهما رئيسا للجنة رغم أنهما شاركا فى صياغة قانون الاصلاح الزراعى .

وكان لمجدى حسنين دور كبير فى احداث ٢٣ يوليه .. وكان ايضا من اكبر مؤيدى جمال عبد الناصر فى سلاح المهندسين بالقوات المسلحة وداخل حركة الضباط الاحرار .. وقد كان لمجدى حسنين صاحب الميول اليسارية اطماع فى رئاسة اللجنة .

وبالرغم من ان مجدى حسنين كان صديقا لاحمد مراد رفيق السلاح وشقيق حسين مراد صديق سيد مرعى المقرب الا ان مجدى حسنين كان لا يحب سيد مرعى ولا يثق به .

وقد حدثت ازمة بين مجدى حسنين فى جانب وبين جمال سالم وسيد مرعى من جانب آخر .. ولم يجد جمال عبد الناصر امامه مفرا من تعيين مجدى حسنين مديرا لمشروع مديرية التحرير . وهى عزبة يمكنه ان يديرها بمعرفته وبابعاد حسنين عن اللجنة اصبح الطريق مفتوحا امام سيد مرعى للسيطرة على هذه اللجنة .

ولايمكن القول ان سيد مرعى قد فاز بمنصب رئيس اللجنة بالسلبية والتراخى فقد تبين انه قد حدث اول صدام بين مرعى وجمال سالم فى اول اجتماع للجنة العليا للاصلاح الزراعى وكان الخلاف حول نصوص القانون ولم يكن سيد مرعى يعرف بعد ابعاد شخصية جمال سالم الزئبقية المتقلبة . وقد كان مرعى يريد ان يوضح التعديلات الضرورية فى التشريع التى تعمل على نجاح تنفيذه .. ولكن ثورة جمال سالم جعلت سيد مرعى يغادر قاعة الاجتماع غاضبا .. وبعد فترة قصيرة عاد لجمال سالم هدوؤه .. وفى نفس الليلة سمع سيد مرعى طرقا على باب منزله وفوجىء بجمال سالم الذى جاء ليعتذر .

وبعد اسابيع من هذا الصدام بدأت ترسخ العلاقات بينهما ـ وعلى اى حال ـ فقد كان على صبرى من بين اصدقاء جمال سالم القليلين فى حركة الضباط الاحرار حيث كانا زملاء دراسة بالاكاديمية الجوية وجمعتهما افكار واحدة يمينية حيث كانا من انصار الولايات المتحدة فى ذلك الوقت .. وقد استطاع صبرى ان يقنع جمال سالم ان سيد مرعى ليس اكثر من مشرف على تنفيذ برنامج الاصلاح الزراعى .

وعندما اصيب جمال سالم بورم فى المخ ـ لم يكن يغادر فراشه ـ وكان سيد مرعى حريصا على زيارته بصفة مستمرة وكذلك شقيقه عمر مرعى والذى يعد اكثر افراد العائلة دراية بالدين .

ولكن يؤكد الكثير من المراقبين ان تعيين جمال سالم لسيد مرعى همزة وصل بين اللجنة ورجال الثورة جاء نتيجة حدث وقع قبل اعلان هذا التعيين بأسبوع حيث كان

سيد مرعى ـ قبل اعلان هذا التعيين ـ ينوى السفر الى كوم امبو فى أجازة مع صديقه يحيى العلايلى وهو من كبار الاعيان وكان ايضا زميلا لمرعى فى الجامعة .. وقد دعا سيد مرعى الصديق جمال سالم لمرافقتهما فى هذه الرحلة ورافقتهما فى هذه الرحلة زوجة يحيى العلايلى التى تتمتع بنصيب كبير من الجمال .. وقد وقع الضابط الملتزم الذى يعيش وحيدا اسير حب تلك المراة الشابة الجميلة .. وبعد فترة قصيرة تزوجها جمال سالم.

ومنذ بداية عام ١٩٥٣ بدا سيد مرعى يتولى الاشراف على لجنة الاصلاح الزراعى بالتنسيق مع عضو مجلس قيادة الثورة والرئيس الفعلى للجنة وكانت مخاوف سيد مرعى تتركز فى احتمال تعيين رئيس جديد للجنة بدلا من جمال سالم مما قد يفقده هو الآخر وظيفته باعتباره ـ اى سيد مرعى ـ من رجال جمال سالم خاصة ان جمال عبد الناصر كان يرصد هذه التحالفات من خلال تقارير المخابرات التى كانت تصله بانتظام ومنها ـ مثلا ـ ان سيارة سيد مرعى كانت تشاهد امام منزل جمال سالم عندما كان مريضا .

ولم يشأ سيد مرعى ان يضع كل مستقبله بين اصابع جمال سالم ولذلك بدأ يبحث عن صحبة اخرى اكثر نفعا ـ ووجد ضالته اخيرا ـ انه النجم الجديد الذى بدأ يلمع فى سماء السياسة وهو محمد حسنين هيكل الذى كان يحاول تدعيم علاقته ـ « بصلاح » شقيق جمال سالم ـ منذ سيطرة العسكريين على الحكم .

وبعد ان تولى سيد مرعى رئاسة اللجنة العليا للاصلاح الزراعى قام على الفور بجلب اعضاء الشلة وآخرين للعمل فى اللجنة بمرتبات تفوق كثيرا ماكانوا يتقاضونه فى دواوين الحكومة او القطاع الخاص .

وبدأ سيد مرعى يعيد تنظيم اللجنة وفقا لفكره .. وعين محمد صبيح مستشارا صحفيا للجنة العليا للاصلاح الزراعى وقد بدأ محمد صبيح حياته السياسية كرئيس لتحرير جريدة مصر الفتاة .. وبعد قيام ثورة يوليه ١٩٥٢ كان مصير اعضاء حزب مصر الفتاة هو السجن .

وقد قام محمد صبيح بدوره باللجنة العليا للاصلاح الزراعى بتعيين شقيقه محمد صيفى ـ رئيس تحرير بمؤسسة دار التعاون حاليا ـ وعضوين لخرين من حزب مصر الفتاه هما عز الدين كامل وإسماعيل عامر كمساعدين له بالعلاقات العامة .

وفى ربيع عام ١٩٥٣ بدأت حملات الدعاية الناجحة لمشروعات الاصلاح الزراعى التى يقودها محمد صبيح ومعاونوه .

وبدأت الصحف تنشر الموضوعات الصحفية المدعمة بالصور والتى توضح أسلوب توزيع الاراضى على صغار الفلاحين . وكان اسلوب الدعاية يعتمد على نشر صور كبار المسئولين وهم يوزعون صكوك الملكية على الفلاحين المعدمين .

وقد نجح سيد مرعى ومعه محمد صبيح كصحفى كبير فى إبراز الاصلاح الزراعى كمشروع عملاق حتى لم يعد فى إمكان أى من السياسيين وقتها أن يجرؤ على توجيه النقد لهذا المشروع . إنها الدعاية التى تكمم الأفواه ..

وبدأت شعارات محمد صبيح تنتشر فى الاوساط الشعبية ومنها شعاره الشهير : « الارض للفلاح وليس الفلاح للارض ».

وقد استخدم محمد صبيح كل فنون الدعاية للترويج للاصلاح الزراعى كمشروع عملاق حيث قام باعداد النشرات الايضاحية والصحفية .. وقام ايضا بدعوة الصحفيين والكتاب الاجانب واعداد زيارات لهم لمناطق الاصلاح الزراعى .

وكانوا يحاطون خلال هذه الزيارات بمستشارى سيد مرعى ومساعديه من كبار العاملين بالاصلاح الزراعى .

ويمكن القول ان اكثر الاعمال التى لاقت رواجا اعلاميا فى الصحف الاجنبية فى عصر ما بعد فاروق هى انجازات سيد مرعى والاصلاح الزراعى .

وقد قام الصحفى كيث ويلوك بتأليف كتاب عن الاصلاح الزراعى تحت عنوان « مصر فى عصر عبد الناصر » .. والذى أشاد فيه بالاصلاح الزراعى ولكنه أشار ايضا الى تناقضات وسلبيات التطبيق .. وهو الكتاب الذى نشرته اللجنه العليا للاصلاح الزراعى .

والجدير بالذكر ان محمد نجيب وجمال عبد الناصر قد احتفلا بالعيد الاول للثورة بزيارة مناطق الاصلاح فى الدلتا وتوزيع العقود على الفلاحين .

وفى عام ١٩٥٣ اصبح العيد الاول لاصدار قانون الاصلاح الزراعى ـ ٩ سبتمبر ـ هو عيد الفلاح حيث يقوم اعضاء مجلس قيادة الثورة بتوزيع مزيد من عقود تمليك الاراضى فى ذلك اليوم .

وفى بداية شهر مارس ١٩٥٤ احتدم الصدام بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب .. وفى ٢٢ مارس اعلن عبد الناصر حل مجلس قيادة الثورة واجراء الانتخابات وظن الناس وقتها ان حل هذا المجلس هو انتصار لمحمد نجيب .. لكن الحقائق تؤكد انها كانت خطوة تكتيكيه استراتيجية للتخلص من محمد نجيب وأنصاره .

وخلال الصراع محمد نجيب قام عبد الناصر بالاتصال بسيد مرعى عن طريق جمال سالم .. وكانت التعليمات واضحة وهى العمل على حماية الاصلاح الزراعى وانتظار عودة مجلس قيادة الثورة مرة أخرى .

وقد اجتمع سيد مرعى بعدها مباشرة بمعاونيه وأوضح لهم أن محمد نجيب لم يعد رئيسا لمجلس قيادة الثورة وانه ربما يقدم على تصرف مفاجيء للاطاحة بالاصلاح الزراعى .. ووافق معاونوه على العمل فترات إضافية لتوزيع اكبر مساحة ممكنة من الاراضى حتى أصبح من المحال امام اى شخص مهما كان ان يتمكن من اعادة هذه الاراضى لاصحابها الاصليين .

وعرف سيد مرعى المصير الذى ينتظر الاصلاح الزراعى فى حالة خروج محمد نجيب من هذه المعركة منتصرا ولذلك وضع جهاز العلاقات العامة باللجنة العليا للاصلاح الزراعى تحت تصرف جمال عبد الناصر .

والجدير بالذكر انه فى أعقاب إعلان جمال عبد الناصر حل مجلس قيادة الثورة يوم ٢٢ مارس بدأ الصحفيون والطلبة والمحامون حملة صاخبة تطالب بإعادة الحياة النيابية وكانت هذه الحملة توحى بأن عبد الناصر قد يفقد السيطرة على رجل الشارع لصالح محمد نجيب .

ولم يستطع سيد مرعى ان يخفى شعوره بالقلق نتيجة هذا الموقف المتدهور فاصطحب جمال سالم على الفور للقاء عبد الناصر حيث عرض عليه خدمات اللجنة العليا للاصلاح الزراعى لزيادة شعبية ثورة يوليو .. وبعد ان فقد عبد الناصر شعبيته فى المناطق الحضرية او المدن فإنه فى حاجة الى حملة دعاية ناجحة فى مكان آخر ولذلك وافق عبد الناصر على عرض سيد مرعى .

وذهب سيد مرعى يبحث عن دعم الشيخ محمد علوان رفيقه فى الحزب السعدى وصهر المستقبل الذى جمع أتباعه لاستقبال عبد الناصر على امتداد الاراضى الزراعية الخاصة بالملك فاروق فى بلبيس .. وأشرف محمد صبيح بنفسه على تغطية هذا الحدث على نطاق واسع بمختلف الصحف اليومية التى تصدر فى القاهرة .

وربما لم تكن خدمات سيد مرعى هى العامل الاساسى فى انتصار عبد الناصر على محمد نجيب ولكن ربما ساهم الحدث السابق فى تحقيق هذا الانتصار .

الفصل الثانى

بناء الإمبراطورية

وبعد ان اصبح عبد الناصر على قمة السلطة اتخذ عدة خطوات واجراءات حتى يحول دون تكرار الدراما السياسية التى حدثت بينه وبين نجيب ولذلك بدأ يتخلص من خصومه وجاء الدور على جمال سالم عام ١٩٥٦ عندما اشتد صراع السياسة المصرية مع الغرب مما يبرر الاطاحة بضابط القوات الجوية السابق ذى الميول الغربية .

وبعد أيام قليلة من الاطاحة « بسالم » طلب الرئيس مقابلة سيد مرعى مما جعله يشعر بأن شيئا ما قد حدث ، وربما يكون متصلا بجمال سالم ، وذهب للقاء عبد الناصر وعرف أن الامر ليس كما تخيله وقد فوجىء بعبد الناصر يناقشه فى موضوع آخر .

وفى صيف عام ١٩٥٦ اصبح سيد مرعى من ابرز المدنيين فى الحكومة التى يدير دفتهاالعسكريون .. وكرئيس للجنة الاصلاح الزراعى أصبح محاطا برعاية وتحصينات محمد صبيح النشيط جدا .. ويبدو أن للشهرة ثمنا فقد بدأ رفاق عبد الناصر ينظرون الى موقع مرعى باستهجان خاصة انه ينتمى للعصر البائد اكثر من انتمائه للعصر الثورى .

ويمكن القول إن نجاح سيد مرعى فى المهمة الموكلة اليه قد ساعد على إذابة الغيرة والاحقاد حيث كان العديد من الضباط الاحرار يأملون المشاركة فى انجازات الاصلاح الزراعى ولكن لتفادى التضارب فى الاختصاصات والمسئوليات وافق هؤلاء الضباط على اتاحة حرية الحركة لجمال سالم ليشرف على هذا القطاع ـ وفى مقابل ذلك ـ يكون لهؤلاء الضباط نفس الحقوق فى قطاعات اخرى .

وعندما اصبح الاصلاح الزراعى اكثر بريقا من باقى هذه القطاعات وعندما سلطت الاضواء على سيد مرعى وجد هؤلاء العسكريون انه لامفر من ترك هذا المدنى لحال سبيله بعد ان ثبت انه لم يعد هناك امل فى إقصائه .

والشىء المؤكد ان سيد مرعى قد اصبح هدفا للضباط الأكثر نفوذا لانه كان يتطلع الى افاق جديدة ولايحصر نفسه فى منصب رئيس لجنة الاصلاح الزراعى لان الطموح لايعرف شيئا اسمه المنطق . وبالفعل كان سيد مرعى يعتبر اللجنة العليا

للاصلاح الزراعى اول خطوة نحو الخطوط الامامية . وانتهت المرحلة الاولى من الاصلاح الزراعى وبدأ سيد مرعى مرحلة التكامل الراسى او التنمية الراسية لمناطق الاصلاح الزراعى .. وكانت سياسة مرعى تتلخص فى توظيف التعاونيات الزراعية فى مناطق الاصلاح الزراعى ـ او ما يطلق عليها حاليا تعاونيات الاصلاح الزراعى ـ لتوزيع التقاوى والاسمدة وباقى مستلزمات الانتاج على الفلاحين فى مقابل توريد محاصيلهم للجنة العليا للاصلاح الزراعى .. وبذلك اصبحت لجنة الاصلاح الزراعى اكبر مشتر وبائع للمحاصيل الزراعية على مستوى الجمهورية .

واصبحت جميع مستلزمات الانتاج الزراعى فى قبضة سيد مرعى فيما عدا جهاز الائتمان او بنك التنمية والائتمان الزراعى والتعاونى .. لكن يبدو ان ابواب البنك لن تظل مغلقة فى وجه سيد مرعى حيث تم تعيينه فى نوفمبر عام ١٩٥٥ رئيسا لمجلس إدارة بنك التنمية وبذلك اكتملت الحلقة وأصبح يشرف على الانتاج الزراعى بأكمله بالإضافة للتسويق فى مناطق الاصلاح الزراعى .

والجدير بالذكر ان لجنة الاصلاح الزراعى كانت تحقق أرباحا سنوية تقدر بالملايين من الجنيهات واصبح بذلك لدى منافسى سيد مرعى حافز قوى للتخلص منه حتى يحلوا محله .

ويمكن القول ان مشروع مديرية التحرير وهو المشروع العملاق لاستصلاح الاراضى الصحراوية الذى بدأ تنفيذه فى ربيع عام ١٩٥٣ فى غرب منطقة الدلتا ـ كان مشروعا منافسا للاصلاح الزراعى حيث استحوذعلى جزء كبير من الاموال الحكومية والكفاءات البشرية التى تعمل فى قطاع الزراعه كما نجح هذا المشروع فى سرقة الكاميرا والاضواء من مشروع الاصلاح الزراعى . وينتمى مجدى حسنين رئيس مشروع مديرية التحرير الى عائلة غنية من ملاك الاراضى الزراعية وشغل والده منصب المحافظ فى فترة من الفترات بينما عمل اخوته بالتجارة او الاعمال الحرة .. اما مجدى حسنين نفسه فقد كان يساريا وكان متزوجا من مواطنة روسية وكان يأمل فى تطبيق الافكار الاشتراكية فى الريف المصرى .

وقد قام عبد الناصر بتعيين مجدى حسنين فى هذا المنصب لعدة اسباب أبرزها ان حسنين كان يؤازر عبد الناصر فى الجيش .. والسبب الثانى وربما يكون اكثر أهمية وهو وضع حسنين فى كافة الميزان ليحافظ على التوازن مع كفة جمال سالم وسيد مرعى .. ولذلك قام عبد الناصر بإعطاء مجدى حسنين شيكا على بياض ليحقق طموحاته بغزو الصحراء .

واتخذت المنافسة بين اللجنة العليا للاصلاح الزراعى ومشروع مديرية التحرير او بين مرعى وحسنين اشكالا مختلفه وصورا متباينة حيث كان فى إمكان كل منهمان

يصرف مرتبات لموظفيه توازى ضعف او ثلاثة امثال رواتب الموظفين فى الوزارات . وكان من المألوف عرض رواتب مغرية على الموظفين الموهوبين لترك العمل مع سيد مرعى والذهاب للعمل مع مجدى حسنين او العكس .

وكان لمجدى حسنين إتصالات بالصحافة شأنه فى ذلك شأن سيد مرعى وقد قام بالفعل بتوظيف وسائل الاعلام فى الدعاية لمشروع مديرية التحرير وقام ايضا بدعوة الصحفيين الاجانب لزيارة مديرية التحرير .. وقد كتبت الصحف العالمية بإسهاب عن هذا المشروع وتم تخصيص عدة ابواب من الكتب الأجنبية التى تؤلف عن مصر للدعاية لمشروع مديرية التحرير .

وقد كانت بداية الصراع الدامى بين مرعى وحسنين حول ملكية الاراضى حيث كان الاصلاح الزراعى يعتمد على توزيع الاراضى على صغار الحائزين وكان سيد مرعى يدافع عن المصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لهؤلاء الحائزين كملاك لهذه الاراضى بينما كان مجدى حسنين يرى عدم تفتيت الاراضى والحفاظ على الملكية الجماعية لاراضى مديرية التحرير وبذلك تجاهل اسلوب الاصلاح الزراعى فى توزيع الاراضى وقام بتصميم اسلوب العمل بمديرية التحرير على اساس أنها وحدة انتاجيه مجمعة .

وللدعاية للشيوعية قام حسنين بإرغام الفلاحين على ارتداء زى موحد مكون من قمصان وبنطلونات ذات ألوان تتفق مع هذه الافكار .. بل وإرغام الفلاحين ايضا على إلقاء الاغانى الوطنية .

وكان كل ذلك كثيرا على سيد مرعى الذى كان يبحث عن طريقة لافساد اعمال مجدى حسنين وتوقف عند موضوع ملكية الاراضى حيث كان يعرف جيدا ان اغلبية رجال الصفوة فى مصر ـ ومنهم عبد الناصر نفسه ـ يؤمنون بنظام توزيع الاراضى فى إقطاعيات صغيرة ويعارضون فكرة المزارع الجماعية .

وعمل مرعى على فضح ممارسات حسنين فى مديرية التحرير رغم ان نشاطاته كامبراطور كانت شبه سرية .. ولذلك دعا مرعى غريمه حسنين للمثول امام لجنة الملكية الخاصة بأراضى الاصلاح الزراعى .. ولجأ حسنين لحيلة ذكية وهى تأجيل هذا الاستجواب لحين اتمام خططه بمديرية التحرير .. وجعل سيد مرعى هذا التصرف يشيط غضبا .. وأخيرا مثل امام اللجنة مدعيا انه سيتم اتباع اسلوب الاصلاح الزراعى فى مديرية التحرير وانه سيتم تخصيص مساحة من الاراضى الزراعية لكل حائز لكنه ـ طبعا ـ لم يف بوعده . وبدأ يكثف جهوده لتقويض نفوذ سيد مرعى باعتباره « إقطاعى قديم ومن الطبيعى ان تأتى منه هذه التصرفات » كما كان مجدى حسنين يقول دائما على الملأ .

وبدأ حسنين حملة اشاعات ضد مرعى حيث اتهمه باختلاس اموال الاصلاح الزراعى .. ونظرا لأن عبد الناصر لديه حساسية خاصة ضد الفساد فقد قرر ان يتعامل مع هذا الموقف .

وحين تسلم سيد مرعى استدعاء للمثول امام عبد الناصر فى اعقاب الاطاحة بجمال سالم فى يونيه ١٩٥٦ كان سبب الاستدعاء هو « الاشتباه فى عمليات اختلاس » ولم يكن الامر يتعلق بجمال سالم كما كان يعتقد .

والمثير ان عبد الناصر لم يتهم مرعى بالاختلاس .. بل طلب منه كشفا بحساب اعمال اللجنة حيث كانت مصروفات اللجنة بعيدة كل البعد عن القواعد المحاسبية المعمول بها فى الدولة .. وقد فسر سيد مرعى عدم قيد كل المصروفات بالدفاتر بأنها ضرورة لتيسير أعمال اللجنة بعيدا عن الروتين والبروقراطية الحكومية . خاصة ان الروتين مرض حكومى موروث يعرفه سيد مرعى جيدا ويخشاه عبد الناصر كثيرا .

والشىء المؤكد ان عبد الناصر لم يصدق ما قاله سيد مرعى ـ وفى نفس الوقت ـ فإنه يرفض بشدة الاطاحة به نتيجة لاشاعة ظالمة خاصة انه قد دافع عن نفسه بلباقة شديدة .

ولم يجد عبد الناصر حلا للخروج من هذه الورطة الا بترقية سيد مرعى لمنصب وزير دولة للإصلاح الزراعى وبذلك أصبح عضوا فى التشكيل الوزارى دون تحويل لجنة الاصلاح الزراعى الى وزارة .. لتظل اللجنة بعيدا عن إشراف الحكومة وهذا ـ بالضبط ـ مايريده رئيس اللجنة وموظفوها .

لكن هناك جانب سىء دائما .. فقد طلب عبد الناصر امساك دفاتر لحسابات اللجنة واتباع لوائح الحكومة فى أعمال هذه اللجنة .. ولم يكن ذلك يسعد سيد مرعى ـ طبعا ـ حيث يعكس استمرار شك عبد الناصر ورغبته فى وضع رئيس اللجنة تحت رقابة شبه صارمة ..

واصبح ذلك معناه ان الاصلاح الزراعى على بعد خطوة واحدة من فقد مكانته كمؤسسة ديناميكية مستقلة .. وقد حدث ذلك للإصلاح الزراعى فى الوقت الذى كانت فيه سفينة مشروع مديرية التحرير تسير بأقصى سرعتها مما يوضح ان مجدى حسنين قد كسب الجولة ..

ولم يمكث سيد مرعى طويلا ليملك زمام المبادرة مرة اخرى .. وبدأت الإشاعات تسرى .. عن الاموال الضخمة التى تنفق على مشروع مديرية التحرير ـ والمؤكد ان سيد مرعى قد شارك فى هذه الحملة طبعا ـ وحتى ان رجال الصفوة السياسية ـ الذين كانوا يخشون توجيه الهجوم لمجدى حسنين خوفا من عبد الناصر ـ إكتشفوا انه لم يعد هناك داع للخوف والتردد .

وقد قام البعض بإمداد اعضاء برلمان عام ١٩٥٧ وهو أول برلمان يتم انتخابه فى أعقاب الثورة ـ بمعلومات تسبب حرجا لمجدى حسنين وترغم عبد الناصر على التخلص منه .

وقام الدكتور عبد الرزاق صدقى وزير الزراعة وقتها بالرد على استجوابات اعضاء المجلس فيما يتعلق بمصروفات أنشطة مجدى حسنين لكن المتاعب الحقيقية جاءت بعد ذلك بعدة أسابيع عندما اعلن عبد اللطيف بغدادى عضو مجلس قيادة الثورة ورئيس الاتحاد الاشتراكى أنه ينوى التخلى عن مقعد رئيس المجلس لأن لديه مايقوله بشأن مشروع مديرية التحرير .

وأخبر الاعوان جمال عبد الناصر بنوايا عبد اللطيف بغدادى فاصدر عبد الناصر أوامره لانور السادات وكيل المجلس برفع الجلسة عندما يترك بغدادى مقعده على المنصة .

ونفذ أنور السادات أوامر عبد الناصر بالحرف الواحد وسط صيحات الاحتجاج العالية التى لم يسكتها إلا أعوان عبد الناصر من الضباط السابقين الذين عينهم بالمجلس . لكن الامر لم ينته عند هذا الحد فقد ذهب كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة ـ الذى لايحب سيد مرعى ويكره مجدى حسنين كراهية الخمر ـ مباشرة الى جمال عبد الناصر وقدم له استقالته وانضم إليه عبد اللطيف بغدادى وأمام موجة الاستقالات بين قيادات الحزب الواحد وهو الاتحاد الاشتراكى الذى تم تأسيسه حديثا .. ولم يجد عبد الناصر أمامه مفرا من مواجهة هذه المشكلة وبعدها بساعات صدر قرار جمهورى بإعفاء مجدى حسنين من منصبه كرئيس لمشروع مديرية التحرير .

وقد اتصل على صبرى ـ بأوامر من جمال عبد الناصر ـ بسيد مرعى ليخبره بقرب اعلان تعيينه وزيرا للزراعة وذلك قبل الاطاحة بمجدى حسنين من منصبه كرئيس لمديرية التحرير .

وتردد سيد مرعى فى قبول هذا المنصب لأنه يعرف خطورة ان يكون رئيسا لحسنين على اعتبار ان مديرية التحرير تابعة لوزارة الزراعة .

ولكن عبد الناصر لايسلم بسهولة فقد دعا مرعى الى منزله لاقناعه بقبول منصب وزير الزراعة وقد شارك عبد الحكيم عامر فى محاولة اقناع مرعى ايضا .. وعندما فسر سبب تردده عن قبول المنصب .. قرر عبد الناصر نقل مشروع مديرية التحرير ليكون تحت إشراف رئاسة الجمهورية .

وأعلنت الصحف تعيين مرعى وزيرا للزراعة يوم ٣ نوفمبر عام ١٩٥٧ وقبل نهاية نفس الشهر ـ شهر نوفمبر ـ تم التخلص من مجدى حسنين . وفى نفس اليوم

اتصل جمال عبد الناصر بوزير الزراعة ليوضح له انه قد تم نقل مشروع مديرية التحرير من رئاسة الجمهورية ليكون تحت اشراف وزارة الزراعة مرة اخرى .

والشيء المؤكد ان سيد مرعى كان يشعر برهبة الاشراف على مشروع كبير كمديرية التحرير كان دائما مطمعا للضباط من الصفوة السياسية ولكنه سرعان مااسترد رابطة جأشه وبدأ يفرض سطوته على المشروع .

وقرر إرسال اثنين من جنرالاته وهما محمود فوزى وسعد هجرس لمديرية التحرير ولمعرفة ما يجرى فيها خاصة ان حدود هذه المديرية كانت مجهولة بالنسبة لمرعى ومساعديه فى ذلك الوقت .

وقد ارسل سعد هجرس تقريرا الى مرعى ذكر فيه ان منتفعى مديرية التحرير ثائرون نتيجة مؤامرة حاك أبعادها الموالون لمجدى حسنين والذين مازالوا يشغلون مناصب بهذه المؤسسة العملاقة .

وقرر سيد مرعى السفر فى الحال لمديرية التحرير واعلن فى اجتماعه هناك انه سيتم توزيع الاراضى على المنتفعين وفقا لرغباتهم .. واشار فى نفس الاجتماع الى انه اذا كان المنتفع يريد الاستمرار فى وظيفته والحصول على راتب دون تخصيص مساحة فإن ذلك متاح أيضا .. وبذلك استطاع مرعى الخروج من الازمة .

وكان سيد مرعى صادقا فى وعوده حيث اعلن ـ فى يوليه ١٩٥٨ ـ ان ٤٠٠ اسرة من المنتفعين ستتسلم عقود تمليك الاراضى بمديرية التحرير .. وقد قام ـ بالفعل بتوزيع ستة الاف فدان على المنتفعين على مدى السنوات الثلاث التالية .

واعلن فى ربيع عام ١٩٦١ ان جميع الاراضى الزراعية بمديرية التحرير ستوزع على المنتفعين .. ويبدو ان هناك من كان يرصد انشطة مرعى ولايرضيه ما يقوم به فى مديرية التحرير ولذلك كان حريصا على العمل على اسقاطه قبل ان يوزع هذه الاراضى على المنتفعين .

وفى خريف عام ١٩٥٧ اصبح سيد مرعى يحلق فى سماء السياسة وكان الطريق امامه مفتوحا ليحقق ارتفاعات وطموحات اخرى .. ولإحكام سيطرته على قطاع الزراعة قام بتعيين رجاله الموالين له فى المناصب العليا بوزارة الزراعة .

وعلى الرغم من أنه أصبح يسيطر على إمبراطورية حكومية ضخمة إلا أنه بدأ يعمل على التوسع فى هذه الإمبراطورية وأصبح هدفه الاول هو الجمعيات التعاونية التى يشرف عليها حسين الشافعى عضو مجلس قيادة الثورة المحافظ ذو الميول الدينية . الذى عين وزيرا للشئون الاجتماعية واستمر فى هذا المنصب على مدى ثمانية اعوام اعتبارا من شهر سبتمبر ١٩٥٤ كما لو كانت عزبة خاصة به .

وقد أصبح حسين الشافعى هدفا لانه باعتباره وزيرا للشئون الاجتماعية . كان يشرف على الجمعيات الزراعية ـ فيما عدا جمعيات الاصلاح الزراعى ـ وكان سيد مرعى يتمنى فرض سطوته والتحكم فى هذه الجمعيات .. وربما كان يريد اختبار قوته فى مواجهة عضو مجلس قيادة الثورة السابق حتى يمكنه ان يحدد بدقة مدى ماحققه من نفوذ فى نهاية الخمسينات .

وكانت خطة سيد مرعى تتلخص فى توزيع الأراضى الزراعية فى إقطاعيات صغيرة على المنتفعين للحد من نفوذ اليساريين الذين يعتنقون افكار المزارع الجماعية ـ وفى نفس الوقت ـ العمل على سلب الجمعيات الزراعية من ايدى حسين الشافعى .

وقرر ان ينفذ خطته من خلال تجربة ملموسة بقرية نواج بمركز طنطا بمحافظة الغربية حيث دعا المزارعين هناك لتطبيق ما يجرى فى مناطق الاصلاح الزراعى بتقسيم الاراضى الزراعية الى ثلاثة اقسام ويتم زراعة كل قسم بمحصول وتطبيق الدورة الزراعية التى تشرف عليها الجمعية المحلية بالقرية وبذلك اصبح متاحا زراعة محصول واحد فى مساحة كبيرة ..وحرص سيد مرعى على التغطية الإعلامية لتجربته كما كان حريصا ايضا على لفت نظر المراقبين الاجانب لما يفعله .

وبدأ مرعى ينفذ المخطط الذى وضعه بإحكام حيث هاجم حسين الشافعى فى اجتماع مجلس الوزراء مشيرا الى ان تطبيق تجربة الاصلاح الزراعى فى قرية نواج قد ادى الى زيادة فى الانتاج الزراعى تقدر بنحو ٣٠٪ .. ورد الشافعى مؤكدا انه لايصدق ذلك ـ وامام الضغط والمواجهة اوضح الشافعى انه تم تسخير الفلاحين لينفذوا تجربة مرعى .

واكتشف عبد الناصر ان سيد مرعى ربما يكون اكثر دراية باستخدام وتوظيف الجمعيات الزراعية من حسين الشافعى .. ولذلك تم نقل تبعية الجمعيات الزراعية من وزارة الشئون الاجتماعية لرئاسة الجمهورية فى البداية ـ وبعد عدة أشهر قليلة ـ تم نقل تبعية هذه الجمعيات لوزارة الزراعة وذلك فى عام ١٩٦٠ ـ وبالطبع ـ يمكن القول إنه قد تم نقل التبعية على مرحلتين لسبب بسيط جدا وهو إنقاذ ماء وجه حسين الشافعى .

وبذلك اصبح سيد مرعى هو المدنى الوحيد الشجاع صاحب النفوذ ـ فى حكومة عبد الناصر ـ الذى يمكنه أن يصارع العسكريين فى مجتمع الصفوة السياسية فى عقر دارهم .

وقد نجح سيد مرعى أيضا فى التغلب على عبد اللطيف بغدادى ـ عندما كان وزيرا للحكم المحلى ـ حيث قام بغدادى بالاستيلاء على قطعة ارض تابعة للاصلاح

الزراعى على شاطىء المعمورة بشرق الاسكندرية وكانت هذه الأرض مملوكة للامير طوسون قبل ثورة يوليه ـ وقد قام بغدادى باسناد مهمة تعمير الارض للبنك التجارى لاستخدامها سياحيا وكان رئيس مجلس ادارة هذا البنك مصريا يهوديا .

وفى اعقاب ازمة السويس عام ١٩٥٦ تم فرض الحراسة على ممتلكات واصول البنك التجارى وتم وضعه تحت إشراف وزارة المالية وتعيين حسن عباس زكى ـ الصديق المقرب لاسرة مرعى مشرفا على اعمال هذا البنك .

وفى نهايه عام١٩٥٦ سافر الدكتور عبد المنعم القيسونى وزير المالية وقتها الى الولايات المتحدة لحضور اجتماعات البنك الدولى وتم اختيار سيد مرعى ليتولى مهام وزارة المالية فى فترة غياب القيسونى .. فاتصل على الفور بحسن عباس زكى رئيس البنك التجارى واتفق معه على منح البنك قرضا قدره اربعة ملايين جنيه فى مقابل اعادة ارض المعمورة لملكية الاصلاح الزراعى وكان يرأس الاصلاح الزراعى وقتها المهندس سعد هجرس احد رجال سيد مرعى .

واكتشف سيد مرعى بعد ذلك ان جمال عبد الناصر قد تسلم جزءا من هذه الارض ـ التى استولى عليها بغدادى ـ لبناء فيللا الرئاسة عليها .

وبحلول عام ١٩٥٨ امتد نفوذ مرعى ليشمل ايضا تعيين الوزراء .. وفى أعقاب الوحدة بين مصر وسوريا تم إنشاء حكومة موحدة بين البلدين للتنسيق بين الحكومتين ولتحقيق طموحات عبد الناصر لكن بالطبع لم يكن لهذه الحكومة الموحدة اى معنى .

وقد كان عبد الناصر يبحث عن مرشح مناسب للعمل كوزير للزراعة بالمجلس التنفيذى للوحدة .. وطرح سيد مرعى اسم احمد المحروقى .. وقبل ذلك بعدة اشهر قام مرعى بنقل المحروقى من وزارة التموين ـ التى كان كمال رمزى استينو وزيرا لها وعينه وكيلا لوزارة الزراعة وكان يعد من رجال مرعى .

بينما شغل حسن البغدادى منصب وزير الإصلاح الزراعى بالمجلس التنفيذى للوحدة .. وقد كان بغدادى زميلا للليثى شقيق عبد الناصر بمنظمة التحرير بالاسكندرية والتابعة للاتحاد الاشتراكى وبعد ذلك اصبح البغدادى وزيرا للتموين ثم وزيرا للاصلاح الزراعى بمجلس الوحدة .. وكان المهندسون الزراعيون وحتى الليثى عبد الناصر نفسه يعرفون جيدا ان البغدادى ليس كفءلهذا المنصب .. ويبدو ان كل مهمة البغدادى هى المحافظة على المقعد شاغرا لسيد مرعى .

الفصـل الثـالث

السـقوط

وبفرض نفوذه على اللجنة العليا للإصلاح الزراعى وبنك التنمية والائتمان الزراعى والتعاونى ووزارة الزراعة مضافا إليها الجمعيات التعاونية الزراعية .. أصبح سيد مرعى الملك غير المتوج على قطاع الزراعة بالكامل .

وفى أعقاب الاطاحة بجمال سالم وبداية شك عبد الناصر فى دفاتر حسابات سيد مرعى بلجنة الاصلاح الزراعى بدأ مرعى يعمل على مد جسور الصداقة مع محمد حسنين هيكل والعمل بولاء لتحقيق مصالح عبد الناصر حتى يمكنه اختراق الصفوف لمجتمع الصفوة ..

وبدأت صحف الغرب تتحدث عن سيد مرعى ودوره فى الاصلاح خاصة وان بعض دول منطقة الشرق الاوسط قد بدأت تحاكى تجربة الاصلاح الزراعى لمصر .

وفى عام ١٩٥٧ قام باصدار كتاب باللغات العربية والانجليزية والفرنسية عن الزراعة المصرية والاصلاح الزراعى .

والشيء المؤكد أن سيد مرعى من اكثر الوزراء المدنيين الذين نالوا حظا كبيرا من الدعاية الاعلامية فى حكومة عبد الناصر حيث كانت الصحف اليومية تنشر صوره وآراءه لمختلف الموضوعات التى تتعلق بقطاع الزراعة بالاضافة لمقالات بقلمه كما كانت الصحف والمجلات تنشر مقتطفات من مشوار حياته من وقت لآخر .

ولكنه كان حريصا على عدم اثارة الشك والريبة فى نفس عبد الناصر بعدم الادلاء بأحاديث صحفية تمس قطاعا آخر غير قطاع الزراعة .. بالرغم من أن عبد الناصر كان فى بعض الاحيان يستشير سيد مرعى فى امور لا تتعلق بالزراعة كأن يستشيره ـ مثلا ـ فى الشئون الخارجية .

واذا كان لك حظ رؤية سيد مرعى وهو يدور ويجول فى مملكته فى نهاية الخمسينات فسوف يعتريك الشك ولو للحظات بأن الضباط لا يسيطرون على الحكم .

والشيء المؤكد أن النجاح يورث الغيرة .. وقد كان البعض يحقد على سيد مرعى باعتباره مدنيا استطاع اختراق الصفوف والاسوار .. بينما كان البعض يصنفه على

انه « إقطاعى » .. فى حين وجد اخرون مبررا للنقمة عليه لانه سبق له ان تغلب عليهم فى صراع الوصول لنهاية السباق .

إن هناك حقيقة واقعة وهى ان عبد الناصر لم يكن يخشى سيد مرعى لسبب بسيط انه مدنى وليس فى خطورة رفاقه العسكريين ولذلك حرص هؤلاء العسكريون على الايقاع بمرعى فى الفخ وجاءت الفرصة التى ينتظرونها ـ بالضبط ـ فى صيف عام ١٩٦١ عندما أكلت دودة القطن ثلث المحصول .. وعلى أى حال فقد تم انقاذ باقى المحصول من بين فكى الدودة ـ وللاسف لم يكن ذلك من خلال وزارة الزراعة .. بل من خلال لجنة خاصة قام كمال الدين حسين بتشكيلها وقد كان حسين وقتها يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية للشئون الداخلية .

وقد كان كمال الدين حسين أكثر الضباط الاحرار طموحا ولأنه كان يحقد على عبد الناصر ويكره بشدة هؤلاء المتسللين لمجتمع الصفوة السياسية والذين اصبحوا منافسين له ـ فقد قام بقيادة حملة للقضاء على دودة القطن ثم استدار ليوجه إدانته للمتهمين .

وبدأ كمال حسين يعمل على دفع سيد مرعى ورجاله نحو الحائط حيث طلب استجوابهم امام اللجنة التى قام بتكوينها .. وتردد مرعى فى البداية.. ولكنه وافق على المثول امام هذه اللجنة بشرط ان يأتيه الامر من جمال عبد الناصر مباشرة .

ولأن سيد مرعى يعرف ان الهجوم هو خير وسيلة للدفاع فقد ذهب مباشرة لمقر اللجنة للمثول امامها ومن خلال الاستجواب هاجم كمال الدين حسين بشدة .. واتهمه بانه يتسرع فى احكامه وانه يلقى الاتهامات جزافا بلا دليل .. ثم بدأ يدافع عن نفسه موضحا انه قام بإبلاغ احمد المحروقى وزير الزراعة المصرى بالمجلس التنفيذى للوحدة بكارثة القطن فى وقت مبكر الا انه لم يبد اى استجابة .

وقد كان من المفروض حسم قضية سيد مرعى بإدانته فى لجنة كمال الدين حسين لكن ذلك لم يحدث فقد تمت احالة القضية لأعلى محكمة فى مصر وهى مكتب جمال عبد الناصر .

والجدير بالذكر ان كمال الدين حسين ذهب فى البداية لعبد الناصر واقنعه بان سيد مرعى مسئول عن حماية القطن ولا بد من عقابه .. وقد بعث عبد الناصر برسالة شفوية الى سيد مرعى عن طريق محمد حسنين هيكل ينصحه فيها بالاعتراف بمسئوليته الكاملة عن هذه الكارثة حرصا على مستقبله .

لكن سيد مرعى لا يسلم بسهولة حيث طلب مقابلة الرئيس .. ورفض هذا الطلب فى البداية .. ولكن أخيرا وافق على طلب الرئيس ولكن بشرط حضور احمد المحروقى وزير الزراعة التنفيذى الذى شرح ابعاد الموقف للرئيس .. ثم جاء الدور على سيد

مرعى ليوضح الموقف الغامض فأشار الى اختلاف المسئوليات بينه وبين المحروقى وان وزير الزراعة التنفيذى عليه ان ينفذ السياسات بدلا من التركيز على وضع هذه السياسات .. وحسم عبد الناصر هذه القضية لصالح سيد مرعى وطلب من احمد المحروقى ان يقدم استقالته فورا .

وحين اصدر عبد الناصر الحكم بأن سيد مرعى لم يكن مسئولا عن كارثة القطن وانها مسئولية احمد المحروقى وزير الزراعة بالمجلس التنفيذى .. عرف كمال الدين حسين وباقى الخصوم ان مرعى قد تخطى الفخ وان عليهم ان يبحثوا عن وسيلة اخرى بوضع الفخ فى مكان جديد .

والمؤكد انهم اهتدوا الى وسيلة تجعل عبد الناصر يفقد ثقته فى مرعى تعتمد على محورين المحور الاول يتعلق بسياسته فى قطاع الزراعة والعمل على التشكيك فى جدوى هذه السياسات .. بينما يركز المحور الثانى على اتهام رجال سيد مرعى بالفساد .

وبالنسبة لسياسات مرعى فمن الممكن اصطياده فى قضية استصلاح الاراضى خاصة ان هذه القضية تتعلق ببقرة عبد الناصر المقدسة وهى السد العالى حيث كان عبد الناصر يؤمن إيمانا لا يعتريه الشك ان استصلاح مساحات واسعة من الاراضى الصحراوية هو كل المستقبل بالنسبة للزراعة المصرية .

وقد استطاع مجدى حسنين وعدد آخر من ضباط الجيش الذين عملوا فى قطاع استصلاح الاراضى ان يقنعوا عبد الناصر بالإمكانيات الهائلة التى تملكها مصر لتحقيق ذلك .

وكان مشهورا عن على صبرى انه كان يقول لعبد الناصر ما يحب هو ان يسمعه .. وقد اخبر عبد الناصر انه يمكن استصلاح ٢٠٠ الف فدان سنويا بمياه السد العالى .. بينما كان سيد مرعى يعرف بخبرته صعوبات استصلاح واستزراع أراضى رملية ولذلك قام بتحذير الرئيس عبد الناصر من هذه الارقام المبالغ فيها .. وقال له انه لا يمكن استصلاح اكثر من ٤٠ الف فدان فى السنة وربما اقل من ذلك .

وربما كان رأى سيد مرعى فى هذه القضية فرصة لا تتكرر لأعدائه - وبالفعل - اتهموه بعرقلة التقدم الثورى لانه ينتمى للعهد البائد .

وانت تعانى اذا كان طابور اعدائك طويل .. وقد نجح هذا الطابور فى رسم ابعاد مخطط الهدف منه اخراج سيد مرعى باصطياد بعض رجاله وافراد شلته وتقديمهم للمحاكمة بتهمة الاختلاس .

ولا ينكر احد انه منذ الايام الاولى للإصلاح الزراعى كانت الشبهات تحوم حول تصرفات مرعى المالية وصفقاته .. وكانت خطة منافسيه تعتمد على إثارة الشائعات حول هذه الصفقات وبذلك يضطر عبد الناصر للتخلص منه .. وهذه هى السياسة فى النهاية .

وبعد ان تنفس سيد مرعى الصعداء فى اعقاب خروجه بكامل ملابسه من ازمة القطن فى سبتمبر ١٩٦١ فوجىء بحملة شائعات اخرى تتناقلها الصحف اليومية من واقع تقرير للجهاز المركزى للمحاسبات ضد بعض كبار الموظفين بوزارة الزراعة ومديرية التحرير .

ووجهت تهم محددة ضد احمد السمنى وكيل وزارة الزراعة والذى كان لسنوات طويلة الرجل الثانى فى مشروع مديرية التحرير حيث اتهم بتقاضى عمولات مقابل شراء معدات استخدمت فى استصلاح الاراضى وهى معدات للرى بالرش ومضخات وعدد من السيارات .

وقد تم وضع السمنى فى السجن إنتظارا للمحاكمة وبدأت الشائعات تتطاير مثل فقاعات الصابون أن سيد مرعى وراء ذلك .

وفى نفس الوقت قامت الحكومة السورية بفض الوحدة غير المتكافئة مع مصر .. وأقنع البعض جمال عبد الناصر ان الاقطاعيين والرأسماليين هم السبب فى فشل هذه الوحدة .. وقرر عبد الناصر ـ بالفعل ـ ان هذه الفئات تحت الميكروسكوب والشىء المؤكد ان سيد مرعى كان يعانى فعلا لان المشاكل اصبحت تتوالد مثل الارانب .. فهناك ازمة القطن ثم القلق نتيجة تقديم احمد السمنى للمحاكمة .. مما يدل على ان سيد مرعى كان مستهدفا من عدة ضباط بمجتمع الصفوة السياسية والذين كانوا يطمعون فى كرسى الوزارة لأنفسهم ولمحاسيبهم فى النظام الاشتراكى الجديد .

وقد شارك على صبرى فى مشاورات لتشكيل حكومة جديدة وقرر وقتها توجيه دفة الحكومة نحو اليسار ولذلك لم يحاول الدفاع عن سيد مرعى .

وقرر عبد الحكيم عامر اقناع عبد الناصر بتعيين عبد المحسن ابو النور وزيرا للاصلاح الزراعى واستصلاح الاراضى .. وكان ابو النور يشغل منصب مستشار عبد الحكيم عامر لشئون الامن القومى فى سوريا وكان زميلا لمجدى حسنين بالمدرسة الثانوية .

وكان هدف عامر واضحا وهو فرض سيطرته على السياسة المصرية وصناعة القرار وفرض نفوذ رجال الجيش على مديرية التحرير .

وطلب كمال الدين حسين ـ الذى فشل فى التخلص من سيد مرعى فى اعقاب كارثة القطن ـ من جمال عبد الناصر تعيين احد رجاله وهو محمد نجيب حشاد وزيرا للزراعة .. وللعلم بالشىء فان نجيب حشاد هو شقيق احد رجال الصف الثانى من الضباط الاحرار .

ويمكن القول بأن ثقة الرئيس قد بدأت تهتز بالنسبة لسيد مرعى خاصة فيما يتعلق بكارثة القطن واتهامات الفساد حتى انه بدأ يشك فى ولائه للثورة .

وقد اختلف عبد الناصر مع رفاق السلاح ـ عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين حول التشكيل الوزارى المقترح ولكنه وافق فى النهاية .. والجدير بالذكر ان على صبرى قد اتصل بسيد مرعى فى الثانى من اكتوبر ـ اى قبل اعلان التشكيل الوزارى بيوم واحد ـ وأخبره ان اسمه ليس فى قائمة الحكومة الجديدة .

وفى اليوم التالى اكتظ بيت سيد مرعى بالمقربين من العاملين بوزارتى الزراعة والاصلاح الزراعى ولم يستطع البعض منهم اخفاء دموع الالم والخوف على المستقبل الغامض بعد استبعاد مرعى من الوزارة .

وكان عامة الشعب يتهامسون بان السبب فى استبعاد سيد مرعى من قائمة الحكومة يرجع لمسئوليته عن كارثة القطن ولممارسته لاعمال الفساد .

وفوجىء سيد مرعى بهجوم آخر .. لكن الامر كان مختلفا هذه المرة حيث ألقى عبد الناصر خطابا فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية وهو التنظيم الخاص بإصلاح النظام السياسى فى مصر فى أعقاب فشل الوحدة المصرية ـ السورية .. وهاجم عبد الناصر فى خطابه الفساد والرشوة واشار بأصابع الاتهام لفئة الرأسماليين والإقطاعيين على اساس انهم المحرض الاول على هذا الفساد .. وكانت إشارات عبد الناصر واضحة انه يقصد قضية السمنى .

وبعدها بأسابيع تم اتهام احد رؤساء هيئات استصلاح الاراضى وهو رفقى انور بأنه تقاضى عمولات على توريد معدات لاستصلاح الاراضى عن طريق وسيط اسمه « وادى تادروس » وكان يعمل بإحدى شركات التأمين وقام بعمل عدة بوالص تأمين لسيد مرعى واسرته .

وكان واضحا ان مجموعات الضباط التى كانت تحكم مصر قامت بتدبير هذه الاتهامات لسيد مرعى لتوريطه .. ولتجنب الكارثة الجديدة استغل سيد مرعى علاقته بحسنين هيكل لنشر قائمة ببوالص التأمين التى اعدها له وادى تادروس .

وفى صباح يوم ٩ مارس ١٩٦٢ ظهرت صورة سيد مرعى فى الصفحة الاولى فى جريدة الاهرام وكتب تعليقا تحتها على ما جرى فى قاعة المحكمة اليوم السابق وفيه نفى اللواء محمد فهيم رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات اى علاقة لسيد مرعى بقضية العمولات وقدم مرعى بوالص التأمين الخاصة به وبأسرته والتى تقدر بنحو ١٦ الف جنيه والتى قام بشرائها جميعا قبل عام ١٩٥٢ .

والشىء المؤكد ان نشر خبر لمرعى بالصفحة الاولى للاهرام يعنى فى المقام الاول انه مازال من اصحاب النفوذ ـ وعلى اى حال ـ فقد اصدرت المحكمة حكما ببراءة رفقى ومن معه من التهم المنسوبة اليهم وكانت نتيجة لتدخل سيد مرعى فى القضية بما نشره فى الاهرام .

وفى ١٦ ابريل ١٩٦٢ ـ اى بعد خمسة ايام فقط من اعلان براءة رفقى ـ نشرت الاهرام تفاصيل الحكم بالبراءة وما جرى بقاعة المحكمة وصورا للمتهمين وزوجاتهم وهم يهللون فرحا بالبراءة .

وظهرت صورة لسيد مرعى على الصفحة الاولى لجريدة الاهرام كتب تحتها خبر يقول ان عبد الناصر قد استقبل سيد مرعى فى منزله بمنشية البكرى واستمر الاجتماع على مدى ساعة ونصف الساعة .. وربما كان هذا الخبر تحذيرا من عبد الناصر لمروجى الاشاعات ضد سيد مرعى وان هذه الاشاعات يجب ان تتوقف فورا .

ونتيجة لهذه الاحداث وجد سيد مرعى نفسه مضطرا لقضاء أجازته بعيدا عن السياسة ـ وعلى اى حال ـ فقد كان واضحا من الظروف وأسلوب الرحيل أنه مازال امامه مستقبل سياسى .

وقد كان سيد مرعى يقضى اجازته السياسية متنقلا بين شقته الفاخرة بالزمالك .. ومزرعته بالمنصورية ـ الملاصقة لأهرامات الجيزة ـ والتى تضم اسطبلا للخيل .. والفيللا الخاصة به فى كفر الاربعين .

وحين تضطر الظروف سيد مرعى لمغادرة المسرح السياسى ـ وحدث ذلك عام ١٩٦٢ ـ فقد حرص على ان يقضى بعض الوقت فى كتابة خطاب طويل لعبد الناصر ينفى فيه ويفند كل اتهامات الفساد .. ملقيا بالمسئولية على المتآمرين عليه .. ومؤكدا فى هذا الخطاب ولاءه للرئيس .

وكان حريصا خلال فترات ابتعاده عن السياسة إجباريا على ألا يكون له اتصال مباشر بالعاملين بقطاع الزراعة وان يكون بعيدا عن أى نشاط سياسى يمارسه اعداء النظام بما فيهم أخوه غير الشقيق عمر مرعى .

لقد كان سيد مرعى بذلك يعمل على ارضاء عبد الناصر حيث تعطى هذه التصرفات انطباعا بان مرعى مازال متعاطفا مع حكومة عبد الناصر ـ وعلى اى حال ـ فقد كان عليه ان ينتظر حتى تتغير السياسات مع الظروف والملابسات لتمنحه فرصة اخرى للحاق بالركب والظهور على خشبة المسرح مرة اخرى .

الباب السابع

الفترة الأخيرة فى عصر عبد الناصر صراع من أجل البقاء

الفصـل الأول

المنـــاخ السيـاســـى

وقد تميزت السياسات المصرية فى عصر عبد الناصر بجنوحها فى اغلب الاوقات نحو اليسار مصحوبة بفترات قليلة تنعطف فيها هذه السياسات نحو اليمين .

وعندما جنحت السياسات نحو اليسار فى صيف ١٩٦١ اصدر الرئيس عبد الناصر القوانين الاشتراكية ومنها قانون جديد للاصلاح الزراعى وبدأ يتعقب الاقطاعيين والراسماليين فى اعقاب فشل الوحدة المصرية السورية وفقد سيد مرعى وظيفته فى اثر هذه الاجراءات .

ولكن عاد سيد مرعى للمسرح فى ربيع ١٩٦٣ مما يعطى مؤشرا بان موجة اليسار العاتية قد خفت حدتها وبسرعة استطاع ان يستعيد مكانته حتى استطاع ان يقتحم مجتمع الصفوة السياسية مرة اخرى على مدى عامى ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ وعاد يمارس هوايته فى مصارعة منافسيه من اصحاب النفوذ .

ويبدو ان الاتجاه نحو اليمين لايدوم طويلا ففى بداية فبراير عام ١٩٦٦ قام حزب البعث بانقلاب عسكرى فى سوريا مما ادى لجنوح السياسات فى منطقة الشرق الاوسط نحو اقصى اليسار وبدأ عبد الناصر فى اعقابها مباشرة فى ادارة دفة الحكم نحو اليسار مرة اخرى .

وقد كان سيد مرعى من السياسيين البارزين الذين يخطفون الابصار فى تلك الفترة حيث كان يعتبر واحدا من الاقطاعيين الذين استطاعوا الفرار من عقاب الثورة والدليل على ذلك انه تعرض لمعصرة اللجنة العليا لتصفية الاقطاع واستطاع الخروج منها ومعه كل ممتلكاته وكل مستقبله السياسى .

والشىء المؤكد ان نكسة يونيه ١٩٦٧ قد انقذت سيد مرعى من مصير لايعرفه فقد حدثت فوضى سياسية فى اعقابها اثرت بشكل ايجابى وطيب على مشوار حياته العملية فى السنوات القليلة الباقية من عصر عبد الناصر .

وفى الاسابيع الاولى التى اعقبت الهزيمة العسكرية بدا واضحا ان دفة الحكم تبحث عن فرصة ووسيلة للاتجاه لليمين خاصة بعد ان بدأ الشارع المصرى يردد ان

رفاق عبد الناصر ورجال الاتحاد الاشتراكى قد قادوا السفينة الى موقع الكارثة الكبرى والمثير ان احدا لم يتهم عبد الناصر نفسه .

وربما ادت هذه الكارثة للاطاحة ببعض اصحاب النفوذ وربما ادت ايضا لتغيير المذهب السياسى للحكومة الا ان اليساريين قد بدأوا يرددون ان الاشتراكية ليست سببا للنكسة وانما يرجع السبب فى الهزيمة العسكرية لعدم الالتزام بالخط الاشتراكى .. وهم بذلك يصفون نفس الدواء الذى أدى للعلة والنكسة .

واصبح هناك صراع مرير بين مجموعتين فى الحكومة المجموعة الاولى ترى انه لابد من اجراء تعديل فى سياسات عبد الناصر بحيث تكون اكثر واقعية بالسير وفقا للمنهج الديمقراطى واعطاء دفعة للقطاع الخاص على حساب القطاع العام وكانت هذه المجموعة تأمل فى تحقيق اهدافها من خلال موجة الاستياء والسخط العام من السياسات الناصرية .

وكانت المجموعة الثانية فى المواجهة تقوم باستخدام العلاقة من السوفيت للضغط على عبد الناصر للحفاظ على المكاسب الاشتراكية وكما يقال فقد كان عبد الناصر بين نارين حيث كان يعمل على الا يحرز اى من المجموعتين نصرا محققا .

ولكن يمكن القول إن كفة الميزان كانت تميل لصالح اليساريين الذين كانوا يتمتعون بحماية ودعم السوفيت اما اليمينيون فقد كان عليهم أن يلجأوا لعبد الناصر طلبا للحماية والدعم .. وبالنسبة لسيد مرعى واخرين فقد كانوا يعيشون اوقاتا عصيبة وكان ينطبق عليهم المثل « انهم فى أضعف حالاتهم » ولم تتغير هذه الاوضاع حتى جاء السادات ليدير الدفة فى اتجاه اخر تماما .

الفصل الثانى

دور مرعى فى عصر عبد الناصر

وبصفة عامة لاينكر احد ان سيد مرعى كان أحد المدنيين القلائل الذين لمعوا فى عصر عبد الناصر وربما يرجع ذلك لانه لايشكل أى تهديد على عبد الناصر لانه ليس من رفاق السلاح .

وقد استطاع أن يثبت وجوده فى مجتمع الصفوة من خلال خبرته بقطاع معين هو قطاع الزراعة ومع ذلك لا يمكن وضع سيد مرعى فى قائمة أهل الخبرة من الاكاديميين أمثال عبد المنعم القيسونى ومصطفى خليل وعزيز صدقى فقد كان مرعى يختلف عن هؤلاء لان لديه خبرة وخلفية سياسية حيث سبق أن مارس السياسة فى عصر ما قبل يوليه ١٩٥٢ كما انه لم يحرص على الحصول على درجة الدكتوراه فى تخصصه لانه استطاع تعويض ذلك باكتساب الخبرة العلمية والحس السياسى .

وقد نجح سيد مرعى فى اكتساب احترام عبد الناصر وبعض رفاقه باعتباره سياسيا عمليا نشيطا إستطاع أن يثبت مهارة شديدة فى إدارة الافراد حتى أن كل من عمل معه قد أشاد بمبدأ تفويض السلطات الذى كان يتبعه بالاضافة إلى قدرته على تحديد الاهداف التنظيمية والتنسيق بين مختلف الانشطة .

وببساطة يمكن القول إن سيد مرعى كان سياسيا لديه القدرة على الادارة حيث نجح فى ادارة قطاع الزراعة بمساعدة ودعم رجاله ومساعديه الذين استخدمهم بكفاءة لتحقيق برامج التنمية فى هذا القطاع الضخم حتى أن عبد الناصر كان يعرف ان سيد مرعى ادارى موهوب ولذلك قام بدعمه فى العديد من المواقف ورغما عن ذلك فقد كان سيد مرعى فى بعض الاحيان يدفع ثمنا غاليا لهذا الدعم نتيجة غيرة منافسيه .

وقد كان لسيد مرعى شبكة اتصالات جيدة بجميع الصفوة السياسية ومختلف قطاعات الحكومة وكانت هذه الشبكة حصيلة لاتصالات العائلة وشلة كلية الزراعة وعلاقات الحياة العلمية .

وكأن رجال سيد مرعى يقومون بمهام على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة له حيث كانوا يعملون على تنفيذ سياساته ودفعه للأمام عندما يحتل مقعده فى الوزارة وعندما يفقد سيد مرعى مقعد الوزارة يعملون على عرقلة سياسات خصومه وإمداده بالمعلومات التفصيلية عن مايجرى .

وبين دهاليز مجتمع الصفوة السياسية استفاد سيد مرعى كثيرا من صداقته لعلى صبرى فى الخمسينيات وجمال سالم وأنور السادات كما استفاد من اقتحام شلة محمد حسنين هيكل حيث ادت لتقوية العلاقة بينه وبين عزيز صدقى ومصطفى خليل وعبد المنعم القيسونى ومحمود فوزى ومن خلالهم استطاع اقتحام عالم الصناعة والمال والشئون الخارجية واصبح يتطلع الى آفاق جديدة فى القطاعين العام والخاص فى ظل حماية هيكل صديق عبد الناصر المقرب والتى بدونها لم يكن من الممكن التغلغل فى النظام الناصرى .

والشىء المؤكد أن المرتفعات والمنخفضات التى واجهت سيد مرعى فى مشوار حياته السياسية قد انعكست آثارها على رجاله وأفراد شلته بالسالب والموجب وكلما تألق النجم فى مدار جديد تألقوا معه والعكس صحيح .

ويثور الجدل حول العلاقة بين أهل الثقة وأهل الخبرة مرة أخرى .. ويبدو ان العلاقة بينهما عكسية بمعنى أن وجود إحدى الفئتين يجعل وجود الفئة الاخرى مستحيلا .. وعندما فشلت الوحدة المصرية ـ السورية واتجهت دفة الحكم ناحية اليسار فوجىء الشارع المصرى أن أهل الخبرة فى الحكومة يتساقطون الواحد منهم تلو الآخر مما يؤكد ان اتجاه دفة الحكم يتأثر بوجود أو نشاط اى من الفئتين .

وبالطبع كان عبد الناصر هو الربان الذى يدير الدفة يسارا أو يمينا وليس أحد أخر غيره وكان يفعل ذلك وفقا لما يراه هو شخصيا اى وفقا لاعتباراته الشخصية حيث كان يتأثر بعلاقته بالقوى العظمى وبحركات التحرر فى دول منطقة الشرق الأوسط والعوامل الاقتصادية والسياسية الداخلية .. وكانت قرارات عبد الناصر بالاتجاه يمينا أو يسارا تعكس انه مازال مركز السلطة وأن الامور مازالت تحت سيطرته وعموما فقد كان سيد مرعى مخلصا وواليا للرئيس من البداية للنهاية .

الفصل الثالث

العودة للمسرح السياسى

ويبدو ان عبد الناصر يصر على اجراء اختبار اخر فى الولاء لسيد مرعى وبالرغم من ظهور صورة سيد مرعى فى الصفحة الاولى لجريدة الاهرام وتحتها خبر لقاء عبد الناصر به واعتبره الكثيرون تحذيرا من عبد الناصر لمروجى الاشاعات ضد سيد مرعى الا انه فى شهر يوليه من نفس العام قامت المخابرات بالقاء القبض على عمر الاخ غير الشقيق لسيد مرعى بتهمة التآمر مع الاخوان المسلمين لقلب نظام الحكم .

ورغم ان سيد مرعى كان يعمل من وراء الكواليس لتخفيف الحكم الصادر بإعدام اخيه الى السجن إلا أنه حرص على الالتزام بضبط النفس وعدم ابداء اى اعتراض على ما حدث لأخيه او حتى ينبس بكلمة تمس النظام الحاكم كما كان يفعل الكثيرون الذين عانوا فى فترة حكم عبد الناصر ولكن فى نهاية عام ١٩٦٢ اصبح يمكن القول إن مرعى قد اجتاز بنجاح اختبار الولاء .[١]

ووجد عبد الناصر ان الوقت قد اصبح مناسبا لاستجواب سيد مرعى وطلب من هيكل ان يستدعيه وكان اللقاء عاصفا حيث عبر عبد الناصر عن شكوكه فى مرعى واتهمه بانه « يعمل بعيدا جدا عنه » وطبعا دافع سيد مرعى عن نفسه ونفى هذا الاتهام ولكن يبدو ان عبد الناصر لايغير رأيه بسهولة .

وبدا واضحا ان سيد مرعى يريد ان يتعاون مع النظام وربما عبر عن رغبته انه يريد ان يعود للعمل فى القطاع الزراعى ولكن يبدو ان عبد الناصر لم يكن يريد ان يحقق له هذه الرغبة وانه يريد ان يختار له الموقع الذى يعمل فيه ولذلك أخبر هيكل انه لايحب عناد سيد مرعى .

ونتيجة لشكوك عبد الناصر التى لاتنتهى وتسرعه فى الحكم ظل سيد مرعى فى منزله لمدة ثلاثة اشهر اخرى حتى مارس عام ١٩٦٣ .

وقام عبد الناصر بتفويض على صبرى لاستجواب سيد مرعى مرة ثانية وكان سؤال صبرى محددا هل تتعاون مع النظام ورد مرعى بأنه قد حرص دائما على ان يفعل ذلك .. وفوجىء سيد مرعى بالاخبار السعيدة وهى انه تقررت عودته للحياة العامة مرة اخرى من خلال بنك مصر حيث تم تعيينه عضوا بمجلس ادارة البنك .

وقبل ان يمر شهر بدأت انتخابات الاتحاد الاشتراكى والتى قرر مرعى ان يخوضها مع العضوين محمد رشدى وهو إبن جار منطقة العباسية رشدى بيه واحمد فؤاد الذى ساهم فى وضع قانون الاصلاح الزراعى منذ احد عشر عاماً ونجح الثلاثة وحصل سيد مرعى على أعلى الاصوات واصبح الثلاثة يمثلون العاملين بالبنك فى الاتحاد الاشتراكى .

وفى صيف العام التالى له خاض مرعى الانتخابات البرلمانية ليفوز بمقعد العائلة فى محافظة الشرقية وحصل على ٤١ الف صوت وهو اكبر عدد من الاصوات حصل عليه مرشح .. وقد حقق كل هذه المكاسب فى وقت قصير وبغير مساندة من احد .. لكنه عرف ان عليه ان يخطو خطوة لابد منها وهى ان يعمل على تعميق علاقته بأنور السادات .

وكان عبد الناصر قد اختار انور السادات ليكون امينا للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى .. وقام السادات بدوره بمؤازرة مرعى للفوز بمنصب امين مساعد المجلس .. وقد فعل السادات ذلك لأسباب شخصية بحتة اولها انه صديق له من شلة هيكل .. والسبب الثانى ان السادات كان يعلم انه بحكم منصبه الجديد عليه ان يدخل فى صراع مع على صبرى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت وانه لن يجد حليفا افضل من سيد مرعى بصفته عدو صبرى اللدود .

وقد كان على صبرى يأمل الا يفوز مرعى بالمنصب فقام بترشيح محمد ابو نصير وهو اليتيم الذى نشأ فى بيت عائلة مرعى .. ولكن لم يشأ عبد الناصر ان يترك الفرصة لعلى صبرى للسيطرة على الحكومة والاتحاد الاشتراكى فى ان واحد فقام بدعم ترشيح سيد مرعى للفوز بالمنصب .

وكانت خطة جمال عبد الناصر تعتمد على إحداث التوازن بين على صبرى وحكومته فى جانب وأنور السادات وسيد مرعى فى الاتحاد الاشتراكى فى الجانب الآخر .

وقد انتصر السادات وسيد مرعى فى جولة الصراع الاولى مع على صبرى حيث استطاعا تعبئة شبكة من المؤيدين لهما داخل المجلس .. والمؤكد ان موقف سيد مرعى قد تحسن كثيرا واحدث تقدما ملموسا عندما عينه السادات رئيسا لأهم لجنتين من لجان المجلس وهما لجنة التنمية الزراعية ولجنة الرد على استجوابات واسئلة الاعضاء وكان لهذه اللجنة سلطة استجواب الوزراء وبذلك بدأ سيد مرعى والسادات فى مطاردة على صبرى ووزرائه فيما يتعلق بأنشطة الحكومة ومستوى ادائها .

وقامت لجنة الرد بالفعل باستجواب الوزراء فيما يتعلق بأزمة السلع التموينية ومشاكل الدراسة بالجامعات وفى يونيه عام ١٩٦٥ إستطاع السادات ومرعى إجبار على صبرى على تعديل مشروع الميزانية .

وذهب على صبرى يشكو لعبد الناصر من محاولات السادات ومرعى لعرقلة مسيرة الحكومة مؤكدا انهما يعملان على الإطاحة بحكومته .. لكن عبد الناصر رفض التخلص منهما .. ولذلك بدأ صبرى يبحث عن وسيلة اخرى للحد من نفوذ السادات ومرعى فى الاتحاد الاشتراكى .

والجدير بالذكر ان عبد الناصر قد قام بتنظيم الاتحاد الاشتراكى فى بداية الستينات على نفس طراز الحزب الشيوعى اليوغوسلافى واضاف إليه تنظيما قياديا سريا يقوم بتحديد اتجاه الدفة للمنظمة الام - وهى الاتحاد الاشتراكى - من خلف الكواليس .

واقترح سيد مرعى فى اجتماع بين اعضاء اللجنة التنفيذية واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى عام ١٩٦٤ - وكان وقتها عضوا باللجنة المركزية - ان تخصص المقاعد الفردية - للاتحاد الاشتراكى - للجمعيات التعاونية الزراعية .. لكن لم يوافق عبد الناصر على هذا الاقتراح حيث كان هناك هدف محدد أمامه وهو نشر وحدات وخلايا الاتحاد الاشتراكى بحيث تنتشر فى جميع بقاع الجمهورية .

ويبدو ان هذا الاقتراح قد أثار عبد الناصر حيث بدأ يردد فى غضب ان الاتحاد الاشتراكى منظمة على مستوى القاعدة وانه سيتم طرد اى شخص يعمل على تقليص دور الاتحاد الاشتراكى او يعمل على الحد من انتشاره .

ووجه جمال عبد الناصر سؤالا لسيد مرعى : هل اعضاء الجمعيات الزراعية هم فى نفس الوقت اعضاء فى الاتحاد الاشتراكى واعضاء فى المجالس القروية؟ فأجاب مرعى ان اعضاء الاتحاد الاشتراكى وأعضاء مجالس إدارة الجمعيات يتم اختيارهم بنفس الأسلوب وهو الانتخاب .

ويبدو ان عبد الناصر لم يشأ ان تقف التعاونيات على قدم المساواة مع تنظيمه الجديد ولذلك رفض اقتراح مرعى .. بل هدد عبد الناصر بأنه اذا سيطرت التعاونيات على نشاط الاتحاد الاشتراكى سيقوم على الفور بحلها .

وقد استطاع على صبرى ان يلعب بالأوراق بمهارة مما يؤكد انه وجد الوسيلة اخيرا وهى التحكم فى الجهاز السرى الذى يدير دفة الاتحاد الاشتراكى حتى انه بدأ يعيد تنظيم احد فروع هذا التنظيم السرى فى البرلمان وبذلك تمكن من فصل التيار فأصبح السادات وسيد مرعى وحدهما فى جانب وباقى اعضاء المجلس فى الجانب

الآخر وبذلك اصبح الرجلان مكتوف الايدى ولم يعد امامهما الا ان يجلسا ويراقبا ضياع النفوذ والسطوة داخل المجلس .

وقد كان احد اهداف عبد الناصر من انشاء الاتحاد الاشتراكى هو توازن القوى مع المشير عبد الحكيم عامر ورجاله من العسكريين . ولذلك لم يشأ عبد الناصر التدخل لوقف نمو تنظيمه السياسى السرى الذى يتولى امر دفة الاتحاد الاشتراكى .

وعلى اى حال فلم يكن انور السادات عضوا فى اللجنة المركزية او اللجنة التنفيذية العليا رغم انه امين الاتحاد الاشتراكى ولذلك لم يكن قادرا على رسم وتوجيه سياسات الاتحاد الاشتراكى كتنظيم .

وفى شهر ديسمبر عام ١٩٦٤ تم تعيين سيد مرعى وكيلا للجنة المركزية لشئون الرأسمالية الوطنية وشارك فى المناقشات التى جرت حول تنظيم الاتحاد الاشتراكى ولكن ـ للأسف ـ كان نفوذه ضئيلا داخل هذا التنظيم حتى انه خسر انتخابات اللجنة التنفيذية العليا عام ١٩٦٨ .. وأصبح سيد مرعى والسادات رجالا بلا نفوذ فى جهاز كبير له نفوذ وسطوة وهو الاتحاد الاشتراكى .. وبدا واضحا ان على صبرى قد انتصر فى الجولة الثانية .

الفصل الرابع

قطـــــــاع الـزراعـــــة

والجدير بالذكر انه فى ربيع عام ١٩٦٣ فوجىء الجمهور بعودة سيد مرعى للمسرح السياسى ليؤدى دوره كسياسى بارز على مستويات مختلفة وكان اكثرها بريقا دوره كوكيل للاتحاد الاشتراكى .

وكغيره من السياسيين من أصحاب الطموح بدأ يفرض سطوته على أجهزة الاتحاد الاشتراكى ومن ناحية اخرى بدأ يعمل على فرض نفوذه على القطاع الزراعى مرة اخرى بتقليص نفوذ أعدائه الذين ساهموا فى الاطاحة به عام ١٩٦١ .

ويمكن القول إن اقتحام مرعى للقطاع الزراعى أو عزبته القديمة كان يعد مخاطرة بعد أن اصبحت الموضوعات التى تتعلق بقطاع الزراعة موضوعات سياسية فى المقام الاول .. وبالرغم من وجود انصار ومؤيدين لسيد مرعى بالاجهزة الحكومية المسئولة عن تنفيذ السياسة الزراعية الا ان المسئولين عن هذا القطاع فى تلك الفترة كانوا من الد اعدائه .

وكان عبد المحسن ابو النور وقتها يشغل منصب وزير الزراعة واستصلاح الاراضى حيث كان يتمتع بدعم المشير عبد الحكيم عامر ثم انتقل ليعمل تحت مظلة على صبرى منذ منتصف الستينات مما تطلب منه اجراء تعديل فى التوجهات السياسية والايديولوجية الخاصة به من اليمين الى اقصى اليسار

والجدير بالذكر انه فى مارس عام ١٩٦٤ قام على صبرى بتعيين عبد المحسن أبو النور نائبا لرئيس الوزراء ومسئولا عن القطاع الزراعى واستمر فى هذا المنصب حتى ١٩٦٧ وقام أيضا بتعيين محمد نجيب حشاد وزيرا للزراعة ـ وهو احد رجال كمال الدين حسين ـ ثم استبدله بعد ذلك بالدكتور شفيق الخشن الذى له باع طويل مع على صبرى والاتحاد الاشتراكى .

ويبدو أن على صبرى وعبد المحسن أبو النور وشفيق الخشن لم يكونوا من المؤيدين لطموحات عبد الناصر بشأن استصلاح الأراضى بعد ان ثبت صعوبة ذلك رغم انه مرتبط فى خيال عبد الناصر بالسد العالى أو بقرة عبد الناصر المقدسة وسبق ان اقنع عبد الناصر بذلك عدد من ضباط الجيش السابقين الذين كانوا يعملون فى

الشركات الحكومية لاستصلاح الاراضى وقد تم تنفيذ خطة استصلاح الاراضى فى هذه الفترة وفقا لمعلومات مضللة وغير صحيحة قدمها هؤلاء الضباط .

وقرر سيد مرعى ان يقدم على هذه المغامرة رغم أن عنصر المخاطرة فيها كبير مما يعكس عشقه وحبه لقطاع الزراعة ومما يعكس فى الوقت نفسه أهمية هذا القطاع بالنسبة لمستقبله السياسى خاصة أنه خبير فى السياسات الزراعية كما أن هناك عددا من الموالين له ما زالوا يعملون بالقطاع .. لقد كان سيد مرعى واثقا انه يستطيع تنفيذ خطة هجومية على المسئولين بقطاع الزراعة لانه يتمتع برعاية محمد حسنين هيكل اولا واخيرا .

وتوضح هذه الاحداث الصراع الابدى بين أهل الثقة وأهل الخبرة وهو الصراع الذى بدأ يشهد تطورات خطيرة على مدى الشهور التى سبقت نكسة يونية عام ١٩٧٦ وعلى اى حال ـ فقد كان هيكل من أنصار أهل الخبرة وكان المحامى الأوحد الذى يدافع عنهم أمام جمال عبد الناصر .

وقد بنى سيد مرعى شهرته كخبير فنى فى شئون قطاع الزراعة .. بينما كان هيكل على دراية تامة بقاعدة عبد الناصر الخاصة بتوازن القوى بين أصحاب النفوذ فى الحكومة ورغبة عبد الناصر الملحة فى الحيلولة دون سيطرة شخص او مجموعة على قطاع بعينه . وكان هيكل يعلم أيضا أن إلقاء الضوء على أداء سيد مرعى فى مجال الزراعة تحقق له مصالح لاريب فيها .. وأن عبد الناصر سوف يطالع اقتراحات سيد مرعى فيما يتعلق بقطاع الزراعة على صفحات الأهرام حتى يعرف الفرق بينها وبين سياسات على صبرى وعبد المحسن أبو النور .. والهدف طبعا هو دفع عبد الناصر لاستبدال أبو النور بالحليف سيد مرعى .

والمثير أن الصراع بين سيد مرعى وأبو النور قد بدأ ـ تحت مظلة حسنين هيكل وحمايته ـ قبل أن يكسب مرعى جولة إعادة إنتخابه فى الاتحاد الاشتراكى وذلك فى منتصف يوليه عام ١٩٦٤ وذلك حين سمح رئيس تحرير الأهرام لسيد مرعى بتحرير مقالات يشكك فيها فى السياسات الزراعية التى ينتهجها عبد المحسن أبو النور .

وبعد مضى أسبوع .. بدأ سيد مرعى سلسلة من المقالات فى جريدة الأهرام بعنوان « نحن الفلاحين » وكان يدافع فيها عن الفلاح المنتج .. اتهم فيها أبو النور بأنه لا يعرف شيئا عن المشاكل الزراعية الاساسية وهو ما يؤخذ على الضباط الذين يديرون قطاعات فنية .. وكتب أن أبو النور يمثل حكومة لا تهتم بالريف .

وقد بدأ سيد مرعى هجومه فى وقت اشتدت فيه أزمة السلع الغذائية حتى اصبحت بمثابة مرض مزمن ومشكلة سياسية حساسة .

وفي شهري مارس وابريل من العام التالي اى عام ١٩٦٥ بدأت جريدة الاهرام في نشر سلسلة أخرى من مقالات سيد مرعي وكانت تتعلق بموضوع آخر أكثر حساسية وهو ملكية الأراضي المستصلحة بعد أن وصلت مساحة الأراضي المستصلحة من مياه السد العالي الى ٥٠٠ الف فدان .

وكان السؤال المطروح هو : من الذي يجب أن يتملك أو يحوز هذه الأراضي ؟ .. وكانت وجهة نظر علي صبري وعبد المحسن أبو النور وأصحاب الاتجاهات اليسارية تتلخص في أن تظل هذه الأراضي مملوكة للدولة على أن يتم استخدامها واستغلالها كمزارع حكومية .. بينما كان البعض الآخر يرى أن تقوم شركات خاصة وحكومية بزراعة هذه الأراضي وحيازتها أو توزيع هذه الأراضي على الفلاحين في حيازات صغيرة .

وكان سيد مرعي مقتنعا تماما بنموذج الإصلاح الزراعي الذي يتلخص في توزيع الأراضي على الفلاحين في حيازات أو إقطاعيات صغيرة خاصة على أن يكون هؤلاء الحائزون اعضاء في الجمعيات التعاونية الزراعية لتيسير الحصول على مستلزمات الانتاج الزراعي وتسويق الإنتاج .

وقد كان عبد الناصر حريصا على الا يبوح برأيه فيما يتعلق بهذا الموضوع .. وربما كان الرئيس يفضل توزيع هذه الأراضي على الشركات أو تطبيق نموذج الإصلاح الزراعي .. والشيء المؤكد انه لم يكن يهتم كثيرا بقضية توزيع الأراضي لأنها لم تكن على قائمة الموضوعات الأكثر إلحاحا بالنسبة للرئيس .

وعلى أي حال فلم يكن سيد مرعي يملك اى وسيلة مباشرة للتأثير في سياسات أبو النور الذي بدأ يستخدم نفوذه لتحويل هذه الأراضي إلى مزارع حكومية - بينما كان رد الفعل الوحيد المتاح أمام سيد مرعي هو توبيخ عبد المحسن أبو النور على صفحات جريدة الأهرام .

ورغم ان سيد مرعي كان يشغل منصب أمين مساعد الاتحاد الاشتراكي إلا أنه كان يستعد لاقتحام القطاع الزراعي مرة أخرى أو داره القديمة .

وكتب سيد مرعي عدة مقالات بجريدة الأهرام على مدى شهور مارس وإبريل ومايو عام ١٩٦٥ يهاجم فيها أسلوب المزارع الجماعية ويوضح مزايا تطبيق وتعميم نموذج الإصلاح الزراعي .

وذكر في مقال كتبه في ٧ مارس أن المزارع الجماعية أو الحكومية في الاتحاد السوفيتي عبارة عن كابوس من الفشل الرهيب لأنها لاتختلف كثيرا عن نظام السخرة والاستغلال الذي يمارسه كبار الإقطاعيين في مزارعهم الضخمة .. وأضاف سيد مرعي أن هذه النماذج المستوردة لا تلائم ظروف مصر الاقتصادية والسياسية

والاجتماعية .. وأشار فى مقاله .. إلى أن نموذج جمعيات الإصلاح الزراعى قد أثبت كفاءة كبيرة فى وادى النيل بالمقارنة بباقى النماذج .

ولتحصيل نفقات استصلاح هذه الاراضى ـ إقترح سيد مرعى فى مقاله ـ أن تبيع الحكومة الأراضى للفلاحين على أقساط وهو أساس نموذج الإصلاح الزراعى .

وقد كان للمهندس سعد هجرس ـ وهو أحد رجال سيد مرعى والذى تم نقله من وزارة الإصلاح الزارعى إلى وزارة التخطيط ـ دور هو الآخر فى مواجهة سياسات عبد المحسن أبو النور حيث أشار فى تقييمه للخطة الخمسية الأولى إلى فشل نموذج المزارع الحكومية .. ويبدو أن سعد هجرس لم يجد حرجا فى إبداء وجهة نظره فلم يكن هناك أسوأ من ذلك يمكن أن يتعرض له .

والجدير بالذكر أنه فى عام ١٩٥٨ قام سيد مرعى ـ بعد تعيينه وزيرا للزراعة ـ باختيار محمد صبيح ليكون رئيسا لتحرير جريدة التعاون والمجلة الزراعية . وهى صحف متخصصة تعمل الأولى على تغطية اخبار التعاونيات والمحافظات بينما تهتم الثانية بتقديم كل ما يهم المهندسين الزراعيين . وكانت هذه الصحف تصدر عن مراقبة الصحافة بالإصلاح الزراعى . وكتب صبيح عدة مقالات يشكك فيها فى سياسات عبد المحسن ابو النور وأنها لم تؤد إلى أى تطور فى قطاع الزراعة .. لكن يبدو أن صبيح قد ذهب بعيدا جدا فى إبريل عام ١٩٦٥ حين اشار على صفحات المجلة الزراعية إلى أن المزارع الحكومية نموذج للفشل الذريع .

ويبدو أن مقالات صبيح قد كانت أكثر مما يطيق على صبرى وعبد المحسن أبو النور وآخرين .. وعلى الفور اخذ كمال رفعت ـ أحد الضباط الأحرار السابقين والذى كان فى ذلك الوقت سكرتيرا للاتحاد الاشتراكى لشئون الدعاية والأفكار الاشتراكية ـ على عاتقه مهمة تقليص نفوذ سيد مرعى فى الصحافة الزراعية .

وقرر كمال رفعت وضع جريدة التعاون والمجلة الزراعية تحت اشراف الاتحاد الاشتراكى وتعيين مصطفى المستكاوى رئيسا لمجلس ادارة المؤسسة وسليمان مظهر رئيسا للتحرير ـ بدلا من محمد صبيح ـ وسيد ابراهيم مديرا عاما للمؤسسة مع العلم بأن المستكاوى كان زميلا لخالد محيى الدين أحد الضباط الأحرار .

وبدأ مظهر فى استخدام وتوظيف صفحات جريدة التعاون والمجلة الزراعية لشرح الأفكار الاشتراكية وتوضيح شعارات مرحلة التحول من الرأسمالية للاشتراكية والعلاقة بين طبقات المجتمع فى هذه المرحلة .

ويبدو أن سيد مرعى لم يكن فى وضع يسمح له بالدفاع عن حلفائه .. وقد تأكد سيد مرعى من ذلك فى أعقاب تطور أحداث نقابة الزراعيين والتى ساهم فى تأسيسها تشريعيا عام ١٩٤٩ .

والجدير بالذكر انه فى اوائل الخمسينيات قام سيد مرعى بترشيح نفسه نقيبا للزراعيين ولكنه فوجىء بخصم ينازعه منصب النقيب وهو عمر طراف شقيق الدكتور نور الدين طراف العضو السابق فى حزب مصر الفتاة والذى كان وثيق الصلة بعدد من الضباط فى مجلس قيادة الثورة ـ وبالفعل ـ فاز عمر طراف بمنصب نقيب الزراعيين بفضل اتصالات شقيقه .

وعندما بدأ نجم سيد مرعى يلمع فى مجتمع الصفوة السياسية لم يعد يهتم كثيرا بشئون نقابة الزراعيين ولكنه لايريد فى نفس الوقت أن يتغلغل نفوذ اعدائه داخل النقابة فتصبح سلاحا موجها لصدره .

وفى أواخر عام ١٩٦٥ بدأ على صبرى يمد نفوذه ويعمل على توسيع مملكته فى مجتمع الصفوة وبدأ خطواته لوضع نقابة الزراعيين تحت سيطرته وكان إبراهيم شكرى وقتها نقيبا للزراعيين .

واذا أردت أن ترسم صورة بروتريه لإبراهيم شكرى فإنه كان يشغل منصب نائب رئيس حزب مصر الفتاة وهو الذى نادى فى البرلمان عام ١٩٥٠ بتحديد ملكية الفرد بما لا يزيد على ٥٠ فدانا من الأراضى الزراعية .

وكان سيد مرعى قد تحالف مع إبراهيم شكرى عام ١٩٦٤ عندما كان الأول رئيسا للجنة التنمية الزراعية بالاتحاد الاشتراكى والثانى نائبا لرئيس اللجنة .

وقد كان هدف سيد مرعى وشكرى من هذا التحالف تفادى سيطرة عبد المحسن أبو النور على نقابة الزراعيين خاصة أنه كان يشغل منصب نائب رئيس الوزراء ومسئولا عن كل قطاع الزراعة .

وأصبح من الضرورى أن يسدد إبراهيم شكرى ضريبة مدير التحالف لسيد مرعى .. وحين جاء وقت سداد هذه الضريبة فى نوفمبر ١٩٦٥ تقدم أحمد طلعت عزيز للترشيح لمنصب نقيب الزراعيين .

وبعدها بأسابيع بدأت الإشاعة تسرى فى دواوين قطاع الزراعة أن أى مهندس زراعى يدلى بصوته الانتخابى لصالح إبراهيم شكرى سينقل لمحافظات الصعيد مع تأخير ترقياته .

وعرف شكرى أن الرياح لن تكون لصالحه وعلى الفور قرر سحب ترشيحه من منصب النقيب .. وتم إعلان فوز أحمد طلعت عزيز نقيبا للزراعيين بالتزكية طبعا .

ومن واقع كشف الأرباح والخسائر عرف سيد مرعى أنه قد خسر اثنين من حلفائه أولهما محمد صبيح فى الصحافة الزراعية وإبراهيم شكرى فى نقابة الزراعيين أى انه ببساطة فى موقف لا يحسد عليه حيث لم يعد قادرا على حماية أنصاره وحلفائه .. إنه موقف مشابه لما حدث فى أعقاب خروجه من الوزارة عام ١٩٦١ .

وعرف سيد مرعى أن الرياح ليست فى صالح السفينة المتجهة لليمين بعد أن تأكد أن محمد حسنين هيكل قد بدأ يفقد نفوذه هو الآخر .

وبات واضحا أن على صبرى ورجاله قد شرعوا فى حملة للتخلص من كل المعارضين لتعود اعلام اليسار لترفرف فى ربوع مصر .

ووجد عبد الناصر نفسه امام اختيار واحد لابديل له وهو دعم على صبرى لإحداث التوازن مع المارشال الطموح عبد الحكيم عامر خاصة بعد صعود حزب البعث اليسارى المتطرف لقمة السلطة فى سوريا فى فبراير عام ١٩٦٦ والخوف من تهديده وانتقال العدوى .

وبدأت شبكة على صبرى تفرض سيطرتها وسطوتها على البرلمان .. وشعر سيد مرعى أن هذا هو نهاية مشواره السياسى خاصة بعد الحادث الذى فرض نفسه على الساحة السياسية فى ربيع عام ١٩٦٦ عندما قتل احد ملاك الأراضى الأثرياء والذى ينتمى لعائلة الفقى عضوا بالاتحاد الاشتراكى .

الفصل الخامس

سيد مرعى على وشك التصفية كإقطاعى

وفى مايو عام ١٩٦٦ نشرت الصحف القاهرية اليومية وصفا تفصيليا لمقتل المواطن صلاح حسين وكان له نشاط فى الاتحاد الاشتراكى بقريته بواسطة احد اثرياء عائلة الفقى . وربما يكون السبب وراء جريمة القتل هو اتهام بعض أفراد عائلة الفقى بالتهرب من قوانين الإصلاح الزراعى .

ووجد عبد الناصر نفسا مضطرا لان يفعل شيئا - وبالفعل - ظهرت عناوين الصحف الصباحية تؤكد « تأسيس لجنة تصفية الإقطاع مرة اخرى » وحرص عبد الناصر ألا يشرف على صبرى على اعمال هذه اللجنة حتى لا يتجه النشاط الى اقصى اليسار .

وقام عبد الناصر بتعيين عبد الحكيم عامر رئيسا لهذه اللجنة خاصة انه محافظ وذو ميول معتدلة .

ويبدو ان اعضاء الاتحاد الاشتراكى قد أرادوا ان يكون لهم دور فى هذه الاحداث .. وطالب عبد الحميد غازى امين الفلاحين بالاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت بالاستيلاء على الأراضى التى قام اصحابها بتهريبها بأسلوب غير قانونى واعادة توزيعها على الفلاحين .

وردد فكرى الجزار عضو الاتحاد الاشتراكى أيضا ما قاله غازى .. بل وذهب أبعد كثيرا من ذلك - مما يشكل تهديدا مباشرا لسيد مرعى - حيث طالب باعادة فتح ملفات الاصلاح الزراعى لتحديد اخطاء تطبيق القوانين .. واشار الى ان هناك اسماء قد اغفلت عمدا مما يشير بأصابع الاتهام للسلطات المسئولة عن ذلك .

ولكن يحدث فى بعض الاحيان ما لم يكن فى الحسبان حيث لم يوافق عبد المحسن ابو النور نائب رئيس الوزراء ووزير الزراعة والرى والاصلاح الزراعى وعضو كل من الاتحاد الاشتراكى ولجنة تصفية الاقطاع على ذلك .. ويبدو انه رفض ان يقوم اعضاء البرلمان باقتحام العزبة الخاصه به وهى الإصلاح الزراعى وتفتيش الادراج

والعبث بالملفات .. واعلن ابو النور ان اعادة فتح الملفات امر غير ضرورى لأنه تم الاستيلاء فعلا على مليون فدان من ممتلكات الاقطاعيين كما تم ايضا الحد من سطوة عائلة الفقى .

وبالرغم من ان عبد المحسن ابو النور قد اضطر لانقاذ سيد مرعى من المصيدة التى نصبت له بإحكام الا إنه لا يمكن القول انه قد استطاع اجتياز احراش الغابة وخرج سالما .

وتطورت المناقشات فى الاتحاد الاشتراكى الى حد اتهام النظام الحاكم بأنه يشجع ملاك الاراضى على الممارسات التعسفية .. وبذلك لم يعد سيد مرعى قادرا على الدفاع عن مصالح هؤلاء الملاك بصورة علنية ولم يجد امامه حلا الا التزام الصمت .

واخيرا وجدها سيد مرعى ولم يكن امامه الا ان يقول ان حادث كمشيش وتطوراته كان نتيجة لمؤامرة اجنبية حاكت ابعادها اسرائيل وحلفاؤها من اجل إحداث انقسام وإضعاف الجبهة الداخلية .

ويبدو ان لجنة تصفية الاقطاع نفسها لا تقر العداء السافر نحو ملاك الاراضى ويفسر ذلك ان عبد الحكيم عامر رئيس اللجنة وعضويها كمال رفعت وشمس بدران قد رفضوا اقتراح خفض الحد الاقصى لملكية الفرد من الاراضى الزراعية الى ٢٥ فدانا والذى تقدم به على صبرى وعبد المحسن ابو النور وأيدته مجموعة رجال الامن سامى شرف وشعراوى جمعة وصلاح نصر .

وبالرغم من ذلك فقد اكتشف عبد الحكيم عامر ان هناك شيئا ما يجمع بينه وبين على صبرى هو الكراهية الشديدة لسيد مرعى ..

ولذلك اتفقا على ان تقوم لجنة تصفية الاقطاع بالشرقية والمنوفية والقليوبية بالتحقيق لضبط الملاك الذين تحايلوا على قانون الاصلاح الزراعى .

وبدأت عائلة مرعى على الفور فى طرح اراضيها للبيع للمستأجرين الذين يقومون بزراعتها وحيث ان عمليات البيع تتم فى عجلة فقد تمت عمليات البيع بأسعار أقل كثيرا من الواقع .. ويبدو انه كان كل مايهم العائلة الا تكون فى مرمى نيران لجنة تصفية الاقطاع .

ولم يكن هناك ما يخشاه سيد مرعى فقد تم ترتيب كل شىء وقد قامت اللجنة بحصر الاراضى التى تمتلكها العائلة وتبين لها انه ليس هناك ما يثير الريبة او يدين العائلة .

ولكن يبدو ان اللجنة لم تكتف بذلك حيث توجه أعضاؤها الى قرية العزيزية وبدأوا فى استجواب الفلاحين عن ممتلكات عائلة مرعى .. والمؤكد ان هؤلاء الفلاحين لم يقدموا يد المساعدة لأعضاء اللجنة لأن كثيرا منهم - ان لم يكن اغلبهم - ينتمى لعائلة نصر الموالية لعائلة مرعى وفقا لما تقتضيه روابط القرابة والجذور .

والمؤكد ان اللجنة لا تريد ان تخرج من العزيزية خالية الوفاض .. فقد بدأت فى استجواب نساء العزيزية .. وقد شعر سيد مرعى أنه فى مأزق لا ريب فيه لانه رتب كل شىء مع ابناء قريته ولكنه لم يضع فى حساباته موضوع استجواب النساء ولم يعد نفسه لهذا الاحتمال مسبقا .

ولم يجد أمامه الا اللجوء لأنور السادات طالبا منه التدخل .. واستجاب السادات واتصل بعلى صبرى تليفونيا وطلب منه أن يوقف نشاط لجنة تصفية الاقطاع فى العزيزية على أن يتم استجواب سيد مرعى فى وقت لاحق بالطرق والوسائل القانونية .

ويبدو أن على صبرى قد حرص الا يحاول اختبار قوته وعضلاته ضد أنور السادات لان لديه ما يكفيه من المتاعب مع المشير عبد الحكيم عامر ولذلك اعطى أوامره للجنة بوقف التحقيقات .

والكل يوافق طبعا على انه قد تم انقاذ سيد مرعى من كارثة محققة فى آخر لحظة .. ومع ذلك فان الوضع مازال يثير القلق حيث فقد نفوذه فى وظيفته كأمين مساعد الاتحاد الاشتراكى كما فقد حلفاؤه ورجاله وظائفهم فى قطاع الزراعة ونجح أعداؤه فى تلطيخ اسمه وسمعته على المستوى القومى كما لم يعد له نفس اللمعان والبريق فى مسقط رأسه بمحافظة الشرقية نتيجة لأنشطة وحملات لجنة تصفية الإقطاع .

الفصل السادس

العودة مرة ثانية

والمؤكد أيضا أن هزيمة يونيه ١٩٦٧ قد زلزلت النظام السياسى الناصرى .. وقد فسر البعض سبب حرب ١٩٦٧ بأنه يرجع لخطأ إرتكبه عبد الناصر وهو انحياز مصر الكامل للاتحاد السوفيتى ضد الولايات المتحدة ودفع السياسات الاقتصادية الداخلية نحو اليسار بشكل ملفت للنظر ويبدو أن الهزيمة كانت ضريبة هذا الخطأ .

ولاشك أن استقالة جمال عبد الناصر فى ٩ يونيه أو تنحيه وتعيين زكريا محيى الدين خلفا له كانت اعترافا من عبد الناصر بحقيقة هذا النقد أو ذلك التفسير لان زكريا محيى الدين ذو ميول غربية ويتميز بأنه محافظ ومعتدل فى سياساته وبهذا القرار كان عبد الناصر يريد أن يقول إنه اذا كنتم ترفضون عبد الناصر والناصرية فهذا هو البديل الذى ترونه مناسبا .

ويمكن القول إن مظاهرات الجماهير تأييداً لبقاء عبد الناصر ورفضا لتنحيه تعد دليلا على أن الغالبية العظمى من الشعب المصرى كانت تفضل عبد الناصر على زكريا محيى الدين أو أى شخص آخر .. مما يعكس أن عبد الناصر مازالت له شعبية ..

وقد بدأ عبد الناصر بعد الحرب فى إعادة ترتيب أوضاع الحكم بشكل مختلف وبدا واضحاً أن الرئيس يحرك تروس الدفة نحو اليمين مما يعنى الحد من نفوذ اليساريين وارسال دعوات لاستدعاء السياسيين القدامى الذين لفظهم النظام فى مرحلة من مراحله .

وعلى أى حال فقد قرر عبد الناصر أن يتجه بالدفة يمينا بعد أن ثبت له عدم كفاءة المشير عبد الحكيم عامر وفشله عسكريا وقد أصبح عامر خارج السلطة فى نهاية فصل الصيف .

وربما تحقق المصائب بعض المصالح والفوائد للبعض والمؤكد أن سيد مرعى قد تخلص من الصراع والضغط العصبى الذى يتمثل فى لجنة تصفية الاقطاع فيما بعد ٥ يونيه عام ١٩٦٧ ولم يعد يخشى تهديداتها بل أكثر من ذلك أصبح فى إمكانه العودة للمسرح السياسى ليحتل مكانا مرموقاً فى مجتمع الصفوة السياسية .

ويبدو أنه قد جاء الوقت ليبتسم سيد مرعى خاصة أنه احد المستفيدين بشدة من رغبة عبد الناصر وقراراته بالتخلص من رجال عبد الحكيم عامر فى الحكومة .

والشىء المؤكد أن الوقت قد حان لدفع عبد المحسن ابو النور من أعلى إلى أسفل وقد كان أبو النور يشغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الزراعة والرى والاصلاح الزراعى بينما أصبح فى التشكيل الوزارى الذى تم فى ١٩ يونيه ١٩٦٧ وزيراً لاستصلاح الأراضى فقط .

ونظرا لتدهور العلاقات بين عبد الناصر والمشير عامر على مدى شهور الصيف عاد عبد الناصر مرة أخرى ليصطدم بأبو النور .

وقد اقترح عبد المحسن ابو النور تشكيل قوات من المواطنين للمقاومة الشعبية لمواجهة تهديدات اسرائيل فى اعقاب ايام الحرب فهنأه عبد الناصر على الاقتراح الجدير بالاعتبار وطلب منه أن يشرف بنفسه على المقاومة الشعبية ووجدها « أبو النور » فرصة ليركب موجة الحماس والبطولة ولم يكن يعلم انه فخ نصبه عبد الناصر باقتدار .

وطلب عبد الناصر من «ابو النور » ان يستقيل من الوزارة حتى يتسنى له أداء دوره الجديد كمسئول عن المقاومة الشعبية بكفاءة وحيث يعطى كل اهتمامه للوظيفة الجديدة واعترض ابو النور مؤكدا أنه يمكنه الجمع بين الوظيفتين وفجأة تحول اقتراح عبد الناصر إلى أمر .

والمضحك والمثير فى آن واحد أنه لم يتم تشكيل أية فرق للمقاومة الشعبية على الاطلاق بناء على أوامر عبد الناصر ايضا .

وفى شهر أغسطس من عام ١٩٦٧ اضاف عبد الناصر وزارة استصلاح الأراضى إلى وزارتى الزراعة والاصلاح الزراعى التى أصبح سيد مرعى يتولاها منذ تشكيل ١٩ يونيه .

وبعد أن جنح عبد الناصر بدفة الحكم نحو اليمين اراد أيضاً أن يعطى ثقته للبرجوازى الذى كان محاصرا ومعزولا فى فترة سابقة ولذلك أعطى عبد الناصر أوامره لسيد مرعى فى ٢٦ يوليه ١٩٦٧ بأن يعمل عل اعادة الأراضى الزراعية التى استولت عليها لجنة تصفية الاقطاع إلى المواطنين مرة ثانية وعلى أن يتم ذلك فى هدوء علما بان اللجنة كانت قد استولت على أرض تخص ٨٨ مواطنا وقتها .

وعاد سيد مرعى مرة أخرى ليفرض سطوته على قطاع الزراعة وقد استقبله آلاف العاملين بوزارة الزراعة فى صباح يوم ٢٠ يونيه استقبالا حارا وأخذوا يرددون « مرعى .. مرعى » وكانَ ذلك دليلا على عودة الايام الخُوالى .

وبدأ على الفور فى اعادة تشكيل فريقه فقام باستدعاء سعد هجرس من وزارة التخطيط وبدأ يدفع برجال عبد المحسن ابو النور نحو الحائط ليحل محلهم رجاله

وافراد شلته والذين ذاقوا مختلف الوان العذاب فى ظل ادارة ابو النور لقطاع الزراعة على مدى ست سنوات كاملة وعلى أى حال فقد تم تعيين سعد هجرس فى وظيفته القديمة كرئيس لهيئة الاصلاح الزراعى .

ويبدو أن سيد مرعى قد بدأ يتصرف بحرية ودون خوف من العواقب الوخيمة فبدأ يفكر فى إمكانيات اعادة تمليك اراضى مديرية التحرير للعاملين فيها بعد أن اعيدت هذه الأراضى لملكية الدولة بعد خروجه من الحكومة عام ١٩٦١ .

وبعد أسبوع واحد من عودته للوزارة قام بالفعل بخطوات لتوزيع أراضى جنوب التحرير على الفلاحين الذين يعملون بها وفى ٢٥ يونيه أعلنت الصحف عن بدء توزيع هذه الأراضى .

وعلى أى حال فقد كان سيد مرعى يعارض بشدة الاستثمارت الباهظة التى كانت تنفق فى استصلاح الأراضى فى فترات سابقة ولذلك أخذ على عاتقه عقب توليه مقاليد الوزارة العمل على وقف هذه الخطط الطموحة .

وأعلن فى ٢٧ نوفمبر ١٩٦٧ أن أولوية استصلاح واستزراع الأراضى الجديدة ستعطى للاراضى التى تم إمدادها بمشروعات الرى والصرف وأن الاولوية للأراضى الطميية قبل الأراضى الرملية .

وأشار ايضاً فى تصريح له إلى أنه لن يتم استخدام أساليب الرى بالرش فى زراعة أراض جديدة لانها تكنولوجيا مكلفة وثبت عدم كفاءتها وهى تكنولوجيا الرى التى كان يفضلها ضباط الجيش الذين كانوا يعملون فى استصلاح الأراضى منذ الأيام الأولى لمشروع مديرية التحرير .

وللحد من سلبيات التوريد الحكومى الذى أضافه عبد المحسن أبو النور على تسويق القطن إقترح سيد مرعى أن تقوم شركات قطاع خاص بشراء القطن مباشرة من المنتجين لتوفير أسعار مجزية للفلاحين .

والمؤكد أن الجمعيات التعاونية الزراعية تعد وثيقة الصلة بسيد مرعى وبشهرته فى قطاع الزراعة وقد حاول عام ١٩٦٥ أن يقنع عبد الناصر بأن تكون هذه التعاونيات هى التنظيمات الوحيدة فى القرى بدلا من وحدات الاتحاد الاشتراكى ولكنه لم ينجح فى ذلك .

وقد كان اعداء سيد مرعى والذين كانوا يهيمنون على قطاع الزراعة ينظرون للتعاونيات نظرة مختلفة حيث كانوا يستخدمونها فى إثارة المستأجرين من الفلاحين ضد ملاك الأراضى بينما كانوا يفضلون تنظيمات الاتحاد الاشتراكى لتكون التنظيمات السياسية الوحيدة على مستوى القرى .

وبدأت مظاهر الفساد تستشرى فى الجمعيات التعاونية الزراعية فى عصر ابو النور وبدا واضحا أن أعضاء مجالس ادارة هذه الجمعيات هم السبب فى ذلك علما بأن ٨٠ ٪ من أعضاء هذه الجمعيات وفقا لقانون التعاون الذى صدر عام ١٩٥٦ كانوا من صغار الفلاحين الذين لاتتعدى ملكياتهم الخمسة افدنة وكان ذلك فى حد ذاته يعد مرضا متوطنا فى هذه الجمعيات .

وفى صيف عام ١٩٦٧ عرف سيد مرعى أن عليه أن يفعل شيئاً لتحسين وضع التعاونيات حيث كان لها دور حيوى فى توزيع مستلزمات الانتاج الزراعى ومنها القروض على الفلاحين وتقوم فى نفس الوقت بشراء المحاصيل من الفلاحين أى تشرف على مدخلات ومخرجات الانتاج الزراعى بكفاءة عالية .

وقد كان الموقف يستدعى اتخاذ الخطوات الكفيلة بتصحيح أوضاع التعاونيات وعلى أى حال فقد كان اليساريون يعتقدون أن أزمة الحركة التعاونية ترجع لغياب الديمقراطية وزعموا أن جهات الإشراف أو الحكومة هى التى تسيطر على التعاونيات وتدبر شئونها وليس أعضاء مجلس الإدارة .

واخذ هؤلاء اليساريون يرددون أن سيد مرعى لديه خطة لاعادة تنظيم التعاونيات يحتفظ بها فى درج مكتبه وعبروا عن خشيتهم ان هذه الخطة تتضمن إلغاء نسبة ٨٠ ٪ من صغار الفلاحين فى عضوية مجالس ادارة الجمعيات أو الغاء انتخاب أعضاء مجالس ادارة الجمعيات وتحويلهم لاعضاء بالتعيين وبالتالى زيادة نفوذ رجال سيد مرعى وسطوتهم على الجمعيات الزراعية أى أن سيد مرعى ببساطة يريد ادارة هذه الجمعيات بمعرفته .

وقد أشار الكاتب حلمى ياسين على صفحات مجلة الطليعة وهى المجلة الشهرية لليسار المصرى فى مقال له فى سبتمبر ١٩٦٨ إلى أن سيد مرعى قد ذكر فى خطاب القاه فى شهر اغسطس فى أسيوط انه يجرى حاليا دراسة أسلوب تشكيل مجالس ادارة الجمعيات سواء بتعيين عناصر جيدة يراعى فيها الكفاءة أو بالانتخاب وفقا للمناطق الجغرافية حتى لا يكون للعائلات تأثير فى هذه الانتخابات .

وأوضح الكاتب حلمى ياسين فى مقاله ان سيد مرعى يفضل مبدأ التعيين وأنه يملك النفوذ الذى يتيح له تنفيذ ذلك فى التو واللحظة ويعنى ذلك أن رجال الحكومة سوف يسيطرون على الجمعيات وأشار فى مقاله ايضاً إلى أن مبدأ تعيين أعضاء مجالس ادارة الجمعيات يتناقض مع الدستور .

ويبدو أن هذا الهجوم قد جعل سيد مرعى اكثر حذرا فى خطواته وان عليه أن يتفرس الوجوه من حوله مما يعنى أن شهر العسل فى قطاع الزراعة قد وصل إلى نهايته .

الفصــل الســابع

التقلبـــات السياســـية فـــى السـنـــوات الأخيـــرة لعصـــر عبـــد النـاصـــر

واذا تقلص اليسار فلا نتوقع اختفاءه تماما .. اذ ان ذلك يعنى ان اليسار المصرى مازال موجودا فى مكان ما على الساحة وعندما اعطى عبد الناصر اوامره ليسد مرعى بان يرد للفلاحين اراضيهم التى سلبتها لجنة تصفية الاقطاع قام مرعى بتكليف سعد هجرس باداء هذه المهمة فى سرعة وبهدوء بعيدا عن الصحافة .

ويبدو ان لهذا الموضوع أبعادا لاحدود لها .. فقد قام سامى شرف مدير شبكة المخابرات الخاصة بعبد الناصر وحليف على صبرى باستدعاء سعد هجرس وأمره بوقف عمليات اعادة الاراضى لأصحابها باستثناء بعض حالات قليلة لم تتم فيها إجراءات نزع الملكية بالكامل .

ولم يجد سيد مرعى امامه الا ان يتصل بالرئيس واخبره عبد الناصر انه لم يصدر اليه الاوامر باعادة الاراضى لأصحابها بالكامل ولكنها بعض الحالات فقط مما يدل على انه قد تم ارغام عبد الناصر على التسليم والمصالحة مع جبهة اليسار .

واذا كان عبد الناصر يرضى بالحلول الوسط فإن سيد مرعى لا يسلم بسهولة ولذلك اعطى أوامره لسعد هجرس بتكوين لجنة فنية فى وزارة الاصلاح الزراعى يكون الهدف منها جمع المعلومات عن الحالات التى تم فيها مصادرة الاراضى والتى وصل عددها الى ٣٣٤ حالة مصادرة لعرضها على اللجنة السياسية بالاتحاد الاشتراكى والتى يراسها كمال رفعت .

وقد توصل سعد هجرس الى معلومات على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة لسيد مرعى حيث تعمل على تعزيز موقفه او تجعله مسلحا بالأسانيد والبراهين كما يقولون .

وتبين انه تم مصادرة اراضى ٣٣٤ مالكا منها ٢٥ حالة مصادرة تمت على مدى قانونى الاصلاح الزراعى ١٩٥٢ ـ ١٩٦١ بينما قامت لجنة تصفية الاقطاع وحدها بمصادرة ٣٠٩ حالات لاسباب سياسية محضة وبالرغم من ان هذه المعلومات ترسم

صورة واضحة لما حدث الا ان اللجنة السياسية بالاتحاد الاشتراكى قد رفضت ان تعطى سيد مرعى الضوء الاخضر لاعادة توزيع الاراضى التى تمت مصادرتها إلى اصحابها .

ولكن يبدو ان سيد مرعى قد شعر فى هذه الفترة انه مازال يقف على ارض صلبة وانه ليس فى موقف الضعيف ولذلك امر مساعديه بالاستمرار فى اعادة الاراضى المصادرة لأصحابها وهى عملية استمرت حتى نهاية عصر عبد الناصر بالرغم من عدم وجود ضوء اخضر .

وبالرغم من معارضة رجال الرئيس أمر سيد مرعى مساعديه بالاستمرار فى اعادة الاراضى التى استولت عليها لجنة تصفية الاقطاع لأصحابها لانه يعرف ان الرأى العام يؤازر خطواته .

واكتشف على صبرى وحلفاؤه أن غريمهم مرعى يحكم قبضته على الوزارة وانه يصول ويجول فى حرية وينفذ خططه بإعادة الاراضى ـ التى قاموا بالاستيلاء عليها عن طريق اللجنة ـ لأصحابها .. لذلك بدأوا فى البحث عن وسيلة لعرقلة نشاط سيد مرعى .

وبدلا من معارضة سياسته بخصوص إعادة الاراضى لأصحابها .. بدأوا يبحثون عن أخطاء اخرى له فى قطاع الزراعة طالما ان الرأى العام يسانده فى هذه القضية .

وعقدت اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى جلستها فى ١٢ فبراير عام ١٩٦٩ واتهم الاعضاء سيد مرعى بانحيازه الواضح للإقطاعيين حيث قام بإلغاء عقود ايجار الاراضى قبل إعادتها لأصحابها ـ اى ان أصحابها قد تسلموها خالية رغم انها كانت مؤجرة ـ وانه بذلك قد ألغى الحقوق المشروعة للمستأجرين وهى الحقوق التى أصبحت اكثر اهمية من حقوق الملاك أنفسهم وفقا لقانون الاصلاح الزراعى عام ١٩٥٢ .

وفى محاولة لاحراج سيد مرعى .. أعلن أحد اعضاء اللجنة المركزية انه تم أعادة الاراضى التى سلبتها اللجنة من عائلة الفقى وهى العائلة التى تسببت فى تشكيل اللجنة العليا لتصفية الاقطاع بعد ان قام افرادها بقتل عضو الاتحاد الاشتراكى والتى بعدها بدأت موجة مصادرة أراضى الاقطاع .. ووجهت اللجنة إتهاما آخر لسيد مرعى وهو ان وزارة الاصلاح الزراعى قد قامت ببيع ـ حدائق الفاكهة المملوكة لها ـ لكبار ملاك الاراضى .

وقد دفع سيد مرعى نفسه امام اللجنة المركزية مؤكدا انه لم يقم بإلغاء أى عقود إيجار .. وإنما حصل هؤلاء الملاك على حكم قضائى بطرد هؤلاء المستأجرين من اراضيهم وان وزارته لا شأن لها بذلك .

وقال مرعى : انه تم بيع بعض مساحات من البساتين المملوكة لوزارة الاصلاح الزراعى لخفض النفقات الإدارية خاصة انها مساحات هامشية .

وعلى اى حال كان لهذا الاستجواب تأثير سىء على مكانة سيد مرعى فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وفى مجتمع الصفوة السياسيه مما يؤدى فى الغالب لفقدان النفوذ .

وبدأ هجوم آخر غير مباشر على سيد مرعى من خلال جريدة الجمهورية - وهى الجريدة اليومية التى يسيطر عليها على صبرى - حيث بدأت الجريدة حملة صحفية عن الظروف السياسيه والاجتماعية عن القرية المصرية واختار الصحفيون ١٠ قرى من بينها قرية العزيزية بمحافظة الشرقية وهى مسقط رأس سيد مرعى .

وذكر التحقيق الصحفى الذى نشر على حلقتين فى ١٣ يونيه و ٢٠ يونيه ان منصب العموديه فى العزيزية قد ظل فى ايدى اغنى عائلة فى القرية على مدى ما يزيد على مائة عام وطبعا لم يكن من الصعب على القارىء ان يعرف ان المقصود هما عائلتا مرعى ونصر .

واشار التحقيق الصحفى على صفحات الجمهورية ان الجمعية الزراعية بالعزيزية يسيطر عليها اثنان من افراد العائلة أحدهما يملك ثمانية أفدنة والثانى يملك ما يزيد على ٥٠ فداناً مع ان القانون ينص على الا تتجاوز ملكية عضو مجلس ادارة الجمعية خمسة أفدنة .. مما يعنى ان سيد مرعى قد خرق قانون الاصلاح الزراعى فى قريته .

واصبحت صورة عائلة مرعى انها جزء لا يتجزأ من الاقطاع الذى كان يسيطر على الحياة فى الريف ويتجاهل حقوق الفلاحين .

وكان هناك دليل آخر على انخفاض وتدهور اسهم سيد مرعى ففى التشكيل الوزارى الذى اعلن فى مارس ١٩٦٨ تم اختيار محمد بكر أحمد ليكون وزيرا لاستصلاح الاراضى مما يعنى انكماش نفوذ مرعى ليشمل وزارتى الزراعة والاصلاح الزراعى فقط .. خاصة ان محمد بكر أحمد كان خارج منطقة نفوذ مرعى حيث كان هناك ما يربطه بعبد المحسن ابو النور والمهندسين الزراعيين الذين كانوا يعملون معه بقطاع الزراعة .

وتلقى مرعى ضربة اكثر ضراوة فى وقت لاحق من نفس العام حيث شجعه زملاؤه فى الوزارة عزيز صدقى وحسن عباس زكى على ترشيح نفسه عضوا باللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى .. وهى اللجنة التى تتكون من ثمانية اعضاء وتقوم بادارة شئون الاتحاد الاشتراكى .

ويبدو ان على صبرى وعبد المحسن ابو النور قد قاما بالتخطيط لتربيط العملية الانتخابية بحث تؤدى لهزيمة ساحقة لسيد مرعى - وقد حدث بالفعل - حيث حصل

سيد مرعى على ٣٣ صوتاً بينما حصل على صبرى على ١٢٤ صوتاً وحصل ابو النور على ١٠٤ أصوات ونجح ايضا فى هذه الانتخابات لبيب شقير وضياء الدين داوود وباقى فريق على صبرى .

وبعد ان فقد نفوذه بالاتحاد الاشتراكى وجد امامه اتهاما بالتعاطف مع الاقطاع .. وربما كلفه هذا الاتهام غاليا حيث منعه من ترشيح نفسه فى الانتخابات البرلمانية التى جرت فى يناير ١٩٦٩ .

وربما تتوالى الكوارث مع الجراح الغائرة حيث قام على صبرى بتعيين محمد ابو نصير ـ الذى تربطه صلة قرابة بعائلة مرعى وتسبب فى الاطاحة بحسن مرعى شقيق سيد مرعى من وزارة الاقتصاد والصناعة عام ١٩٥٤ ـ وزيرا للعدل فى الحكومة التى شكلت فى مارس عام ١٩٦٨ .

وبدأ ابو نصير منذ اليوم الاول لتوليه الوزارة فى رصد تحركات القضاة والعمل على إزعاجهم .. وادعى لعبد الناصر ان القضاة الذين ينتمون للعهد البائد ـ والذين يرتادون نادى القضاة بصفة منتظمة ـ يتآمرون ضد النظام .. والدليل على ذلك انهم يصدرون الاحكام القضائية لصالح الاغنياء الساخطين على نظام هذا النظام .

وعلى الفور بدأت الشكوك تراود سيد مرعى بأن ابو نصير يريد تبريرا لما سيفعله وهو اجراء حملة تطهير واسعة النطاق للتخلص من القضاة الذين لا يقدمون له فروض الولاء والطاعة .

وذهب سيد مرعى ليوضح وجهة نظره لعبد الناصر بخصوص نادى القضاة .. ومع ذلك استمرت عمليات التطهير مما يعنى ان تأثير سيد مرعى على عبد الناصر لا يوازى ابداً حظوة ونفوذ على صبرى .

ويبدو أن مبدأ عبد الناصر الخاص بتوازن القوى قد اقتضى توجيه دفة الحكم نحو اليسار لصالح على صبرى .. والدليل على ذلك خطاب الرئيس عبد الناصر فى افتتاح المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى فى يوليه عام ١٩٦٩ حيث اعلن عن اصدار قانون جديد للاصلاح الزراعى بتخفيض الحد الاقصى للملكية من مائة فدان الى خمسين فداناً وكان على سيد مرعى بصفته وزيرا للاصلاح الزراعى ان يقوم بتنفيذ قانون عبد الناصر مما يعنى مصادرة ٢٨,٥ الف فدان اخرى .

وربما كان التوازن يعنى الكثير بالنسبة لعبد الناصر حيث اشار فى نفس الخطاب الى ان مبدأ الملكية الخاصة ليس هدفا او مثارا للهجوم .. وان هناك سياسة جديدة بشأن تمليك الاراضى المستصلحة يراعى فيها ان تحقق هذه الاراضى اعلى انتاجيه ممكنة من خلال الافراد والشركات القادرة على استخدام التكنولوجيا المناسبة

لتحقيق هذه الانتاجية .. وان الدولة ـ فى نفس الوقت ـ ستقوم بزراعة مساحات من هذه الاراضى فيما يطلق عليه المزارع الحكومية .

وقامت الحكومة فى إطار سياسة التوازن بإصدار قانون جديد للتعاون .. وسمح هذا القانون بزيادة الحد الاقصى للملكية عضو مجلس ادارة الجمعية الى عشرة افدنة بدلا من خمسة افدنة .. ونص القانون الجديد على ضرورة ان يجيد عضو الجمعية القراءة والكتابة والا يكون مدينا لاى جهة او افراد .

والمؤكد ان هذا القانون يحد من فرص فوز صغار الفلاحين بعضوية مجالس ادارة الجمعيات ـ وعلى حد قول احد المراقبين ـ فإن الفرد الذى يملك عشرة أفدنة فى القرية يعد من الاثرياء وهو بالضرورة وحكم الواقع ينتمى للاقطاع المستغل القديم .. وتتحكم هذه الطبقة فى شئون التعاونيات يعنى حرمان الفلاح البسيط من خدماتها .

وبعد ذلك بشهر واحد بدا واضحا ان دفة الحكم تتجه يمينا حيث قام عبد الناصر بإرغام محمد ابو نصير ـ رجل على صبرى ـ على تقديم استقالته بعد ان ذاع صيت ممارساته غير القانونية ضد القضاة حتى ان بعضهم قد تعرض للاعتقال بجرة قلم من ابو نصير .

وفى بداية شهر سبتمبر استدار عبد الناصر للرفيق على صبرى نفسه حيث فوجىء بحجز حقائبه ومتعلقاته فور عودته من الاتحاد السوفيتى بتهمة الهرب من سداد الرسوم الجمركية ـ اتهام غريب فى حد ذاته ـ وتمت الاطاحة به من وظيفته فى الاتحاد الاشتراكى .

ويبدو ان صحة عبد الناصر قد اخذت فى التدهور حيث بدأت الاوضاع العسكرية تتفاقم فى الجبهة مع اسرائيل كما زاد نفوذ الروس نتيجة للدعم العسكرى المستمر وتدخلهم المباشر فى عمليات حرب الاستنزاف .. مما يعنى تحول مركز الجاذبيه السياسية نحو اليسار بحكم الضرورة ـ وطبعا يعنى هذا ايضا الا يترك على صبرى ـ « مفتاح الاتصال » ـ مع السوفيت « على الرف » .

وفى ٢٦ ابريل عام ١٩٧٠ اعلن عبد الناصر تعيين على صبرى رئيسا للجنة الشئون الخارجية ـ التى تم تأسيسها حديثا ـ بالاتحاد الاشتراكى .. وفى ١٧ مايو اعلنت الصحف ان صبرى سيمثل مصر فى احتفالات الاتحاد السوفيتى بالعيد المئوى لمولد لينين .. وفى ٢٩ يونيه تم تعيين صبرى مستشاراً لشئون الدفاع برتبة عسكرية شرفيه عليا ـ وبالطبع ـ لم تنشر الصحف المصرية شيئا عنها .

وكان على سيد مرعى ان يواجه تهديداً آخر بحكم علاقته الفريدة . بمحمد حسنين هيكل الذى كتب مقالا فى أهرام الجمعة أشار فيه الى ان العلاقة المصرية السوفيتية لم تثمر شيئا ملموسا ولم تحقق الجدوى المتوقعة .. وبدأ هيكل يلمح فى مقاله لمراكز القوى وزوار الفجر .. وهى النقطة السوداء فى تاريخ اليسار .

وعلى أى حال فقد كانت المعارك بين هيكل واليساريين على صفحات جريدتى الاهرام فى جانب والجمهورية ـ التى يسيطر عليها الاتحاد الاشتراكى ـ فى جانب آخر .

وتستمر المعارك بين الجانبين .. ويبدو ان صبر عبد الناصر قد نفد مما يعنى انه سوف يفعل شيئا لوقف حدة المعارك بين الجانبين .. مما يشير الى ان هيكل وأعداءه قد ذهبوا الى ابعد مما يتصورون على حد اعتقاد سيد مرعى نفسه .

وقد صدرت الاوامر باعتقال جمال العطيفى « العقل المفكر » لحسنين هيكل فى الاهرام ولم يتم الافراج عنه الا بعد اسبوع من تولى السادات مقاليد السلطة فى مصر .. وكان العطيفى يقوم بدور الوسيط للمصالحة وايجاد سبل التفاهم بين عبد الناصر وهيكل مما يعنى ان الاحوال بينهما لم تعد على ما يرام .

وفى شهر ابريل عام ١٩٧٠ بدا واضحا ان ايام هيكل الخوالى قد وصلت لنهايتها وانه على شفا حفرة من نار حيث تم اعتقال لطفى الخولى الكاتب بالاهرام ورئيس تحرير مجلة الطليعة اليسارية والسيدة نوال المحلاوى السكرتيرة الخاصة لمحمد حسنين هيكل .

وبعدها بايام أعلنت الصحف انه تم تعيين هيكل وزيرا للاعلام مما يعد ضربة قاضية . وبحلول صيف عام ١٩٧٠ اصبحت الصورة العامة تدعو للحزن حيث عاد على صبرى لممارسة نفوذه بعد الفضيحة التى تعرض لها .. بينما لم يعد هيكل قادراً على حماية سكرتيرته الخاصة وبعد ان كان ملكا متوجا على الاهرام اصبح يشغل وظيفة وزاريه متواضعه .

وصدر قرار جمهورى بتعيين انور السادات ـ حليف سيد مرعى ـ نائبا لرئيس الجمهورية ـ وعلى اى حال ـ فقد تم تعيين السادات فى هذه الوظيفة نتيجة لأسباب خاصة وليس نتيجة لقوة شخصيته ـ وبالفعل ـ لم يكن لهذه الوظيفة اى نفوذ طالما ان عبد الناصر على قيد الحياة .

وفى فصل الصيف بدأت الشائعات كفقاعات الصابون فى القاهرة ان هناك قانونا جديدا للاصلاح الزراعى على وشك الصدور وان هذا القانون يحدد الحد الاقصى للملكية الزراعيه بنحو ٢٥ فداناً او حتى اقل من ذلك .. وان الاراضى التى سيتم مصادرتها ستتحول الى اراض حكومية .

وسواء كانت شائعات ام حقائق مجردة فإنها على الاقل تعكس ان اليساريين قد أحكموا قبضتهم على السلطة .

ويتدخل القدر مرة اخرى لتغيير الاوضاع بأسلوب درامى لصالح سيد مرعى ـ طبعا ـ حيث يموت عبد الناصر ويتولى السادات الرئاسة .

الباب الثامن

مدير سياسى ودبلوماسى في عصر السادات

الفصل الأول

دور الوسيط السياسى

ومن المتناقضات ان يكون سيد مرعى مسئولا عن تطبيق سياسات الثورة بشأن الاصلاح الزراعى .. ثم يتولى مسئولية تنفيذ سياسات التحرر الاقتصادى فى فترة حكم السادات .

وقد كان هذا التحول نتيجة تغير النظام وعلاقة مرعى الوثيقة بأنور السادات .. ويرصد المراقبون ظاهرة على جانب كبير من الاهمية فى عصر السادات حيث لم يعد هناك حاجة لأهل الخبرة بعكس ماكان عليه الحال فى فترة حكم عبد الناصر .

وعلى اى حال فقد تميز عصر عبد الناصر بجهود التنمية فى جميع المجالات فأصبح سيد مرعى معروفا على سبيل المثال بأنه الاب الشرعى للاصلاح الزراعى واشتهر عزيز صدقى بانه رجل الالف مصنع وظلت هذه الالقاب والصفات ملازمة لاصحابها حتى نهاية عصر السادات مما يوحى ان عصر السادات لم يضف جديدا لرصيد هؤلاء الرجال .

ويسجل التاريخ انه لم تكن هناك مشروعات تنمية ضخمة تذكر فى عصر السادات وبالتالى لم يعد هناك حاجة لاهل الخبرة او أهل العلم فى قائمة رجال الحكومة .. اى انه لم يعد امام اهل الخبرة فرصة على مدى عصر السادات لتكوين امبراطوريات او مراكز قوى او بناء شهرة جديدة كما كان الحال فى الايام الخوالى او عصر عبد الناصر .

ويمكن اعتبار نظام الرئيس السادات بانه كان نظاما مدنيا وليس عسكريا كما لم يكن له ثقل كسلفه وربما كان ذلك سببا للحذر حتى ان اصحاب الطموح السياسى من امثال عزيز صدقى ومحمد حسنين هيكل قد اصبحوا يشكلون تهديدا على الرئيس السادات حيث لم يعد الجيش يهيمن على النظام كما كان الحال ايام عبد الناصر وبالتالى فانه لاداعى لترك الحبل على الغارب لأهل الخبرة من السياسيين السابقين .

ويشير المؤرخون الى نمو القطاع الخاص على حساب القطاع العام مما أدى لفقد القطاع العام الكثير عن مميزاته وجاذبيته فى عصر السادات فأصبح اصحاب الطموح السياسى يلهثون للانضمام للاحزاب السياسية لتحقيق مصالحهم السياسية ويمارسون الاعمال الحرة لتحقيق مصالحهم الاقتصادية .

وبينما كانت هناك كلمات لا يسمح باستخدامها فى عصر عبد الناصر مثل كلمة « سياسة » او سياسات حيث كانت من الكلمات القذرة والتى لها صلة بالفساد فى العهد البائد .. وكان يستخدم بدلا منها كلمة ادارة ولكن عادت كلمة سياسة لتستخدم فى عصر السادات مما يعكس حاجة السادات لوزراء سياسيين اكثر من حاجته لوزراء من اهل الخبرة .

وقد كان السادات يعتمد على سيد مرعى بصفته خبيرا سياسيا ولكن دوره كان يختلف دائما عن دور أمثاله من السياسيين فى ذلك الوقت كممدوح سالم وفكرى مكرم عبيد ومصطفى كامل مراد ومحمود ابو وافيه حيث كان سيد مرعى اكثر استقلالا فى اداء دوره نظرا لعلاقته الفريدة بالسادات .

والجدير بالذكر ان انور السادات كان قد التقى بسيد مرعى للمرة الاولى فى بيت الكاتب الشهير إحسان عبد القدوس عام ١٩٥٢ وتوثقت العلاقات بينهما خلال عملهما معا بالاتحاد الاشتراكى فى منتصف الستينيات وبالطبع زادت قوة فى صيف ١٩٧٥ بزواج « حسن » نجل سيد مرعى من « نهى » ابنة السادات .

وعلى اى حال فقد لمس السادات على مر السنوات مدى ولاء سيد مرعى لسلفه عبد الناصر مما جعله يطمئن اليه ويعطيه قدرا اكبر من الحرية السياسية من التى يعطيها لاى فرد آخر من اعضاء حاشيته .

ويتميز سيد مرعى بأنه يستطيع ان يبتعد فى بعض الاحيان عن السياسات الرسمية وبقدرته على الاتصالات الشخصية مما جعله اكثر قدره من غيره على القيام بدور « الوسيط » بين السادات والعديد من الاشخاص او بين السادات وقيادات احزاب المعارضة .

وقد أصبح دور سيد مرعى « كوسيط سياسى » حيويا وعلى درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة للسادات خاصة فيما يتعلق بتنفيذ الحملة التى تبناها منذ بداية عصره لتحرير السياسات المصرية .. ولذلك اخذت اسهم سيد مرعى تعلو وتهبط وفقا لارتفاع وانخفاض اسهم سياسات التحرر الاقتصادى والسياسى على مدى عصر السادات .

وعندما بدأ السادات فى تنفيذ سياسته بشأن النشاط السياسى وتعدد الاحزاب قام على الفور بتعيين سيد مرعى لادارة النشاط السياسى وحين تعدى هذا النشاط الحدود التى سمح بها الرئيس تم استبدال سيد مرعى بسياسى آخر صلب لا يلين وهو « ممدوح سالم » الذى كانت مهمته إرهاب أعضاء المجلس وليس العمل كوسيط بينهم كما كان يفعل سيد مرعى .

الفصل الثانى

فى أعقاب
موت عبد الناصر
السادات .. أم على صبرى

وعندما قام السادات بحملة تطهير ضد على صبرى وشعراوى جمعة وزير الداخلية وسامى شرف مدير مخابرات رئاسة الجمهورية وحلفائهم لم يكن احد يتوقع من الذى سيكسب الجولة حتى مايو ١٩٧١ .

فقد كان النظام الهش للخليفة الجديد وشراسة المنافسين توحى للوهلة الاولى ان السادات سوف يطرح أرضا أو يلقى هزيمة ساحقة حيث كان السادات معروفا فى ذلك الوقت بأنه « الكولونيل » الذى لا يعارض أبدا وذلك من واقع تسليمه بكل الآراء التى يطرحها عبد الناصر .

وعندما احتدم الصراع بين الجانبين فى بداية عام ١٩٧١ بدأت الشائعات تسرى كفقاقيع الهواء حول قائمة اسماء المتآمرين للإطاحة بالرئيس .

وكانت إحدى هذه الشائعات تؤكد ان المهندس سيد مرعى نائب رئيس الوزراء وزير الزراعة واستصلاح الاراضى والاصلاح الزراعى قد قرر الانحياز لطابور على صبرى .

وكان على صبرى وقتها يتحكم بطريق مباشر او غير مباشر فى الاتحاد الاشتراكى وأجهزة الاعلام ومخابرات رئاسة الجمهورية ووزارة الداخلية وكانت له اليد العليا على الجيش من خلال الفريق محمد فوزى وزير الدفاع .

ولكن فى منتصف شهر مايو بالضبط بدا واضحا ان سيد مرعى يقف فى معسكر السادات مع ان الشائعات تؤكد انه قد انضم للسادات بعد ان تأكد بما لايدع مجالا للشك ان على صبرى قد لقى هزيمة ساحقة .

ففى ٢٩ ابريل عام ١٩٧١ إتصل سيد مرعى بالرئيس السادات تليفونيا وأبلغه انه سيتولى تأمين موافقة أعضاء مجلس الشعب على قرار الوحدة بين مصر وليبيا وانه لاداعى لحضوره اى السادات لتأمين موافقة المجلس على هذا القرار .

وكان سيد مرعى يتحدث تليفونيا ومعه شعراوى جمعة وسامى شرف ولبيب شقير الذى كان يشغل منصب رئيس مجلس الشعب وتم اعتقاله بعد ذلك بتهمة التآمر .

ومهما كانت الاسباب التى جعلت شقير وجمعة وشرف ومعهم مرعى يعملون على إبعاد السادات عن المجلس فإن الامر محير والأسباب غير منطقية فمن الغريب ان يعمل سيد مرعى جنبا الى جنب مع رجال على صبرى فى نفس الوقت الذى يتلفت فيه السادات حوله بحثا عن مؤيدين .

بعد ذلك اقدم سيد مرعى على تصرف آخر غير مألوف وغير مفهوم حيث شرح للسادات ما سبق ان نصح به عبد الناصر فى ربيع عام ١٩٥٤ وهو ان يقوم السادات بزيارة لاحدى مناطق استصلاح الاراضى ويلقى خطابا امام جمهور غفير من الفلاحين لرفع اسهم شعبيته وقد وافق السادات على هذا الاقتراح .

وسافر مرعى للبحيرة للإعداد لترتيبات الزيارة وبعد ذلك بفترة قرر ان ترتيبات زيارة الرئيس ليست على مايرام وانه يرى تأجيلها ولكنه لم يبلغ الرئيس السادات بذلك بل سافر لشقته بالاسكندرية وقام برفع سماعة التليفون واستغرق فى نوم عميق واستيقظ من نومه فى مساء نفس اليوم يوم ١٣ مايو ووضع سماعة التليفون مكانها .

وبمجرد وضع السماعة دق جرس التليفون وفوجىء سيد مرعى بصوت السادات يطلب منه العودة للقاهرة فورا علما بانه فى نفس هذا الوقت كان قد امر بالقبض على منافسيه وبعد ذلك بنحو ثلاث ساعات كانت الأزمة قد وصلت لنهايتها واصبح سيد مرعى فى معسكر السادات .

والمؤكد ان هناك تساؤلات تطرحها القصة السابقة وأول علامات الاستفهام هى هل تحقق زيارة منطقة استصلاح الاراضى الشعبية للسادات علما بأن مشروعات الاستصلاح قد فقدت هى نفسها الشعبية فى السبعينيات ولم تعد بنفس بريق الخمسينيات ؟ .

ان المعركة بين السادات ومنافسيه كانت صراعا بين رجال الصفوة السياسية ولذلك كان لابد من حسم هذا الصراع داخل مجتمع الصفوة او بين الأقوياء وليس بزيارة للبحث عن الشعبية فى البحيرة .

وربما كان ذلك محاولة لإبعاد السادات عن القاهرة وعلى أى حال فقد تأكد سيد مرعى بنفسه ان الترتيبات ليست على مايرام ثم قام بتأجيل الزيارة دون ابلاغ السادات بذلك وبعد ذلك سافر للاسكندرية وقطع خطوط الاتصال بينه وبين القاهرة فى الوقت الحرج مما يعنى انه قد قرر ان يكون بعيدا عن هذا الصراع فى وقت الذروة

والانحياز لاى من الجانبين اى ان هذا الموقف يتميز بالغموض خاصة ان سيد مرعى لم يستطع ان يفسر موقفه ، ان التفسير الوحيد هو انه كان فى هذه الفترة يتلمس خريطة لتأمين مستقبلهُ السياسى فى ظل رئيس جديد .

وعلى اى حال فقد أدى سيد مرعى دوره بإتقان خلال ثورة التصحيح فى مايو ١٩٧١ ونجح فى الخروج منها بكامل هندامه ولم يفقد فيها مكانته وشهرته .

ويبدو انه كان يضع أمامه هدفا لا يدير عينيه عنه وهو منصب رئيس الوزراء والواضح ان العقبة الوحيدة لتحقيق هذا الهدف هو صديق الشلة عزيز صدقى الذى كان وزيرا للصناعة وله كثير من المريدين والانصار بمجلس الوزراء .

وقد كان هناك من يزاحمهما على هذا المنصب وهو محمود فوزى واستطاع بالفعل ان يفوز فى لعبة الكراسى الموسيقية .

واعترافا بنفوذ وثقل عزيز صدقى قام محمود فوزى بترقية وزير الصناعة الطموح لمنصب نائب رئيس الوزراء ورئيسا للجنة الاقتصادية بمجلس الوزراء وذلك اثناء سفر سيد مرعى فى مهمة بالخارج .

وفوجىء سيد مرعى عند عودته بترقية غريمه فقدم استقالته على الفور فلم يجد محمود فوزى مفرا من تهديد سيد مرعى بأنه سيقدم هو الآخر استقالته وأنه سوف يعلن ان انهيار الحكومة يرجع لغيرة سيد مرعى من عزيز صدقى .

ولم يجد سيد مرعى بدا من التراجع ولكن بعد التوصل الى حل يرضى جميع الاطراف ووافق فوزى عليه وهو تقسيم الوزراء الى مجموعتين إحداهما يرأسها صدقى وهى اللجنة الاقتصادية والاخرى يرأسها مرعى وهى اللجنة الزراعية وتضم وزراء الزراعة والرى والتموين والاصلاح الزراعى واستصلاح الاراضى لكن الاحداث تؤكد ان ذلك لم يكن الا حلا مؤقتا .

واكتشف فوزى ان الصراع بين نائبيه يزداد ضراوة يوما بعد يوم حتى انه بات يخشى الزلزال الذى سيطيح بحكومته خاصة ان الشوارع قد بدأت تزدحم بالطلبة والعمال المتظاهرين بعد ان مر عام الحسم وهو عام ١٩٧١ كما اعلن الرئيس السادات دون ان يفعل اى شىء .. مع الوضع فى الاعتبار ان الرئيس السادات قد اخطأ حين أعلن ذلك .

راب الصدع

وعلى اى حال فلم يكن السادات وقتها قادرا على اتخاذ اى قرار عسكرى ضد اسرائيل .

ولم يجد السادات امامه فى ظل هذه الظروف الا العمل على رأب الصدع داخل الحكومة التى يتنازعها غريمان من الاقوياء فقام على الفور بسحب سيد مرعى من الحكومة .

وفى يناير عام ١٩٧٢ تم انتخاب سيد مرعى امينا عاما للاتحاد الاشتراكى بينما تم تكليف عزيز صدقى بتشكيل الحكومة الجديدة .

وبالطبع كان ذلك انتصارا لصدقى على سيد مرعى ولكنه كان فى نفس الوقت انتعاشا للاتحاد الاشتراكى الذى كان نشاطه شبه مجمد منذ شهر مايو ١٩٧١ حيث كان الموقف فى بداية عصر السادات يتطلب ذلك للسيطرة على السلطه بإحكام .

وكان السادات يعرف ان السوفيت تراودهم الشكوك حول سياساته بعد حملة التطهير التى قام بها ضد رجلهم على صبرى ومجموعته بينما كان فى نفس الوقت فى حاجة لمساعداتهم العسكرية وقام السادات بحساباته واكتشف ان تعيين سيد مرعى ذى الميول الغربية رئيسا للوزراء سوف يزيد الامر سوءا ووجد ان عزيز صدقى هو الاختيار الافضل حيث كانت له اتصالات مكثفة بالروس عندما كان وزيرا للصناعة .

وأقدم السادات على هذا الاختيار رغم انه يعرف جيدا ان هناك صداقة تربط بين صدقى ومحمد حسنين هيكل الذى لايثق به السوفيت وعلى اى حال فقد كان الكثيرون يعتبرون « صدقى » أحد الخبراء اليساريين . .

ومن ناحية اخرى حرص السادات على ان يتولى سيد مرعى رئاسة الاتحاد الاشتراكى حتى لايقع فى أيدى احد اليساريين خوفا من ان يقوم بإحياء نشاط هذا التنظيم وتحويله الى جبهة تعمل على تهديد كرسى الرئيس .

الفصل الثالث

إعادة بناء
الاتحاد الاشتراكى

كان السادات فى اشد الحاجة لجهاز يمتص الصدمات لحماية السلطة من غضب الطلبة والعمال ولذلك كان سيد مرعى هو الاختيار الافضل فى الاتحاد الاشتراكى حيث انه طموح وموهوب ولذلك سوف يحرص على عدم ترك هذا التنظيم جثة هامدة .

وكان السادات يعرف ايضا ان سيد مرعى سيعمل من خلال الاتحاد الاشتراكى على تقويض نفوذ صدقى رئيس الوزراء وربما كان ذلك نوعا ما من توازن القوى .

وفى اجتماع احدى لجان الاتحاد الاشتراكى التابعة للجنة المركزية فى ٢٠ مارس عام ١٩٧٢ اكد سيد مرعى انه لايسعى لاجراء إصلاحات بالاتحاد الاشتراكى وقال انه قد عقد ٤٥ اجتماعا مع ممثلى مختلف النقابات المهنية الذين طالبوا بضرورة اجراء هذه الاصلاحات واذا كانت هذه الاصلاحات تتم فى الماضى نتيجة لمبادرة الحكومة فاليوم تطالب جموع الشعب بهذه الاصلاحات اى ان المبادرة اصبحت شعبية .

لقد كانت المهمة الأولى لسيد مرعى تخفيف حدة الموقف المتوتر بمحاولة ارضاء العمال والمهنيين فى اتحاداتهم ونقاباتهم خاصة ان الطلبة قاموا بالتظاهر فور اعلان تعيينه رئيسا للاتحاد الاشتراكى منددين . بان هذا التنظيم قد اصبح فى قبضة اقطاعى ورأسمالى وقاموا بالهتاف ضده .

والجدير بالذكر ان النظام الحاكم قد حرص على الدفاع عن سيد مرعى وقتها لتهدئة الموقف بتركيز الانتباه على دور سيد مرعى الحيوى فى الاصلاح الزراعى مع التاكيد ايضا على انه كان دائما يولى اهتماما خاصا لمشاكل الفلاحين وهم الاغلبية العظمى من الشعب المصرى .

وعلى اى حال كان الطلبة فى الشارع المصرى الذين ينتظرون عام الحسم بفروغ الصبر لايثقون بسيد مرعى بنفس الدرجة التى لايثقون فيها فى السادات .

وبعد تعيين مرعى رئيسا للاتحاد الاشتراكى بيومين فقط ذكر فى اجتماع اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى انه لابد من تحويل الاتحاد الاشتراكى الى منبر حقيقى تعرض من خلاله مختلف الآراء والاتجاهات للقوى الشعبية والتى تضم العمال والفلاحين والرأسمالية الوطنية والمثقفين والجنود .

ويعنى هذا الكلام ان الامور كما هى وان الاتحاد الاشتراكى سيظل التنظيم السياسى الوحيد انه لن يسمح بمعارضة رسمية خارج قبة هذا التنظيم وعلى اى حال فقد كان هذا التوضيح على جانب كبير من الاهمية حتى لاتذهب هذه الاصلاحات الى أبعد مما يخطط له المسئولون اى ان تكون الاصلاحات فى حيز محدود .
وقد كان على اللجنة المركزية ان تعقد اجتماعات مع طلاب الجامعة وممثلى الاتحادات والنقابات والتنظيمات الشعبية الاخرى لمناقشة دور كل مواطن ومسئوليته فى المعركة .

وكانت المهمة الاولى الملقاة على عاتق سيد مرعى ان يعمل على إبرام اتفاقية سلام مع طلاب الجامعة وفى ١٩ يناير قرر ان يقتحم عرين الاسد بزيارة كلية هندسة القاهرة التى تضم اكثر الطلاب نشاطا وقد استمر اللقاء على مدى ثلاث ساعات واستغل سيد مرعى هذه المناسبة لتوجيه ضربة لصدقى فأشار فى حديثه الى ان المسئولين فى الحكومة عليهم ان يحرصوا على جموع الشعب ومحاولة الاجابة عن تساؤلاتهم واستفساراتهم وان من حق الشباب ان يسأل وعلى المسئولين ان يجيبوا .
واضاف ان القيادة السياسية حريصة على اعطاء كل الثقة للشباب حتى بعد ان ثبت ان هناك انحرافاً فى الممارسة والتعبير عن الطريق الصحيح الذى يجب ان يسلكونه .
وقال فى اجتماعه بالطلبة انه سيتم اعادة تنظيم منظمة الشباب التى كانت تستخدم سابقا كضباط شرطة فى اى انشطة طلابية .
وبالرغم من ان مظاهرات الطلاب قد توقفت فإن إجراء إصلاحات بالاتحاد الاشتراكى يظل ضرورة بالرغم من ان السادات لم يكن مستعدا بعد للمغامرة بتبنى نظام سياسى جديد خاصة انه لم يتمكن بعد من الوصول لمرحلة الشهرة الشخصية كرئيس جمهورية كما كانت تشغله الشئون الخارجية كثيرا .

وفى ٢٢ فبراير اعلن سيد مرعى ان المرحلة الاولى للاصلاح قد اكتملت وانه ينوى وفقا لاستطلاع الآراء تكوين لجنة عمل تتكون من ٢٠ عضوا تشمل خمسة من اعضاء المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى وخمسة من اعضاء اللجنة المركزية وعشرة من الشخصيات العامة الهامة .

واكد انه سيتم السماح لذوى النشاط السياسى من خارج الاتحاد الاشتراكى بالمشاركة فى عملية الاصلاح وقد كان يعنى ذلك الا يتحكم قبضايات الاتحاد الاشتراكى فى عملية الاصلاح والذين كانوا يساورهم القلق حول مصير هذا التنظيم .

ولكى يشعر اليساريون بأنهم شركاء فى مسئولية الاصلاحات قام مرعى بتعيين خالد محيى الدين ولطفى الخولى عضوين بهذه اللجنة وقد تم تعيين الخولى عضوا باللجنة لأن له تاثيرا على طبقة المنتفعين كما انه رئيس لتحرير مجلة الطليعة ذات الميول اليسارية ولاشك ان دعم هذه المجلة سوف يساهم فى نجاح جهود الاصلاح .

وقد وافق لطفى الخولى على بنود خطة الاصلاح وبدأ يعمل خلال الربيع وبداية فصل الصيف جنبا الى جنب مع سيد مرعى على توضيح هذه البنود وتفنيدها لاقناع المتشككين بأهميتها وبدأت المجلة شرحا تحليليا لأعمال اللجنة عل مدى شهور مايو ويونيه ويوليه .

وبالرغم من ان الكاتب ميشيل كامل يتبع خط خالد محيى الدين الا انه طالب بتأسيس نواد سياسية لضمان حرية الشعب فى التعبير من خلال الاتحاد الاشتراكى .

واشار الكاتب محمد عجلان الى ان لجنة العمل عليها ان تجوب انحاء الريف للتلاحم من الجماهير .

ويمكن القول إن استقبال مجلة الطليعة لعملية الاصلاح البرلمانية كان مشجعا وربما بالغت فى اهتمامها الى حد مابعملية الاصلاح مؤكدة ان اللجنة تقوم بعمل جاد يستحق اهتمام المثقفين وذوى الميول السياسية وعلى اى حال فقد تحقق هدف سيد مرعى وهو تحويل الانظار للاتحاد الاشتراكى ووضع حد للممارسات السياسية من خلال قنوات اخرى وبذلك كانت التغطية الصحفية التى قامت بها مجلة الطليعة نصرا محققاله .

وخلال عملية الاصلاح كان على سيد مرعى ان يلعب لعبة القط والفأر مع اعضاء الاتحاد الاشتراكى الذين كانوا يساورهم الشكوك بشأنه وتضاعفت هذه الشكوك عندما استعان بأفراد من خارج المجلس لمساعدته فى عملية الاصلاح .

وفى الاجتماع الاول الذى ضم اعضاء الاتحاد الاشتراكى واعضاء لجنة العمل قال سيد مرعى انه سيتم اعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكى ولا يعنى ذلك أنه سيتم اعادة الانتخابات ولكنه تغيير فى أسلوب نشاط التنظيم وان فشل الاتحاد الاشتراكى فى الوفاء باحتياجات المواطنين وتحقيق مطالبهم لايشكل إدانة لكل من عملوا بالاتحاد الاشتراكى فى الفترة السابقة حيث أن هؤلاء الأعضاء قد ساهموا فى بناء ركائز الاتحاد الاشتراكى .

وكان سيد مرعى ينتهز فرصة لقاءاته مع اساتذة الجامعات والعمال لشن هجومه على الاتحاد الاشتراكى فى عصر عبد الناصر حتى يحوله لتنظيم مهلهل تنتشر فيه الثقوب .

وفى حوار اجراه معه الصحفى فهمى هويدى على صفحات جريدة الاهرام اشار سيد مرعى الى الكم الهائل من سلبيات الاتحاد الاشتراكى فى المرحلة السابقة وقد عقب هويدى على ذلك مؤكدا ان ٢٥٪ فقط من هذه السلبيات يمكن ان تحول اى تنظيم سياسى الى جثة بلا حراك .

وقام سيد مرعى فى شهر مارس بعرض مشروع لإصلاح وتطوير الاتحاد الاشتراكى وفى بداية هذا المشروع ذكر فى تقريره ان نشاط الاتحاد الاشتراكى قد اتسم بالبيروقراطية وغياب الديمقراطية ووضع المصالح الشخصية كأولويات دائما .. وعدم الاستجابة للأحداث والمواقف وغياب البرنامج وعدم وجود صلة تربط نشاطه بباقى التنظيمات كالنقابات واتهم رجال الاتحاد الاشتراكى بإخفاء الحقائق عن الشعب وخداع الجماهير بآمال وطموحات خيالية وغير حقيقية وأوضح فى تقريره ان الاتحاد الاشتراكى قد اخذ على عاتقه مسئولية العمل على تبرير قرارات السلطة التنفيذية او الحكومة فأصبح بذلك يتحمل مسئولية قرارات لم يشارك فى اتخاذها اى الا ان الاتحاد الاشتراكى كان يتظاهر فقط او يتخيل بهذه الطريقة انه يشارك فى عملية اتخاذ القرار رغم ان الحقيقة غير ذلك تماما .

وكانت هذه النقطة الاخيرة هى محور الصراع بين مرعى وصدقى رئيس الوزراء حيث استمرت المناوشات بينهما وبعد نحو عام احتدمت الازمة وكادت تؤدى لانهيار حكومة صدقى والاطاحة بسيد مرعى من مقعده على قمة الاتحاد الاشتراكى .

وعلى اى حال فقد كان سيد مرعى يشن هجومه على عزيز صدقى وينتقد قراراته من خلال الاتحاد الاشتراكى ولكنه كان فى نفس الوقت حريصا على عدم تدمير الاتحاد الاشتراكى او إحلاله بتنظيم جديد يسمح فيه بالمعارضة الرسمية او حتى شبه الرسمية او ان يحدث فيه مايحدث فى النقابات والنوادى السياسية والاحزاب التى تعمل خارج اطار الاتحاد الاشتراكى .

ويبدو ان الامور لاتسير وفقا لما يعتقد البعض ففى اجتماع مشترك بين لجنة العمل مع مجموعة الشئون السياسية وهى احدى مجموعات اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى اقترح البعض تعديل الدستور فرد سيد مرعى بأنه سيتم إفساح المجال فى هذه المرحلة لآراء المثقفين للنظر فى ذلك .

وسئل مرعى فى اجتماع لاحق هل هناك اتجاه لاجراء اصلاحات فى الاتحاد الاشتراكى كتنظيم من حيث الشكل وأسلوب العمل ؟ فأجاب بأنه ليس هناك اتجاه بذلك .

وفى لقائه مع المثقفين فى ٢٩ مارس رفض سيد مرعى اقتراح الكاتب التاريخى اليسارى محمد انيس بان يشارك المواطنون بأرائهم فى تطوير الاتحاد الاشتراكى .

ويبدو ان الاسئلة قد توالت عليه فى اجتماعه مع المثقفين لذلك شرع فى وضع ضوابط للمناقشات فى اللقاءات التالية حتى لايفاجأ بماليس فى الحسبان .

وفى لقائه مع الفنانين والكتاب اشار الى ان اى محاولة لاصلاح الاتحاد الاشتراكى يجب ان تتم من خلال اطار عمل يراعى فيه مانص عليه الدستور وبيان ٣٠ مارس والقوانين والتشريعات .

وأوضح سيد مرعى انه أخفق فى إيضاح هذه النقطة فى لقائه مع المثقفين ولذلك خرجت المناقشات عن مسارها حتى ان بعض المثقفين قد طالبوا بتعديل الدستور وبيان ٣٠ مارس واشاروا الى ضرورة وضع تعريفات جديدة لقوى الشعب العاملة ولكن مرعى عبر عن اعتقاده بعدم وجود اخطاء فى هذه المصادر تبرر تعديلها .

وقد تطور النقاش فى اجتماعه مع الفنانين والكتاب ..

وسأل بعض الكتاب المرموقين ومنهم نجيب محفوظ عن كيفية ايجاد حل للتناقضات السياسية فى الاتحاد الاشتراكى فأجاب مرعى موضحا الحدود المسموح بها فى اصلاح الاتحاد الاشتراكى ووجه سؤالا للكاتب هو : هل تعتقد ان هذه التناقضات أساسية حتى يصل بها الامر لعدم القدرة على التعايش فى ظل التحالف الحالى ؟

وقال مرعى إننى لا أرى سببا يمنع تعدد الاراء تحت عباءة الاتحاد الاشتراكى ولا اعتقد اننا نحتاج لتقسيم هذه الآراء الى احزاب صغيرة واذا كان بعض المثقفين يطالبون بتأسيس احزاب سياسية فلا اعتقد ان ذلك حلا واقعيا للمشكلة .

وفى اجتماعه بلجنة النقابات المهنية بالاتحاد الاشتراكى احتدم النقاش بينه وبين عبد الخالق الشناوى عضو اللجنة فأوضح مرعى مفهومه بشأن النشاط السياسى خارج حدود قبة الاتحاد الاشتراكى واشار الشناوى الى ان المهندسين فى العهد البائد كانوا يعارضون مشروعات تمت الموافقة عليها فى البرلمان فرد سيد مرعى بان وجود المعارضة والاحزاب السياسية فى هذه الفترة هو الذى ادى لتأخير تنفيذ مشروع سد أسوان .

ومن خلال الحوار مع مختلف اللجان والمجموعات بالاتحاد الاشتراكى حرص سيد مرعى على الا يخرج عن شعوره او يفقد اعصابه نتيجة لمحاولات الاستفزاز وكأن هناك رسالة يود ان تصل لأصحابها وهى ان الاتحاد الاشتراكى فى ظل قيادته الحكيمة سيكون اكثر استجابة لاحتياجات ومطالب الجماهير نتيجة لحرية التعبير لكن المحظور هو النشاط السياسى خارج القبة .

ولتحقيق هدف حرية الرأى والتعبير كان لابد من اجراء اصلاحات تنظيمية ولذلك قدم سيد مرعى تقريرا يوم ٢ يونيه بشأن تطوير العمل بالاتحاد الاشتراكى ذكر فيه التنظيم الجديد للرأسمالية الوطنية والصناعات الصغيرة والشئون الاقتصادية والخدمات واضاف الى ذلك مجلس اعلى للشباب تحت إشراف وزير دولة للشباب مع اعادة تنظيم العلاقة بين النقابات واللجنة المركزية

وقد اوصى فى تقريره بضرورة تأسيس منبر تحت قبة الاتحاد الاشتراكى حتى تتمكن كل قوة شعبية فى التحالف من التعبير عن ارائها واتجاهاتها .

وكان ذلك يعنى خلق تنظيم سياسى يشبه النوادى السياسية وهى الفترة التى سبق ان نادى بها خالد محيى الدين وأخرون وان هذه النوادى السياسية ليست الا تمهيدا لتكوين معارضة رسمية شرعية .

ولكن يحدث فى بعض الاحيان مالم يكن فى الحسبان وبعد ان عبر سيد مرعى عن أماله فى التقرير الذى اعده فى شهر يونيه .. تحطمت هذه الآمال تماما بعد شهر واحد تقريبا حيث قام السادات بإلقائها فى سلة المهملات .

وافصح الرئيس السادات فى خطابه امام اللجنة المركزية عن عزمه طرد الخبراء العسكريين السوفيت من مصر وكان ذلك فى يوم ١٨ يوليه وأعلن فى نفس الخطاب عن افساح الطريق للضربة العسكرية وضرورة تأجيل تجارب الديمقراطية والعمل على دعم الجبهة الداخلية للمعركة القادمة .

وفى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى الذى عقد بعد أسبوع واحد من خطاب الرئيس وبدلا من مناقشة أساليب إعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكى قام مرعى بتركيز اعمال المؤتمر لمناقشة أبعاد قضية الوحدة الوطنية وتجاهلت توصيات المؤتمر ترتيبات ولقاءات على مدى شهور كاملة خاصة بتطوير الاتحاد الاشتراكى .

والمؤكد أن التقرير النهائى الذى صدر عن المؤتمر القومى العام قد تأثر بقدر الحرية الضئيل المتاح فى النصف الأول من عام ١٩٧١ وخاصة أن السادات كان قد أصدر القانون رقم ٣٤ وهو القرار الجمهورى الخاص بالوحدة الوطنية فى ١٥ اغسطس والذى عرف فيه الاتحاد الاشتراكى بأنه التنظيم السياسى الوحيد الذى يعبر عن قوى الشعب العاملة وقد حظر هذا القانون تأسيس أى تنظيمات سياسية خارج الاتحاد الاشتراكى مما يرسم خط النهاية للمناقشات الجادة الواسعة بشأن تطوير الاتحاد الاشتراكى وتوسيع مجال المشاركة السياسية .

وبالرغم من الاحباط فإن سيد مرعى يرى أنه قد حقق بعض الانجازات فى النصف الاول من عام ١٩٧١ كأمين عام للاتحاد الاشتراكى حيث ساعد على تهدئة المناخ السياسى والعمل على احتواء حالة العصبية السياسية لكن من المؤكد أنه غير

راض عن الجهود التى بذلها لترميم الاتحاد الاشتراكى والتى لم تكن إلا وسيلة من وسائل النظام الحاكم لكسب الوقت ولم تثمر أى شىء .

وقد استطاع السادات باقتدار ان يحول بؤرة الاهتمام من الجبهة الداخلية الى الجبهة مع إسرائيل وأصبح دور الاتحاد الاشتراكى أن يساير رغبات الرئيس وهو تهيئة المناخ للمعركة وليس الحرية السياسية والراى والراى الآخر .

ولاشك أن سيد مرعى يتميز بأنه رجل عملى وواقعى ولذلك كان حريصاً على أن يقود سيارته بسرعة ١٥٠ كيلو مترا خلف سيارة الرئيس وبعد شهر يوليه أصبحت كل تصريحاته تتعلق بالسياسة الخارجية ودور الاتحاد الاشتراكى فى دعم الجبهة الداخلية وبدأ فى إرسال وفود تضم اعضاء منظمة الشباب والنقابات والاتحاد الاشتراكى لدول أوربا وآسيا وأمريكا الشمالية لكسب تأييد دول العالم للقضية المصرية .

ومن خلال مؤتمرات الاتحاد الاشتراكى فى المحافظات حرص سيد مرعى على أن يركز فى كلماته على الشئون الخارجية والمواجهة مع اسرائيل أكثر من القضايا الداخلية .

ونشرت جريدة الجمهورية حوارا معه فى ١٠ يناير عام ١٩٧٣ وكان السؤال الموجه اليه هو لماذا يتجاهل الاتحاد الاشتراكى المشاكل القومية مثل تحديد النسل ومحو الأمية ؟ .

ورد سيد مرعى على هذا السؤال مؤكدا أنه من واقع مؤتمرات الشباب والعمال والمثقفين فإن محو الامية ليس من الاولويات فى هذه المرحلة .

واشار إلى أنه لو تبين أن محو الامية أو تحديد النسل من الأولويات فإنه من المؤكد ان الاتحاد الاشتراكى قد أخفق فى تحديد الاولويات وذلك بالطبع غير صحيح لان ما يشغل الناس الآن هو تحرير الارض المحتلة على مدى ست سنوات كاملة .

وقال لمحرر الجمهورية إن علينا أن نحرر أراضينا سواء كان شعبنا أميا أم لا ولن يشغلنا أن الشعب المصرى لا يحدد النسل فى هذه المرحلة وهذا لا يعنى أننا سوف نتجاهل قضايا الأمية وتحديد النسل ولكن لن نعتبرها من الاولويات .

ومع انكماش دوره كأمين عام للاتحاد الاشتراكى وفقا لما تقتضيه الاحداث والأولويات المصرية غادر سيد مرعى القاهرة فى ٨ يناير عام ١٩٧٣ لمدة اسبوعين للحج ..

وعندما عاد للقاهرة لم يدل بتصريحات تذكر عن الشئون الخارجية أو دور الاتحاد الاشتراكى حيث أصبح الصراع بينه وبين عزيز صدقى يستهلك كل وقته ورغم أنه كان صراعا من خلف الكواليس إلا انه أصبح من سمات السياسات المصرية وما يحدث بالأمس يتكرر غداً .

الفصـل الـرابع

مرعـــى ضـــد صـــدقى

وترجع علاقة سيد مرعى بالدكتور عزيز صدقى إلى أيام الدراسة بجامعة القاهرة .. وقد تقاربت العلاقة بينهما أكثر عقب تعيينهما وزيرين بالحكومة فى عام ١٩٥٦ .. ومنذ ذلك الوقت بدأ الرجلان يتحركان فى مدار الصحفى الشهير محمد حسنين هيكل .. واستمرت العلاقة وثيقة بينهما حتى وفاة عبد الناصر .

وكان يربط الرجلين فى تلك الفترة إحدى حنقات التشابه وهى أنهما من المدنيين وان هؤلاء العسكريين يضعون العراقيل فى طريقهم للوصول للمناصب العليا .

ولكن كان هناك دائماً عامل للتنافر بينهما وذلك لوجود اختلاف حاد بين شخصية الرجلين حيث تتميز شخصية صدقى بأنه دؤوب عنيد صلب الرأى وخبير صاحب عقلية علمية مرتبة وحاسمة .. اما سيد مرعى فيتميز بأنه لبق وفطن ومرن وصاحب شخصية تكتيكية وهى سمات للشخصية يتميز بها أهل الريف .

وقد كان لموقعهما فى الحكومة تأثير كبير على علاقتهما حيث ادت للصراع المرير بينهما .. وكان على عزيز صدقى كوزير للصناعة أن يفرض سيطرته على المشروعات الزراعية الصناعية ومنها صناعات تعليب الخضر والفاكهة ومصانع انتاج السكر ويشمل ذلك إنتاج مدخلات الانتاج الزراعى .. وكان على سيد مرعى ان يحارب بضراوة لمنع ذلك .

وكان عزيز صدقى يردد ان الزراعة فى مصر مازالت بدائية ولم يراع تطويرها وفقا للأساليب العلمية .. بينما كان سيد مرعى يقول إن قطاع الصناعة قد امتطى ظهر القطاع الزراعى على مدى فترات طويلة واقتطع من هذا القطاع استثماراته وانها سبب نكسة قطاع الزراعة .

وبالرغم من الصراع بينهما ـ خلال عصر عبد الناصر ـ الا أنه كان عليهما ان يوحدا جهودهما لمواجهة تهديدات العدو المشترك .

وعندما مات عبد الناصر وتولى السادات السلطة وبدأ فى تطهير السفينة من مراكز القوى واختفى الاعداء من الطريق استدار الصديقان المتنافسان ليواجها بعضهما البعض وفى يد كل منهما سلاحه .

وحين استمر الصراع بين صدقى ومرعى بدأ كل منهما يستخدم وسطاء لتوجيه ضربة للآخر .. وعلى أى حال فقد كان الجبلى يعمل فى هذا المجال بالنيابة عن صدقى .

وقد قدم الجبلى إقتراحا ـ سبق ان رفض فى عصر عبد الناصر بتحصيل ضرائب على ارباح مزارع الفاكهة فى المناخ العاصف لعام ١٩٧٢ وسط مظاهرات طلاب الجامعة الذين كانوا يطالبون بالتوزيع العادل للثروات .

وقرر الجبلى أن يسير قدما إلى الأمام حيث كان معروفا وقتها أن الاثرياء هم الذين يملكون مزارع الفاكهة كما كان مشهورا ان سيد مرعى يمتلك هوالآخر مزرعة فاكهة كبيرة .

وعرف الجبلى ـ ومعه صدقى ـ أن فرض ضرائب على منتجى الفاكهة هو ضرب لعصفورين بحجر واحد حيث ترفع اسهم شعبية الحكومة وتعمل على الحد من نفوذ سيد مرعى فى قطاع الزراعة فيبدو امام الجميع انه غير قادر حتى على حماية مصالحه بالقطاع .

وقد حرص سيد مرعى على أن يلتزم الصمت والا يدلى بتصريحات صحفية او ينبس ببنت شفة بخصوص موضوع ضرائب انتاج الفاكهة حتى لايجدها صدقى فرصة سانحة فيبدو مرعى امام الجميع المدافع عن الثروة والمصالح .

ويبدو أن الدراما كانت تسير لنهاية مأساوية حيث بدأت الحكومة فى إجراءاتها لعرض مشروع قانون الضرائب على البرلمان .

وفى نفس الوقت كان وكيل وزارة الزراعة لشئون البساتين وهو احد رجال سيد مرعى ـ يقوم باجراء دراسة عند تأثير فرض هذه الضريبة على انتاج الفاكهة فى مصر .. والتى تبين منها من واقع الاحصائيات ان فرض مثل هذه الضريبة سيؤدى لخفض انتاج الفاكهة والصادرات منها مما يؤثر بالتالى على ميزان المدفوعات .

وسرب الموظف الكبير إحصائيات هذه الدراسة بالتفصيل لأحمد عبد الغفار وزير الزراعة الدستورى الحر السابق وهو احد ملاك الاراضى الاثرياء فى محافظة المنوفية وفى نفس الوقت من أصحاب النفوذ السياسى لانه من أقارب زوج ابنة السادات الكبرى .

ومع ان عبد الغفار لم يكن عضوا بالاتحاد الاشتراكى الا أنه كان يعرف عددا كبيراً من الأعضاء معرفة شخصية .

وقد استطاع ان يشحن هؤلاء الاعضاء للتصويت ضد هذه « الضريبة » مسلحين بالإحصائيات والبيانات الكافية والتى تم الحصول عليها من نفس الوزارة التى يديرها الجبلى .

والملاحظ أن عزيز صدقى قد أنهى الجولة الأولى من الصراع ليحتل مكانة أفضل حيث أن منصب رئيس الوزراء يعد أكثر بريقا من منصب رئيس الاتحاد الاشتراكى .

كان سيد مرعى مشغولا بمظاهرات طلبة الجامعة وإعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكى حتى يتحول إلى أنبوبة يصب فيها النشاط السياسى . تمهيداً لنقل هذا النشاط إلى زجاجة محكمة الغلق .

بينما كان عزيز صدقى مشغولا برفع معدلات ومؤشرات شعبيته وشعبية حكومته حيث ابتدع برنامجا تليفزيونيا يشرح فيه نشاط ومبادرات حكومته للمشاهدين ويوضح للشعب المصرى جهوده لحل مشاكلهم .. وبدأ يرتب لظهور وزرائه على شاشة التليفزيون بصفة منتظمة ليشرح كل منهم دوره فى البرنامج الحكومى .

وقد بدأ الدكتور مصطفى الجبلى وزير الزراعة والاصلاح الزراعى ـ والذى اختاره صدقى بعناية لهذا المنصب لنفوره من سيد مرعى ـ فى انتهاز هذه المناسبات التليفزيونية لتوبيخ سلفه بشدة .

وعلى شاشة التليفزيون أوضح الجبلى للشعب المصرى أن وزارة الزراعة كانت تعمل بأسلوب بدائى ـ نظرا لغياب التكنولوچيا ـ وكان ذلك نتيجة تقصير واضح من وزير الزراعة الاسبق .. وان اعادة القرية إلى طبيعتها كقرية منتجة ورفع معدلات الانتاجية الزراعية يتطلب توفير التكنولوچيا وتطبيق آخر ماتوصل إليه العلم فى مجال الزراعة وهى امور أهملت فى السنوات السابقة ـ وفقا لرؤية الجبلى .

وقد كان ذلك أكثر مما يتحمل سيد مرعى .. ولذلك ذهب مباشرة للسادات وطلب منه أن يظهر على شاشة التليفزيون وقتا مساويا للجبلى للدفاع عن نفسه وعن الوزارة التى قام بتأسيسها .. ورفض السادات هذا الطلب مما جعله يكثف جهوده فى ناحية أخرى . بهدف طرح صدقى ووزيره أرضا .

وفى صيف عام١٩٧٢ بدأ مكتب وزير الزراعة فى اصدار تصريحات تحذر من خطورة الاصابة بدودة القطن وبجرأة قام الجبلى بالاطاحة بلويس المحمودى وهو أحد وكلاء الوزارة الذين عينهم مرعى ـ لانه تقاعس عن اتخاذ اجراءات حماية المحصول .

وبدأ سيد مرعى على الفور فى اجراء اتصالاته وتوظيف مصادره ـ بعدها مباشرة ـ بدأت الشائعة تسرى بان موضوع اصابة القطن بالدودة كانت من وحى خيال مصطفى الجبلى وانه قد اخترع هذه الفكرة للقيام بحملة تطهير فى الوزارة .

وذهب سيد مرعى ايضا للسادات وطلب منه حماية رجاله فى وزارة الزراعة .. واستجاب السادات وأمر الجبلى بإعادة لويس المحمودى إلى منصبه والا يتمادى فيما يفعله .

وحرص اعضاء الاتحاد الاشتراكى على تلبية نداء عبد الغفار لأنهم يعرفون أن رغبته هى رغبة الرئيس السادات شخصيا وقد ذهب اعضاء الاتحاد الاشتراكى لأكثر من ذلك حيث تصوروا أن السادات يدعم سيد مرعى ضد عزيز صدقى .

ونظرا للدلائل التى تشير إلى أن التصويت ضد الضريبة هى رغبة النظام الحاكم قام أغلبية أعضاء الاتحاد الاشتراكى بالتصويت ضدها بالفعل ولم يعد امام الجبلى الا أن ينسحب لخطوط التماس حيث أصبح واضحاً أن نجم سيد مرعى فى صعود وان نجم عزيز صدقى ينحدر .

وقد ارتكب عزيز صدقى خطأ تكتيكيا فادحا حين شرع فى فرض الضرائب على حدائق سيد مرعى مما يعنى أن الممتلكات الشخصية قد دخلت لعبة الصراع .

وربما يتمكن مصطفى الجبلى من اتهام سلفه فى الوزارة بعدم الكفاءة على صفحات الجرائد وعلى شاشة التليفزيون ويعود سالما غانما .. لكن المشكلة التى سوف تقابله أن كبار الموظفين بوزارتى الزراعة والإصلاح الزراعى من الموالين لسيد مرعى - وبالطبع - يستطيع سيد مرعى استخدام رجاله وافراد شلته فى تخريب سياسات الجبلى فى هذه الوزارات .. والمؤكد انه فعل ذلك .

وفى حملة التشهير والتجريح المتبادلة بدا واضحا انها حرب ليس لها نهاية حيث كان صدقى يستغل وظيفته كرئيس للحكومة لتوجيه ضربة خطافية إلى رأس عدوه .. بينما كان سيد مرعى يعمل فى نفس الوقت على توظيف الاتحاد الاشتراكى للحد من سلطان صدقى .

وقد كانت استراتيجية سيد مرعى فى ذلك فى تركيز مناقشاته من فوق المنصة على موضوع « إعادة صياغة العلاقة بين الاتحاد الاشتراكى والسلطة التنفيذية أو الحكومة .

وفى اجتماع مشترك بين اللجنة المركزية ولجنة العمل بالاتحاد الاشتراكى فى ١٩ مارس قام سيد مرعى بتحديد اطار الاصلاحات وجاء فى مقدمة هذا الاطار « العلاقة بين الاتحاد الاشتراكى والحكومة » .. وبعد أن شرع فى تمهيد الطريق لتحقيق نواياه ألقى الكرة لأحد رجاله وهو سعد هجرس الذى أوضح ان الدستور والقانون يجب ان يتضمنا فقرة هامة وهى ان الاتحاد الاشتراكى هو عقل الامة .. وان هذا العقل يجب أن يخول له السلطة لإدارة ومراقبة الحكومة .

ويبدو أن هذا هو الخط العام الذى يتبعه سيد مرعى حيث ذكر فى الاجتماع أن الاتحاد الاشتراكى قد فشل فى اداء دوره فى الماضى لانه كان يدفع الجماهير لتأييد سياسات الحكومة حيث كان يدافع عن هذه السياسات حتى لو لم يكن يعرف شيئا عنها او عن أهدافها .. مما يعنى أن الاتحاد الاشتراكى كان يمارس نفاقا سياسيا لا حدود له مما جعله بعيدا كل البعد عن احتياجات الجماهير .

والمؤكد أن سيد مرعى قد استعان بالدكتور جابر جاد عبد الرحمن عضو الاتحاد الاشتراكى . والذى كان حريصا على إجراء اصلاحات بهذا التنظيم ـ مما يعنى انه يحتفظ بحليف قوى .

واستأنف سيد مرعى هجومه مؤكدا أن الحكومة الحالية قد أصدرت عدة قوانين وقرارات دون إبلاغ او استشارة الاتحاد الاشتراكى وقد كان من الضرورة عرضها عليه اولا . وان هذا المطلب الشرعى يدعمه الدستور والقانون وبيان ٣٠ مارس .

وطالب سيد مرعى بأن تقوم اللجنة المركزية بوضع خطة عمل للسياسة القومية فى مصر وان الحكومة عليها ان تراعى فى قراراتها ألا تتعارض مع السياسة العامة للاتحاد الاشتراكى .

واشار إلى ضرورة ان يكون للاتحاد الاشتراكى دور فى التخطيط خاصة انه حتى الان لا يعلم شيئا عن الميزانية ولا يمارس اى رقابة على المصروفات الحكومية .. وأوضح ضرورة ان تشارك المجالس الشعبية فى المحافظات فى وضع ميزانية كل محافظة مع السلطة التنفيذية وبذلك يتم تطوير الحكم المحلى .

وكانت خطة سيد مرعى واضحة وهى أن يستغل الاتحاد الاشتراكى فى احتواء عزيز صدقى وحكومته على المستويين القومى والمحلى .. ولكن يحدث دائما مالم يكن فى الحسبان ـ فقد اصدر السادات قرارا بطرد الخبراء الروس مع تأجيل خطط تطوير الاتحاد الاشتراكى .

وبدأ السادات أيضاً فى تركيز كل اهتمامه وانتباهه بالحكومة فلم يعد هناك حاجة للاتحاد الاشتراكى او رجاله الموقرين .

والمؤكد أن ذلك يعنى « النكسة » بالنسبة لسيد مرعى بكل المعايير .. وعندما يشعر سياسى مثله أن لاأحد يلتفت اليه فإنه على الفور يكثف هجومه علنا وجهراً .

وقرر عزيز صدقى أن ينتقم .. وبدأت حملة الشائعات تسرى بأن سبب ارتفاع اسعار اللحوم يرجع لسيطرة سيد مرعى على السوق باعتباره من كبار مربى المواشى فى مصر .

وبينما كان سيد مرعى يلقى كلمة فى جامعة اسيوط وجه إليه سؤال : هل صحيح أنك تملك ٦٠٠ من عجول الفريزيان ؟ .. وللقضاء على هذه الشائعة استعان ببيانات وزارة الزراعة التى أوضحت أنه لا يوجد سوى ٢٠٠ عجل فريزيان فى طول البلاد وعرضها .

ويبدو أن الشائعات مثل فقاعات الصابون .. وكلما حاولت التعامل مع إحداها وجدت الثانية والثالثة أمامك وبالفعل بدأت شائعة جديدة تسرى بان ارتفاع اسعار

العنب والبطيخ ايضا ترجع لتحكم سيد مرعى فى السوق لتحقيق اقصى ارباح على حساب الفقراء .

وهناك ماهو أكثر من ذلك حيث أخذ يردد البعض ان ارتفاع اسعار الدواجن يرجع إلى أن سيد مرعى يستخدمها فى إطعام قطيع الثعالب الذى يملكه .. بينما ردد البعض الآخر ان مرعى يملك مزرعة للثعابين يتم استيراد هرمونات خاصة لها من الخارج .

وظهر الضوء الأحمر بما يعنى ان الصراع بين صدقى ومرعى قد دخل مرحلة الخطر وبالفعل تدخل عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الاعلام وصديق الطرفين لتهدئة النفوس واقترح حاتم تخصيص اثنين من الوزراء للتنسيق بين الحكومة والاتحاد الاشتراكى .. لكن هذه الحيلة لم تفلح .

بعدها بفترة قصيرة طلب السادات لقاء صدقى ومرعى وحافظ بدوى رئيس مجلس الشعب فى ذلك الوقت ، فى اجتماع يضم الاربعة رجال فقط ولاحداث الوفاق طلب السادات من صدقى ومرعى ان يلتقيان أسبوعيا بمكتب حافظ بدوى للتنسيق بين الحكومة والاتحاد الاشتراكى .. وفشلت حيلة السادات أيضا حيث منع الكبرياء صدقى المعتد بمنصبه من حضور اللقاء الثانى .. وقد غادر سيد مرعى مكتب حافظ بدوى وهو يستشيط غيظا متوجها إلى منزله لتستمر الحرب بلا نهاية .

وعلى اى حال فقد كان الرئيس السادات فى حاجة لمنافس لعزيز صدقى فى الحكومة ووجد ضالته فى سيد مرعى حرصا على تحقيق مبدأ توازن القوى السائد فى عالم السياسة .. وقد مكن هذا المبدأ سيد مرعى فى التغلب على عزيز صدقى فى بعض الأوقات .

وقد حرص الرئيس السادات ان يوجه اهتمامه بالاتحاد الاشتراكى فى شهرى نوفمبر وديسمبر أى بعد العطلة البرلمانية مباشرة وقد تم تدمير صدقى وحكومته خلال هذه الفترة والسادات يجلس بعيداً يراقب الموقف .

وفى ١٧ نوفمبر قدم صدقى بيان الحكومة امام المجلس الذى قوبل بانتقادات لاحد لها .. واشار مصطفى كامل مراد وهو احد الضباط الاحرار المقربين من الرئيس السادات إلى ان الحكومة لم توضح فى بيانها الاستعدادات للمعركة .. وانتقد أعضاء آخرون اجزاء أخرى من بيان الحكومة .. وعندما زاد هجوم المجلس على الحكومة فى جلسات أخرى ثار سؤال محرج وهو إلى متى يسمح للأعضاء بانتقاد صدقى وحكومته ؟ .. ولم يكن هناك من يستطيع الاجابة على هذا السؤال إلا شخص واحد فى مصر وهو الرئيس نفسه .

وبالفعل .. فقد أعطى السادات الضوء الأخضر لصهره محمود ابو وافية عضو الاتحاد الاشتراكى لتوجيه الانتقادات لميزانية حكومة صدقى .

وذهب جمال العطيفى ـ الذى اختاره مرعى عضوا للجنة العمل لاعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكى ـ الى ابعد من ذلك حيث طالب الاعضاء بعدم التصديق على ميزانية الحكومة لأن بنودها غير مطابقة وأصبحت خطوات صدقى مثل البطة العرجاء فالخطر يتربص به من كل جانب .

وشهد شهرا نوفمبر وديسمبر جولة اخرى من الاضطرابات والعنف فى الشارع المصرى وجرت فى هذه الفترة محاولة انقلاب واحدة على الاقل تم فى اعقابها اجراء عمليات تطهير واسعة فى الجيش حيث تم خلع محمد صادق وزير الدفاع وبدأت أحداث الفتنة الطائفية .

وبدأ طلبة الجامعة فى إثارة الشغب فى شهر يناير وكان طلبة كلية الهندسة فى المقدمة للمرة الثانية ولذلك تم تأجيل الدراسة لمدة شهر .

وفى يوم ٤ فبراير ـ وهو اليوم الاول لاستئناف الدراسة ـ قام السادات باستخدام الاتحاد الاشتراكى لاجراء عملية تطهير بين الصحفيين ـ وبالفعل ـ قامت لجنة القيم باعداد قائمة تضم ٦٤ صحفيا تم فصلهم من الاتحاد الاشتراكى مع وقفهم عن ممارسة مهنة الكتابة .

وقد دافع السادات عن هذا الاجراء فى خطاب حازم « ذى أنياب » امام مجلس الشعب .. ويبدو انه لم يكن امام سيد مرعى مفر من حزم أمتعته والسفر للخارج لمدة شهر .

وفى شهر مارس قام السادات بتشكيل حكومة يراسها بنفسه بينما قام بتعيين محمد حافظ غانم أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى خلفا لسيد مرعى .

واشار السادات الى ان هذه التغييرات ترجع الى ان الناس فى الخارج اصبح شغلهم الشاغل الحديث عن الصراع بين الحكومة والاتحاد الاشتراكى .. والصراع بين مجلس الشعب والاتحاد الاشتراكى .. والصراع بين مجلس الشعب والحكومة .. وقال السادات : لايمكن السماح بهذه الصراعات فى دولة مؤسسات مثل مصر .. وإذا حدث ذلك تتحول الى دولة تناقضات وليس دولة مؤسسات .

وبعدها بأيام ذكر الكاتب إحسان عبد القدوس رئيس تحرير اخبار اليوم فى مقاله ملاحظة شبيهة بذلك حيث فسر التغييرات الأخيرة بوجود تناقضات بين الحكومة والاتحاد الاشتراكى مما أعطى انطباعا بوجود حكومتين فى مصر : الحكومة الرسمية

والاتحاد الاشتراكى .. واشار فى مقاله الى ان ذلك مسئولية القيادات التى لا تحركها الا طموحاتها .

وأوضحت عناوين الصحف الصادرة يوم ٣١ مارس الخطوط العامة للقرار الجمهورى بتعيين عزيز صدقى وسيد مرعى مساعدين لرئيس الجمهورية .

وكان هذا القرار بمثابة انتحار سياسى بالنسبة لصدقى لذلك قام فى هدوء بتأسيس مكتب استشارى بالتعاون مع شركة فيات لإنتاج السيارات وهى السيارة التى أدخلها مصر عندما كان وزيرا للصناعة .

وبدأ سيد مرعى فى تعديل اتجاهاته بما يلائم المهام الجديدة وبدأ على الفور حملة دولية تأييدا للسياسة المصرية بشأن العدوان الاسرائيلى - وعلى اى حال - لم ينسى عزيز صدقى او مرعى ايام الصراع المريرة أو يسامح أحدهما غريمه والدليل على ذلك انه حتى الآن يتفادى كل منهما لقاء الآخر .

الفصل الخامس

دبلوماسى فوق العادة

وبعد ان رأس السادات الحكومة اصبح مسئولا عن توجيه دفة السياسات الداخلية لايشاركه فيها أحد .. ولم يعد امام سيد مرعى الا ان يوجه اهتمامه بالشئون الخارجية .. واصبحت المهمة الموكلة اليه هى تهيئة العالم العربى للحرب القادمة مع اسرائيل .. وكان معنى ذلك ان يسافر بين عواصم المنطقة ويستقبل الوفود العربية الزائرة .

وكان يؤدى مهامه الجديدة بمكتبه - الذى يقع بالدور الحادى عشر بمبنى الاتحاد الاشتراكى - وهو نفس المكتب الذى كان يشغله اثناء عمله كأمين للاتحاد الاشتراكى .. بينما كان محمد حافظ غانم الامين الجديد للاتحاد الاشتراكى يشغل مكتبا اقل اناقة فى احد الادوار السفلية .. والسؤال الذى يلح على الذهن هو : من هو الاكثر نفوذا .. مرعى ام حافظ ؟

وبدأ سيد مرعى يمارس عمله الدبلوماسى بالفعل بعد ستة اشهر من تعيينه فى هذه الوظيفة .. ففى مساء يوم ٧ اكتوبر عام ١٩٧٣ - وهو اليوم التالى للعبور المصرى لقناة السويس - قام السادات باستدعاء سيد مرعى الى مقر اقامته وكلفه برئاسة وفد لزيارة دول الخليج لتنسيق السياسات وطلب الدعم .. وطلب السادات من سيد مرعى ان يترك حجم هذا الدعم وفقا لتقدير ملوك ومشايخ هذه الدول ووفقا لالتزامهم السياسى والاخلاقى مقارنا ببراميل النفط المنتجة يوميا وما تساويه من دولارات .

وكان سيد مرعى قد دعا لتوقيع عقوبات إقتصادية على دول الغرب ولكن سلاح البترول وكيفية استخدامه بكفاءة كان من الامور غير المألوفة بالنسبة له ولذلك توجه مباشرة لمحمد حسنين هيكل يسأله المشورة .

وبمعاونة مصطفى خليل وبمساعدة مركز الدراسات الاستراتيجية بالاهرام تمت دراسة اختيارات واحتمالات استخدام البترول كسلاح - وبمساعدة محمود فوزى رئيس الوزراء الاسبق وهيكل نفسه - تبين ان منع ضخ البترول للغرب سيؤدى الى هزيمة عربية ذاتية فى الحرب مع إسرائيل وانه يجب تخفيض إمدادات البترول

للغرب بنسبة بسيطة ـ يشعر المواطن الغربى بآثارها ـ ولا تؤدى لشعور الغرب باليأس فيقدم على إجراء لايمكن مواجهته .

إجتماع فيصل

وغادر سيد مرعى القاهرة فى صباح يوم ١٠ أكتوبر للرياض ـ واستراتيجية البترول وتعليمات الرئيس عبارة عن افكار تدور فى رأسه ـ وكان يرافقه فى الرحلة على عيسى طبيبه الخاص ومصطفى خليل وأشرف مروان زوج بنت عبد الناصر واللواء سعد القاضى .

وفى القصر الملكى عبر الملك فيصل عن وجهة نظره للوفد المصرى وتتلخص فى قطع إمدادات البترول بنسبة ١٠ ٪ وإمداد مصر بالسلاح بالاضافة لدعم مالى قدره مائة مليون دولار .. واشار سيد مرعى الى انه قد قبل مبلغ الدعم الا انه يرى ان خفض إمدادات البترول بنسبة ٥ ٪ فقط تعد كافية فى البداية .

وكان سيد مرعى يعرف جيدا مدى ماتتحمله مصر إقتصاديا ولذلك لم يكن راضيا عن حجم الدعم المالى السعودى إلا أنه لم يشأ أن يفسد البروتوكول الملكى فيبدو ناكرا للجميل وهو يساوم على مبلغ الدعم

وبعد انتهاء المقابلة رافق الوفد « رشاد فرعون » مستشار الملك فيصل الذى سأل سيد مرعى بطريقة مباشرة : هل أنت راض عن هذا الدعم ام لا ؟ .. فوجد مرعى أمامه الفرصة سانحة فأجاب بالنفى .. مؤكدا ان الحرب فى سيناء تكلف مصر ١٠ ملايين دولار فى الساعة .

وذهب راشد فرعون مباشرة للملك فيصل وأخبره بذلك .. فاتصل الملك فيصل مباشرة بسيد مرعى فى قصر الضيافة وأخبره أنه قرر زيادة مبلغ الدعم إلى ٤٠٠ مليون دولار .

وغادر الوفد المصرى الرياض إلى الكويت وباقى دول الخليج مدعما بمساهمة الملك فيصل ولم يعد أمام باقى المشايخ إلا ان يقدموا مساهمات تتناسب مع انتاجهم من البترول ودخولهم .. وعاد سيد مرعى للقاهرة ظافرا حيث حقق رقم دعم يزيد على النصف مليار دولار بالاضافة لوعد من فيصل باستخدام البترول كسلاح .

وبعد جولة الخليج الناجحة اصبح سيد مرعى معروفا فى العالم العربى كسياسى بارز وأحد المقربين من الرئيس السادات فى وقت كانت فيه انظار العالم ودول الشرق الاوسط تتجه فيه لمصر فى أعقاب حرب أكتوبر .. وفى شهر ديسمبر عام ١٩٧٣ رافق مرعى الرئيس السادات لمؤتمر القمة العربى الذى عقد بالجزائر .

ومن ناحية أخرى فلم يكن من مصلحة السادات أن يصبح سيد مرعى أكثر طولا وعرضا من ذلك ولذلك عمل على الا يصبح مرعى أكثر بريقا حتى لايخطف منه الأضواء .

وعلى أى حال فقد ذاق سيد مرعى حلاوة النجاح كدبلوماسى دولى واصبح يتمنى ان يشغل موقعا يقوم من خلاله بوضع السياسات بدلا من مجرد تنفيذها .
وجاءت الفرصة لتحقيق ذلك فى شهر يناير من عام ١٩٧٤ عندما ركب موجة الانتصار المصرى السورى فى حرب أكتوبر لكسب تأييد دول العالم الثالث لشغل وظيفة سكرتير عام مؤتمر الغذاء العالمى .

الفصل السادس

مرعى مديرا لمجلس الغذاء العالمى

والجدير بالذكر ان مؤتمر الغذاء العالمى ومجلس الغذاء العالمى هما جهازان يتبعان الامم المتحدة بهدف حل ازمة الغذاء فى الفترة بين عامى ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤ عندما أدى الطقس المعاكس لخسائر كبيرة فى المحاصيل الزراعية فى قارة آسيا واصبح مخزون الحبوب العالمى لا يكفى لاستهلاك شهر واحد .

وقد ارتفعت أسعار الحبوب إلى ثلاثة أمثالها ولازم ذلك انخفاض الدعم الدولى والمساعدات لأفقر دول العالم .. وهو سيناريو معروف يعنى ان المجاعة تهدد سكان هذه الدول .

وقد أوصى مؤتمر عدم الانحياز الذى عقد بالجزائر فى سبتمبر عام ١٩٧٣ بعقد مؤتمر دولى للغذاء لايجاد حل سريع لهذه الازمة الطاحنة .

وبعدها بشهر قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة عقد مؤتمر عالمى للغذاء فى روما بإيطاليا فى الفترة بين ٥ ـ ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٤ .. وتم اختيار سيد مرعى المهندس الزراعى العربى البارز ليكون سكرتيرا عاما لمؤتمر روما .

والجدير بالذكر ان الامم المتحدة كانت قد عرضت وظيفة مشابهة على سيد مرعى عام ١٩٦٩ لكن عبد الناصر أجبره على رفضها .. لكن السادات شجعه هذه المرة على قبول هذا العرض .

وكان متوقعا ان يستمر السادات رئيسا للوزراء نحو عام آخر لان مقتضيات الأمور تحتم إدارة شئون الحكم بأسلوب ديكتاتورى فى بعض الاحيان .. ولذلك لم يكن السادات فى حاجة لمواهب سيد مرعى فى ادارة الشئون الداخلية للدولة .

وربما يكون فى صالح السادات ان يشغل سيد مرعى وظيفة عالمية مرموقة حيث يعمل على دعم دور مصر القيادى فى منطقة الشرق الأوسط وبين دول العالم الثالث كما تعد بمثابة أوراق اعتماد للرئيس داخل حركة عدم الانحياز كما تسانده فى مفاوضاته مع إسرائيل .

والمؤكد ان هذا المنصب قد أتاح لسيد مرعى ان يصعد عدة درجات مرة واحدة ووصلت علاقته بالسادات الى منحنى آخر اكثر رسوخا وصلابة - وبالفعل - اعلن السادات يوم ٢٤ يناير عام ١٩٧٤ خطوبة « نهى » - أبنته من « جيهان » زوجته الثانية - « وحسن » الإبن الاصغر لسيد مرعى .

وقد أدى سيد مرعى دوره بنجاح كسكرتير لمؤتمر الغذاء العالمى حيث استطاع على الأقل أن يضع الدول المصدرة للغذاء فى موقف دفاعى .

وربما لم ينجح سيد مرعى فى إنشاء جهاز عالمى للغذاء يتولى توزيع فائض الغذاء العالمى على الفقراء والذى يعد هدفا بعيد المنال فى حد ذاته حيث ينزع حق الدول الكبرى المصدرة للغذاء فى الهيمنة على توزيع فائضها .. إلا أنه استطاع تأسيس الصندوق الدولى للتنمية الزراعية وحصل على دعم من الولايات المتحدة لتمويله قيمته ٢٠٠ مليون دولار .

وفى الاجتماع التحضيرى لمؤتمر روما الذى عقد فى ١١ فبراير عام ١٩٧٤ قدم سيد مرعى قائمة باقتراحاته ومنها العمل على زيادة انتاج الغذاء فى الدول الاقل نموا من خلال رأس المال والتكنولوجيا وزيادة المساعدات الغذائية لهذه الدول فى نفس الوقت .

واقترح مرعى انشاء نظام عالمى جديد لتوزيع فائض محاصيل الحبوب تحت اشراف كل من المنتجين والمستهلكين ويعنى ذلك انتزاع حق الدول الكبرى فى توزيع الحبوب وفقا لأهوائها .

ويبدو ان سيد مرعى قد اصطدم بحائط صلد قوى فقد كان مصير هذه المقترحات الرفض - طبعا - وكان على رأس المعارضين ممثلو الدول المصدرة للغذاء ومنظمة الاغذية والزراعة .

وامام هذه المعارضة المزدوجة لم يكن أمامه إلا الانسحاب حيث أجبر على التخلى عن اقتراحه بإنشاء جهاز عالمى للإشراف على مخزون الحبوب الدولى .

واعترافا بأدائه الرائع كسكرتير عام لمؤتمر الغذاء العالمى تم اختيار سيد مرعى رئيسا لمجلس الغذاء العالمى المزمع إنشاؤه .. ومن خلال منصبه الجديد كرر نفس المحاولة . وهى المطالبة بانشاء جهاز عالمى لتوزيع فائض الغذاء على الفقراء - وبالتالى تحقيق مافشل فى تحقيقه فى مؤتمر نوفمبر .

ويبدو انه يصر على توجيه الكرة فى نفس مكان حائط الصد فقد اعترضت الدول الكبرى وعلى راسها الولايات المتحدة على نفس الاقتراح .. وقد انتهى الاجتماع الاول لمجلس الغذاء العالمى الذى عقد فى يونيه عام ١٩٧٥ لطريق مسدود دون ان يصدر عنه حتى تقرير ختامى وربما شك سيد مرعى انه يسير فى الطريق الخطأ فقام بجولة

لعدد من العواصم العالمية الكبرى للتوصل لاتفاق لكن هذا الموضوع كان معقدا فهو يطلب الكثير ولذلك كان مصير الاجتماع الثانى نفس مصير الاول فالطريق مسدود كالعادة .

وتأكد بما لايدع مجالا للشك ان عليه ان يوجه طاقته لمشروع آخر وهو العمل على زيادة المساهمات لإنشاء الصندوق الدولى للتنمية الزراعية لتحقيق أحلامه بزيادة الإنتاج الزراعى فى دول العالم الثالث باستخدام التكنولوجيا الغربية وأموال دول البترول .

واشار سيد مرعى إلى أن العقبة التى تواجه التنمية الزراعية فى دول العالم الثالث ليست هى نقص الأموال والتكنولوجيا او القدرات ولكن غياب الارادة والرغبة السياسية .

وفى عام ١٩٧٥ نشر سيد مرعى كتابا بالاشتراك مع المهندس سعد هجرس بعنوان : « اذا اراد العرب » .. وقد صدر الكتاب باللغة العربية .. وأوضح فى كتابه ان العالم العربى يمكن ان يتحول لمنطقة من إحدى مناطق فائض الغذاء إذا شرع القادة السياسيون فى خطوات لتحقيق ذلك .

وقام بتوجيه رسالة مماثلة فى كتاب آخر صدر فى نفس العام باللغة الإنجليزية .. وردد سيد مرعى نفس هذه الافكار فى عدة خطب ومقابلات خلال مدة رئاسته لمجلس الغذاء العالمى وبعدها .

ويعبر سيد مرعى عن فلسفته قائلا : ارى ان حل مشكلة الغذاء فى الدول النامية يتطلب عقد مؤتمر يجمع هذه الدول لمناقشة مشاكلهم وتبادل الخبرات فيما بينهم .. اى الاعتماد على الذات وليس على الدعم الخارجى .. ويمكن تطبيق تجربة الصين التى تعمل بشعار : « نحن نعمل بأنفسنا من اجل أنفسنا » .

وبدأ يركز اهتمامه للتمويل العربى لتحقيق تنمية زراعيةعربية مع تركيز الجهود على المنظمة العربية للاستثمارات الزراعية والتنمية ... وهى وكالة تعمل برأسمال عربى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والتى نفذت برنامج تنمية طموح فى السودان فى عام ١٩٧٧ .

ولاشك ان تحول أنظاره عن « الجهود الدولية لوضع حل لأزمة الغذاء » .. واهتمامه « بدول العالم الثالث والدول العربية » يعكس شعوره بالإحباط تجاه ممثلى دول الغرب فى مجلس الغذاء العالمى والصندوق الدولى للتنمية الزراعية .

وليس غريباان يشعر سيد مرعى بالاستياء والغضب نتيجة عناد دول المجموعة الاوروبية والتى تؤثر بشكل كبير على أعمال مؤتمر الغذاء العالمى ومجلس الغذاء العالمى حتى أنهم نجحوا فى تحويلها لجزء لايتجزأ من البيروقراطية الدولية .

وربما شعر أنهم يأخذون موقفاتجاهه .. وقد تأكد من صدق هذا الكلام بعد ذلك حيث بدأ الهمس فى الآذان بعدم تأييد ترشيح سيد مرعى رئيسا لمجلس الغذاء العالمى لفترة ثالية فى الاجتماع الثالث للمجلس الذى يعقد فى مانيلا بالفلبين فى شهر يونيه عام ١٩٧٧ .

واعلنت دول الغرب ان سبب عدم تأييد ترشيح مرعى لفترة رئاسةتالية ترجع لانه لم يعط كل وقته للمجلس حيث استمر فى ممارسة مهامه السياسية فى مصر .. وكان هذا طبعا هو السبب الوحيد المعلن .

وبالرغم من محاولات دول الغرب فى إقصائه عن وظيفته اعلن فى ١١ مارس عن نيته فى إعادة ترشيح نفسه رئيسا لمجلس الغذاء العالمى ..

وعلى مدى الشهرين التاليين كثفت وزارة الخارجية المصرية اتصالاتها لدعم سيد مرعى .. لكن تبين فى منتصف شهر مايو ان دول المجموعة الاوروبية سوف تعترض على ترشيحه وأنه لن يحصل على الأصوات الكافية لوصوله لكرسى الرئاسة ..

بعدها مباشرة أعلن سيد مرعى قراره بالانسحاب من الترشيح لهذه الوظيفة ..

وفى اجتماع مانيلا فى شهر يونيه أعلن عن تولى ارثورو تانكو وزير الزراعة الفليبينى رئاسة مجلس الغذاء العالمى .

والمثير أن المصريين كانوا ينظرون بريبة لتعيين سيد مرعى الرأسمالى فى وظيفة تتعلق بتخفيف الآم الفقراء فى العالم ضد جشع وسطوة دول العالم الأول أو العالم المتقدم .

بينما كان سيد مرعى يرى ضرورة تنشيط المفاوضات لحل ازمة الغذاء لصالح مصدرى ومستوردى الغذاء وكان يتمنى ان تتفهم الدول الكبرى الموقف وان تعرف ان أرباح صادراتها من التكنولوجيا يمكنها تعويض اى خسائر نتيجة أنخفاض صادرات الغذاء .

وربما كانت صدمة بالنسبة له حين تأكد ان هناك حدودا واسوارا لا يمكن تعديها وان هناك عادات وتقاليد دولية راسخة لايمكن الاقتراب منها .. وطالما ان الطريق لايؤدى لاى شيء فإن عليه التخلى عن رئاسة المجلس ولو فى هذه المرحلة حتى تتغير الظروف ..

والحقيقة ان تصريحاته التى تدل على أنه يفضل التجربة الصينية والاعتماد على النفس فى تحقيق التنمية الزراعية توضح أنه قد فقد الثقة فى جهود دول الغرب .

وفى نفس الوقت الذى كان يرأس فيه مجلس الغذاء العالمى كان يشرف فيه على تغيير سياسى طموح فى مصر لم يسبق له مثيل منذ بداية الخمسينات حين شرع عبد الناصر فى تجاربه السياسية

وكرئيس لمجلس الشعب كان يراقب برنامج الديمقراطية الذى بدأه السادات عام ١٩٧٤ وهو البرنامج الذى وصل للمنحنى الحرج فى بداية صيف عام ١٩٧٧ .

الباب التاسع

سيد مرعى
فى مجلس الشعب

الفصل الأول

الحريـــــــة السياســـــية

فى أعقاب حرب ١٩٧٣ إستأنف السادات تجارب الديمقراطية التى بدأها فى بداية عام ١٩٧٢ وتوقفت فى ربيع عام ١٩٧٣ لوضع حد للشغب وحالة السخط العام وتهيئة المناخ للمعركة مع إسرائيل .

وقد قرر السادات استئناف تجاربه لعدة اعتبارات أولها أن الرئيس يفضل النظام السياسى المفتوح او النظام الديمقراطى على النظام السياسى المغلق لعبد الناصر .. ولكنه كان حريصا ألا يفلت من يده زمام الحكم فى موجة الديمقراطية .

والاعتبار الثانى أن السادات قد خرج من الحرب اكثر ثقة بعد أن تقلد لقب « بطل العبور » وأصبح يرى أن الحرية السياسية تخفف عن كاهله كثيرا من اعباء الحكم ـ التى كان يتحملها عبد الناصر على سبيل المثال ـ وان عليه فقط ان يجلس على كرسى العرش ويراقب المعارك السياسية التى تحدث تحته ويتدخل فى بعض الأوقات ضمانا للنتائج التى يود تحقيقها .

والاعتبار الثالث هو السياسة الخارجية التى لعبت دورا كبيرا فى اتجاهه نحو الديمقراطية حيث اتجه السادات بأنظاره للغرب وخاصة الولايات المتحدة وكان ذلك فى حد ذاته يستدعى قليلا من الديمقراطية .

فقد كان السادات فى حاجة لدعم الولايات المتحدة فى مفاوضاته مع إسرائيل وكان يتمنى أن ترى الولايات المتحدة « مصر » اكثر بريقا من باقى الدول العربية وكان هناك اعتبار رابع وهو بدء المفاوضات وحرب الكلمات بين نظام الحكم فى مصر والأنظمة العربية بعد ان شعر الحكام العرب ان مصر تسير بالتدريج فى طريق السلام المنفرد والواقعى مع اسرائيل ولاشك ان تحقيق قدر من الديمقراطية فى مصر يعمل على إثارة المعارضة فى الدول العربية التى لايسمح حكامها بأى حريات سياسية .

والجدير بالذكر ان الديمقراطية لم تولد فى مصر فى السبعينات بصورة طبيعية .. فقد بدأها السادات ومارسها وفقا لاعتبارات تكتيكية وكان لها حدود غير مسموح بتعديها .

ويبدو ان الديمقراطية قد تعدت الحدود المسموح بها فى نهاية ربيع عام ١٩٧٨ عندما خرج حزب الوفد الجديد من القمقم التاريخى ليتحالف مع الناصريين اليساريين وأصحاب الاتجاه الإسلامى مهددين باقتناص السلطة من أيدى السادات .

ومنذ ذلك الوقت بدأ منحنى الديمقراطية يعلو ويهبط . وقد شهدت الديمقراطية ـ قبل غيرها من المشروعات ـ مرحلة أولى إنتهت فى ربيع عام ١٩٧٤ حين أصدر الرئيس السادات ورقة أكتوبر ورسم فيها حدود الديمقراطية .

وفى شهر يوليه عام ١٩٧٥ أعلن فى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى أنه سيسمح بتكوين احزاب من خلال الاتحاد الاشتراكى .. وكان الرئيس بذلك يكرر نفس ما قاله فى النصف الاول من عام ١٩٧٢ .

وقد عهد السادات للاتحاد الاشتراكى بأن يتولى مسئولية هذه الاحزاب حتى يتحكم فى الحصان واللجام وتأخذ الديمقراطية مسارها من اعلى إلى اسفل وليس العكس .

ويبدو ان رجل الشارع لايرضى بالمسكنات ولذلك بدأ يتذمر من هذه الديمقراطية المصطنعة مما اضطر السادات لدفع عجلة الحرية السياسية للأمام مرغما .

وعندما أعلن السادات فى يوليه عام ١٩٧٥ قراره بتأسيس الاحزاب صفق أعضاء الاتحاد الاشتراكى للرئيس لكنهم كانوا فى شك مريب من هذا الكلام .. فلم يكن احد يعرف ان كان السادات جادا فيما يقوله ام لا !.. وهل من الواجب التجاوب مع ماقاله الرئيس ام يجب الاكتفاء بالتصفيق .

وعرف الناس ان السادات صادق هذه المرة فاندفعوا فى تشكيل الاحزاب .. وفى يناير عام ١٩٧٦ وصل عدد الأحزاب المسجلة مايفوق الاربعين حزبا وهو عدد كبير طبعا .. وتم تشكيل لجنة الأحزاب برئاسة سيد مرعى لتقييم الموقف .

وفى ربيع عام ١٩٧٦ قامت اللجنة بتصنيف الأربعين حزبا وفقا لاتجاهاتها السياسية فى ثلاثة احزاب فقط : اليسار .. واليمين .. والوسط .. على اعتبار ان رئيس الوزراء هو رئيس حزب الوسط وأجريت انتخابات عام ١٩٧٦ وخاضتها الأحزاب الثلاثة بالإضافة لقائمة المستقلين .. وكان للناخب بالفعل حرية التصويت .. لكن استخدمت الحكومة فى هذه الانتخابات كل مخالبها الإدارية لضمان تفوق حزب الوسط .

وشعر الرئيس بالثقة فى قدراته لأنه يمارس الحكم من خلال نظام سياسى أكثر انفتاحا .. ولم يكن السادات يعرف أنه سيتعرض لاختبار صدق النوايا .

وفى ١٨ ، ١٩ يناير عام ١٩٧٧ شهدت مصر أحداث شغب لم تشهد مثيلا لها إلا فى نهاية عصر « فاروق » ولم يكن أمام السادات إلا أن يشدد قبضته على المعارضة الرسمية وتلك المعارضة التى تعمل « تحت الارض » .. وقام بفصل عضو بارز بمجلس الشعب .

وطالب الرئيس بإجراء استطلاع للرأى حتى يتمكن من فرض عقوبات مشددة على السياسيين مثيرى الشغب .

ويبدو ان السادات قد قرر ان يعطى الحرية السياسية فرصة أخرى من خلال إطار عمل محدد ومحكم .. وصدر ـ بالفعل قانون جديد للأحزاب السياسية بعد أن وافق عليه البرلمان فى منتصف يونيه عام ١٩٧٧ .

والمؤكد أن السادات لم يحدد الأمور بدقة ـ حيث أنه بالرغم من يد الحكومة القوية ـ خرج حزب الوفد الجديد للفوز وكذلك اليمين الاسلامى بالاضافة للحزب التقدمي الوحدوى الذى يرأسه خالد محيى الدين احد الضباط الاحرار السابقين ... ولم تكتف هذه الاحزاب بتهديد سياسات السادات داخليا بل لم تنجح سياساته الخارجية من ان تلوكها الألسنة حيث انتقدت مبادرة السلام ورحلة القدس وتوقيع معاهدة سلام منفرد مع إسرائيل .

وفى ربيع عام ١٩٧٨ شرع السادات فى البحث عن وسيلة ما لاحتواء معارضيه .. وبدأ فى التلويح بأصابعه داخل القفاز الأسود لإثارة الفزع فى قلوب هؤلاء المعارضين .. والواضح ان القفازات السوداء لاتخيف إلا الأطفال .. وعندما اكتشف أنه لا جدوى من ذلك بدأ على الفور فى توجيه ضرباته حيث أعاد حزب الوفد الجديد إلى مكانه فى متحف التاريخ وقام بتكميم اليسار واليمين . وأعلن السادات بعدها تأسيس حزب الرئيس .

وقد لعب سيد مرعى دورا حيويا على مدى تلك السنوات الأربع الدرامية بالرغم من مسئولياته فى مؤتمر الغذاء العالمى ومجلس الغذاء العالمى حيث رسم السادات الخطوط العريضة لخطة تطبيق الديمقراطية وترك الفرصة لسيد مرعى لينفذها عمليا .

وقام سيد مرعى بدور الوسيط او السمسار بين الرئيس السادات وبين مختلف الجهات التى تسعى للسلطة والنفوذ فى ذلك النظام السياسى المتقلب .

ووفقا لدوره كوسيط يقوم بوضع حدود للمناقشات المصرح بها تحت القبة فى مختلف الموضوعات وفقا لتصور السادات .. وبذلك يكون السادات بعيدا عن الألعاب القذرة التى تجرى فى كواليس المسرح السياسى .. ويترك لسيد مرعى دور الرجل القاسى او الشرير الذى لايتيح الفرصة للمعارضة لتوضيح وجهة نظرها .

وكان على سيد مرعى أن يؤدى دوره كرئيس للمجلس بالسير فى خط الرئيس سواء اتبع خطا مستقيما او متعرجا او عاد للوراء .. فإن عليه ان يتبع تناقضات الرئيس أيضا .

ويمكن القول إن جلسات مجلس الشعب المسجلة تليفزيونيا تعكس جزءا ضئيلا من دوره كوسيط .. والجزء الاكبر من دوره يؤديه خلف الكواليس .. وقد كان سيد مرعى يعرف جيدا انه يتعامل مع سياسيين وانه من المضحك ان يظل يردد أمامهم آراء وأفكار السادات .. ويعنى ذلك انه لابد من توسيع مساحة الجلسات الخاصة حيث يتمكن من القيام بمناوراته السياسية .. وخلف الأبواب المغلقة يقول رأيه بصراحة فى كثير من سياسات السادات ـ حتى يكسب ثقة هؤلاء السياسيين ويمكن إقناعهم بعد ذلك بسهولة بالموافقة على سياسات السادات .

أى أن عليه أن ينتقد السادات وسياساته مع توضيح تأييده الشديد لانتقادات المعارضة فى مناسبات خاصة .

ومن الخطأ أن ينظر البعض لهذه التصرفات على أنها مجرد سمسرة سياسية .. فمن المؤكد أن سيد مرعى لم يكن مقتنعا بكل آراء السادات ولكنه لايستطيع ان يعارض آراءه حتى لايفقد وظيفته بسرعة .. وعلى أى حال فقد كان يعارض سياسات أعضاء مجتمع الصفوة السياسية .. وقد أقدم على ذلك كثيرا وهو يعرف ان هذه السياسات يوافق عليها السادات طبعا وربما كان وراءها .

وبالرغم من انه لم يكن يتمنى ان يكون مجرد منفذ لسياسات غيره .. وكان يكره طبعا أن يظهر أمام الناس وهو يقوم « بتكتيف المعارضة » وتبرير سياسات الرئيس .

فقد كان يأمل فى توضيح وجهة نظره المختلفة عن وجهة نظر الرئيس بالنسبة لمختلف القضايا .. حتى الكثيرين كانوا يعتبرونه مختلفا عن باقى أفراد الحاشية حيث يعتبرونه « تقدميا حرا » .

الفصل الثانى

مرعى « بديل » الرئيس

وكان عليه هنا ان يتحدث باسم الرئيس دون ان يشير اليه من قريب او بعيد .. وربما يغير السادات رأيه ويسير فى الاتجاه المعاكس .. ولا يجد سيد مرعى مفرا من الاتجاه للخلف فتجده يرفض اقتراحات سبق أن وافق عليها .

وبالنسبة للسياسة الخارجية .. على سبيل المثال ـ فقد التزم سيد مرعى بخط الرئيس بأمانة مؤكدا أن مصر لن تخذل الاشقاء العرب وسوف تساندهم فى مواجهة التهديد الاسرائيلى .

والجدير بالذكر أن سيد مرعى قد أدى دوره بنجاح كمنسق للمقاطعة العربية للبترول من خلال دوره كضابط اتصال مع الدول العربية وكصديق مقرب سابق من محمد حسنين هيكل المعروف بميوله للعرب .

وبالرغم من انه يرتبط شخصيا وأيديولوجيا بهذه الدول الا انه بارك الجولة الثانية من مفاوضات سيناء وظهر ذلك واضحا فى خطاب إعادة انتخابه كرئيس لمجلس الشعب فى اكتوبر عام ١٩٧٥ .. وعندما اعلن السادات عن رغبته فى الذهاب للقدس فى نوفمبر عام ١٩٧٧ لم يجد سيد مرعى مفرا من مساندة هذا القرار .

وكالعادة قام بتأمين موافقة المجلس على مبادرة السادات بينما وقف حائلا بين اعضاء المجلس المعارضين وبين الميكروفون حتى لايتمكنوا من إعلان سخطهم .

وقد لعبها سيد مرعى ببراعة ـ وبدلا من مناقشة رحلة الرئيس للقدس تحت قبة المجلس مباشرة ـ عقد اجتماعا للأعضاء بمكتبه ووضع أمامهم الصورة كاملة .. وعلى اى حال ـ لاتجرؤ قيادات حزب الوسط على معارضة سياسة الرئيس فى البرلمان .. وقد حرصت هذه المجموعة على إصدار بيان باسم أعضاء المجلس فى ١٩ نوفمبر أعلنت فيه مساندتها لمبادرة الرئيس من اجل تحقيق السلام .

وكان يتعامل مع احزاب المعارضة من واقع وظيفته كبديل للرئيس فهو يفضل الاحزاب التى يفضلها الرئيس .. وفى الاول من نوفمبر عام ١٩٧٤ اى بعد انتخابه رئيسا لمجلس الشعب بيوم واحد أشار فى كلمته امام طلاب جامعة الاسكندرية الى ان المعارضة ضرورية فى مجلس الشعب لمعرفة الرأى والرأى الآخر .. ولكننى لا أتخيل ان نجلس القرفصاء ونطالب بالاحزاب .. ان علينا ان نفعل شيئا .

وبعد هذا الكلام بستة اسابيع فقط سأله صحفى بالأهرام عن حقيقة ما يتردد عن تأسيس أحزاب للمعارضة ! .. فأجاب سيد مرعى بأن المعارضة موجودة فى المجلس بالفعل من خلال اختلاف الآراء بين الأعضاء .. وأوضح أن تجربة الأحزاب فى العهد البائد كانت لها سلبياتها مما لايشجع على تكرارها .

وفى نهاية عام ١٩٧٥ ـ اى بعد اسبوع من تعيينه رئيسا للجنة المائة .. لوحظ ان سيد مرعى يتعمد وضع حدود للمناقشات .. وكان ذلك تحذيرا من الإفراط فى التفاؤل حول مستقبل الحرية السياسية فى مصر .

وفى الجلسة الافتتاحية للجنة المائة يوم ٢ فبراير عام ١٩٧٦ سأله احد الاعضاء : هل قرارات هذه اللجنة ملزمة ولها قوة القانون ام ستكون مجرد اقتراحات ؟ .. ورد على الفور بأنها مجرد اقتراحات وسوف تعرض على الرئيس السادات لبحثها وفقا لاعتباراته .

وفى لقاء مع صحفى بجريدة القبس الكويتية .. نفى سيد مرعى بشدة ما يتردد حول تأسيس أحزاب سياسية .. وقال إن الاتجاه العام ضد تكوين أحزاب فى الوقت الراهن .

بعدها بوقت قصير حدث عكس هذا الكلام حيث بدأت الاستعدادات الخاصة بالانتخابات وفقا لتقرير اللجنة .. وبدا واضحا أن المعارضة غير متجانسة حيث تضم فئة من المستقلين بجانب أعضاء حزبى اليمين واليسار الذين طالبوا بإعادة تقسيم المراكز الانتخابية قبل الشروع فى اجراء الانتخابات .. وقد رفض سيد مرعى هذا الطلب .

وطالب آخرون بإشراف حكومة محايدة على الانتخابات خاصة . وان ممدوح سالم رئيس الوزراء هو رئيس حزب الوسط .. فأجاب بأنه ليس هناك مايدعو للخوف من إشراف الحكومة الحالية على الانتخابات حيث أن ذلك مايحدث فى جميع بلاد العالم .. وفى بريطانيا على سبيل المثال ـ أشرفت حكومة حزب العمال على الانتخابات ومع ذلك نجح حزب المحافظين .

وفى ١٤ سبتمبر اى قبل يومين فقط من الانتخابات أصدرت الحكومة امرا عسكريا يقضى بتحصيل غرامات مالية كبيرة من مالك العقار فى حالة ثبوت تقاضيه خلو الرجل .. وتضمن الامر العسكرى أيضا فرض ضرائب على عائدات هذه العقارات .. وكان المقصود من ذلك احتواء ازمة المساكن قبل الانتخابات .

وكان الامر العسكرى بمثابة استفزاز لمشاعر الملاك .. مما جعل البعض يعبر عن سخريته من وعود الحكومة بالحريات .. وربما لايعرف البعض ان الدستور المصرى يفرض على مجلس الشعب الموافقة على كل القرارات التى تتعلق بالضرائب ..

مع ان فرض هذه الضرائب يتناقض مع اسس العدالة الاجتماعية التى يكفلها الدستور نفسه .

اى ان فرض ضرائب على هذه الشريحة من المواطنين بالذات يعد قرارا غير دستورى .. وقد كان من المفروض ان يدافع رئيس مجلس الشعب عن الحق الدستورى للمجلس ويمتنع عن مناقشة مثل هذه القرارات .. ولكنه لم يفعل ذلك .

ومن الطبيعى الا يتعاطف سيد مرعى أو غيره مع هذا الأمر العسكرى .. ومع ذلك فقد دافع عنه .. وقد أجاب عن سؤال وجهه احد الصحفيين مؤكدا ان الدستور يجيز إصدار مثل هذه الاوامر العسكرية لأننا فى دولة حرب .. وأشار الى أن هذا الامر العسكرى سوف يعرض على مجلس الشعب فى بداية جلسته فى شكل مشروع قانون مع القانون المقترح الخاص بالضرائب ..

ويحدث مالم يكن فى الحسبان فقد وافق مجلس الشعب على قانون الضرائب كما وافق على بنود الأمر العسكرى ولكن رفض الرئيس السادات تنفيذه .

وعلى أى حال فقد كان سيد مرعى يخرج عن القواعد فى بعض الأحيان ـ والمقصود بالقواعد هنا هو خط الرئيس السادات ـ فقد رفض استخدام مضبطة المجلس للتحقيق فى بعض قضايا انحرافات الأعضاء او مايطلق عليه قضايا الفساد .

وبالرغم من ان مجلس الشعب يضم عدة أجهزة للتحقيقات إلا انه لم ينجح فى كشف طلاسم قضية واحدة .. ولذلك أشار جمال الدين الحمامصى الصحفى بالاخبار الى ضرورة استعانة هذا الجهاز ببعض التنفيذيين من الخارج .

وذكر سيد مرعى ـ فى خطاب لجريدة الأخبار ردا على اقتراح الحمامصى ـ ان ذلك يضر باستقلالية المجلس وان مضبطة هذا المجلس فوق مستوى هذه التحقيقات والشبهات .

وعندما سجلت احزاب المعارضة إعتراضها ـ على إرسال رجال الصاعقة المصريين للارناكا للقبض على الارهابيين الذين قتلوا يوسف السباعى رئيس مجلس إدارة مؤسسة الأهرام فى فبراير عام ١٩٧٨ ـ لم يجد سيد مرعى مفرا من الدفاع عن قرار الرئيس بالرغم من ان رجال الصاعقة المصريين لم يتمكنوا من قتل أو القبض على اى من هؤلاء الارهابيين .

وكانت المعارضة وحملة الانتقادات تشتد فى بعض الأحيان .. وربما يهوى البعض قيادة سيارة الديمقراطية بأقصى سرعة مع أن الرئيس قد وضع سلفا حدودا للسرعة وهنا يأتى دور سيد مرعى « كفرملة يد » .

والمؤكد أن سيد مرعى لم يكن راضيا عن دوره كمتحدث باسم الرئيس ومدافع عن قراراته .. فقد كانت مواهبه تتيح له وظيفة أكثر بريقا يمكن أن يعبر من خلالها عن فكره التقدمى وثقته فى قدراته على الحوار ومناظرة الحجة بالحجة .

ولاشك ان طموح سيد مرعى ورغبته فى الصعود لقمة الهرم السياسى هى التى أرغمته على التودد للرأى العام بينما يقف بالمرصاد لأى محاولة لتهديد سلطة الرئاسة .

الفصــل الثــالث

ســـياسات حـزبيــــــة

وبالرغم من قربه من السادات وسياساته غير المقبولة شعبيا .. قرر سيد مرعى إقامة علاقات مع نواب المعارضة المرموقين بغض النظر عن انتماءاتهم الحزبية .

وعلى اى حال فقد كان الاسلاميون لايثقون بسيد مرعى على اعتبار انه علمانى .. وبالفعل - قام رئيس مجلس الشعب بمساعدة جمال العطيفى وكيل المجلس الأكثر ميولا للعلمانية بإحباط محاولة الاسلاميين لتطبيق بعض بنود الشريعة الاسلامية ومنها منع تعاطى الخمور على سبيل المثال .

وفى نهاية صيف عام ١٩٧٧ تم عقد جلسه مشتركة فى القاهرة للبرلمانين المصرى والسودانى .. ووجدها الاسلاميون المصريون والسودانيون فرصة لاثارة كثير من القضايا التى تتعلق بالشريعة الاسلامية مع الوضع فى الاعتبار ان نسبة كبيرة من البرلمانيين السودانيين من الاسلاميين .

وحرص سيد مرعى فى هذا اللقاء على تجنب المواجهة وأعلن تعاطفه مع قضاياهم ومطالبهم بشأن تطبيق الشريعة .. لكنه حذر من ان الوقت ليس مناسبا بعد لتطبيقها .

والمعروف ان مصر كانت تجرى مفاوضاتها مع إسرائيل فى ذلك الوقت .. وربما كانت فى حاجة لدعم دول الغرب للضغط على إسرائيل لقبول التنازلات .. وقد نصح سيد مرعى الأصوليين بالتريث فيما يتعلق بتطبيق الشريعة حتى لايترجمه الغرب المسيحى ترجمة خاطئة مما يعطى ذريعة للأعداء .

وعندما كان أمينا للاتحاد الاشتراكى - اى قبل هذا اللقاء بعدة أعوام - قرر الذهاب للحج بعد أن اتهمه البعض بانه اشتراكى ملحد .. وحرص ايضا على اضافة ايات من القرآن الكريم لخطبه .

والمؤكد ان هؤلاء الاسلاميين قد كسبوا أرضا شاسعة فى فترة السبعينيات ولذلك بدأ مرعى فى تكثيف اتصالاته برجال الدين الرسميين - على سبيل المثال - إلتقى بشيخ الازهر وأبدى دعمه لفكرة إنشاء فرع لجامعة الازهر بالزقازيق بمحافظة الشرقية .

وفى نهاية شهر يناير عام ١٩٧٧ تطوع للقاء طلاب جامعة الأزهر الذين كانوا يهددون بالقيام بمظاهرة .. وواظب خلال هذه الفترة على الظهور بجانب الرئيس السادات وكبار رجال الدين فى صلاة الجمعة .

وبالرغم من كل ذلك فشل سيد مرعى فى كسب ثقة الاسلاميين اليمينيين .. وكان النواب الأصوليون الذين يمثلون محافظات الصعيد اكثرهم عداء له .. ولم يكن غريبا ان يشكو لصحفى كويتى من هجوم الأئمة عليه وعلى السادات فى خطب الجمعة .. وبالرغم من كل مشاعر الكراهية حرص على عدم إغلاق خطوط الاتصال بالإسلاميين .

وهناك مجموعة أخرى تكره سيد مرعى كراهية الخمر وهم « طلبة الجامعة » وقد تعامل معهم بنفس الأسلوب الذى تعامل به مع الإسلاميين .

ومنذ بداية عمله كأمين للاتحاد الاشتراكى فى بداية عام ١٩٧٨ كان هدفا لضربات طلبة الجامعة التى كانوا يوجهونها للنظام الحاكم .

وعندما كان أمينا للاتحاد الاشتراكى كان الطلبة يطلقون عليه « الاقطاعى .. الرأسمالى » .. وخلال مظاهرات طلبة الجامعة عام ١٩٧٥ وعام ١٩٧٧ - إعتراضا على رفع أسعار السلع الغذائية - سمع كل الناس الهتاف الشهير : « سيد بيه .. سيد بيه .. كيلو اللحمة باتنين جنيه » .

وفى أحداث ١٨ ، ١٩يناير عام ١٩٧٧ مرت المظاهرة من امام مجلس الشعب وظهر سيدمرعى للحظات مطلا من البلكونة - حيث كان وقتها بمكتبه - ورآه أحد المتظاهرين وأخذ يهتف : « الحرامى أهه .. الحرامى أهه » .

والحقيقة ان سيد مرعى كان دائما حساسا فيما يتعلق بمظهره وكرامته .. ولذلك حاول منع مراسل مجلة « تايم » الامريكية من كتابة هذه القصة حيث اتصل سكرتيره بالمجلة لوقف نشر هذه القصة لكن المجلة رفضت ذلك طبعا .

وبالرغم من هذا العداء السافر .. حرص على مد الجسور مع طلبة الجامعة ولم يتجنبهم كما فعل باقى حاشية الرئيس السادات .

وعلى مدى شهور الاضطرابات الساخنة على مدى عامى ١٩٧٤ - ١٩٧٥ - عندما تظاهر الطلبة فى الشوارع إحتجاجا على الظروف الاقتصادية السيئة وعدم وفاء الحكومة بوعودها بشأن الحرية السياسية - قام سيد مرعى بعقد سلسلة من اللقاءات بطلبة الجامعة .

وخلال هذه اللقاءات كان واضحا أنه حريص على مد الجسور والقنوات المفتوحة مع الطلبة حيث أبدى تعاطفه مع قضاياهم .. ووجه اللوم للحكومة على اعتبار انها المسئولة عن هذه الأحداث وعلى رأسها عبد العزيز حجازى رئيس الوزراء لانها لم

تحسن تنفيذ سياسة الانفتاح الاقتصادى .. ووجه اللوم أيضا للاتحاد الاشتراكى وعلى رأسه محمد حافظ غانم « الامين » لانه فشل فى فتح قنوات الاتصال مع الطلبة .

ومع « نبرة الصلح » التى تبدو من هذا الحوار والتى ادت لقلق حجازى وشعور حافظ غانم بالحرج إلا أنه كان لابد من وسيلة ما لتهدئة الطلاب .

والمؤكد ان سيد مرعى قد نال إعجاب مجموعة ـ يطلق عليها ـ « أعداء الرئيس » وهم اليساريون حيث استطاع ان يحقق معهم ما فشل فى تحقيقه مع مجموعات اخرى .

وفى معسكر محمد حسنين هيكل ـ فى فترة حكم عبد الناصر ـ تعرف سيد مرعى على عدد كبير من المثقفين اليساريين وخاصة هؤلاء الذين لهم علاقة بجريدة الاهرام وخاصة الكاتب لطفى الخولى رئيس تحرير مجلة الطليعة .

وخلال أحداث ١٨ - ١٩ يناير قام السادات بطرد لطفى الخولى من الأهرام .. وحرص الرئيس على توجيه كلمة له فى خطاب على شاشات التليفزيون ذكر فيه : « إنه لايمكن أن يعمل الكافر صحفيا » .

وكان لطفى الخولى حريصا على عدم إحراج سيد مرعى حيث توقف عن زيارته ولكن لم تنقطع الاتصالات التليفونية بينهما .

وحرص على التعرف بالجيل الجديد من الصحفيين اليساريين .. واستطاع إقناع السادات بالإفراج عن محمد سلماوى الصحفى بالأهرام وهو فى نفس الوقت إبن أحد أفراد شلة سيد مرعى بكلية الزراعة عام ١٩٣٧ .

وكان قد تم القبض على « سلماوى » فى أعقاب أحداث يناير عام ١٩٧٧ واتهم باثارة الشغب .. وتم إسقاط هذه التهمة بعد ذلك .

وقد وصف ابو سيف يوسف الكاتب اليسارى بمجلة الطليعة وعضو الاتحاد الاشتراكى سيد مرعى بأنه من الاحرار التقدميين لكنه يتميز بشخصية محافظة .. وربما يكون ذلك هو رأى اليساريين فيه .. حيث أن كثيرا منهم يرون أن أفكاره مطابقة لآرائهم . وانه من اكثر رجال حاشية الرئيس دعما للديمقراطية .

والكل يعرف انه قد تعرض لهجوم شديد من ناحية اليمين المحافظ خلال مناقشات تطوير الاتحاد الاشتراكى عام ١٩٧٢ .. واتهمه محمد محمود عضو الاتحاد الاشتراكى عن منطقة الصعيد ـ والذى اصبح احد علامات حزب الوسط بعد ذلك ـ بأنه قد فتح الباب على مصراعيه للناصريين واليساريين والشيوعيين .

وربما يفسر ذلك عدم إدانة اليساريين لسيد مرعى أثناء قيامه بتحجيم مناقشات أعضاء الاتحاد الاشتراكى حيث تفهموا جيدا دوره كوسيط للرئيس .. وكانوا يعرفون انه يحاول قدر جهده أن يجعل الباب مفتوحا ولو قليلا .

ويرى اليساريون انهم متفقون تماما مع سيد مرعى حول سياسة الانفتاح الاقتصادى حيث يعتقد مرعى انها سياسة جيدة من الناحية النظرية ولكن لم تنفذ بالصورة الصحيحة .. وكان يوجه انتقاداته للحكومة لأنها قد وعدت بالكثير بينما تستطيع ان تفى بالأساسيات كالملابس الرخيصة وحل مشكلة الإسكان .

وانتقد بشدة المزايا والإعفاءات التى تمنح للشركات بالسوق الحرة ببورسعيد حيث ان سياسة الانفتاح عليها ان تشجع الاستثمارات فى مؤسسات إنتاجية كبرى .

والمؤكد أن هذه التصريحات تشير إلى أن سيد مرعى يسير فى خط مشابه لخط عزيز صدقى رئيس الوزراء الأسبق .. وربما يخسر بها اصحاب المال والتجارة ولكنه يكسب كل أصحاب الأعلام الحمراء .

وعندما فقد « مرعى » شقيق سيد مرعى وظيفته كرئيس لمجلس إدارة الشركة العامة للكيماويات بعد بيعها للقطاع الخاص عام ١٩٧٥ .. قام سيد مرعى بجمع العاملين بالشركة وألقى خطبة عصماء أوضح فيها أن القطاع الخاص نظام طفيلى يعتمد على الاستيراد أكثر مما يعتمد على الإنتاج .. وقد اشتهر سيد مرعى بهذا الحادث مما أهله للحصول على أوراق اعتماده كأحد المدافعين عن القطاع العام .

وكان سيد مرعى يعرف عددا كبيرا من قيادات منظمة التحرير الفلسطينية .. وكان من مؤيدى الدعم المصرى للقضية الفلسطينية .. وظل يردد نفس الكلام بعد رحلة السادات للقدس واتفاقيات كامب ديفيد .

وفسر الكثيرون استقالته من رئاسة مجلس الشعب فى اكتوبر عام ١٩٧٨ بانه « غير موافق » على السلام مع إسرائيل .. وسواء كان هذا التفسير صحيحا أم لا فإنه يلمح لموقفه من هذه القضية .

الفصل الرابع

مناورات مع المعارضة

وكانت مجموعة المستقلين ـ بمجلس الشعب ـ من المجموعات التى عانى سيد مرعى فى التعامل معها حيث يشكلون جبهة من الصعب التحكم فيها .. وكان عدد أفراد هذه الجبهة ١٩ مستقلا فازوا فى الانتخابات البرلمانية عام ١٩٧٦ .. وكان هذا الوقت هو ربيع الديمقراطية .

وكان يجمع افراد هذه الجبهة هدف واحد هو دفع قطار الديمقراطية بأقصى سرعة ممكنة بالضغط على الحكومة للحصول على امتيازات أكثر لصالح المعارضة ولم تكن هناك فرصة أمام سيد مرعى للتعرف على عدد كبير منهم حيث يشكلون جبهة تضم بعض اعضاء بحزب الوفد القديم وأعضاء سابقين بحزب مصر الفتاة والاخوان المسلمين كما تضم اعضاء سابقين بمجلس قيادة الثورة .. أى مجموعة غير متجانسة .

ودور سيد مرعى معروف سلفا فى مواجهة هذه الجبهة وهو « فرملة » قطار الديمقراطية الذى يركبونه بين الحين والآخر .

ويعد حلمى مراد واحدا من أبرز جبهة المستقلين وكان وزيرا للتربية والتعليم فى الفترة بين عامى ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ واحد انصار حزب مصر الفتاة فى العهد البائد وشقيق زوجة أحمد حسين مؤسس مصر الفتاة .

وقرر مراد شن هجوم على سيد مرعى بعد المعركة الانتخابية مباشرة مستخدما القوة فى فتح باب الحرية السياسية على مصراعيه .. فأرسل منشورا لأحزاب المعارضة يوضح فيه رغبته فى منع إعادة ترشيح مرعى رئيسا لمجلس الشعب .. وأرسل نسخة من هذا المنشور لجريدة الأهرام .

وأجلت جريدة الاهرام نشره حتى يقوم سيد مرعى بالرد عليه ـ وبالفعل ـ فوجىء القراء بالمنشور والرد عليه على صفحات الأهرام فى عدد واحد .. وكان واضحا ان مراد يعترض على إعادة ترشيح سيد مرعى رئيساً للمجلس لثلاثة أسباب أولها أنه لابد من إتاحة الفرصة لقيادة جديدة فى هذا الموقع وثانيها أن الدستور يحظر انتخاب

رئيس لمجلس الشعب يمت بصلة قرابة أو نسب لرئيس الجمهورية .. وثالثها أن تحقيق العدالة يقتضى ان يكون رئيس المجلس مستقلا .. بينما سيد مرعى أحد بطانة حزب الوسط الحاكم .

وكان رد سيد مرعى اكثر عنفا من عريضة مراد حيث ذكر فيه انه اذا كان « التجديد » فى حد ذاته مبدأ سارى المفعول فقد كان متوقعا ألا يفوز الدكتور مراد فى انتخابات عام ١٩٧٦ على اعتبار انه وجه سياسى قديم حيث شغل مناصب قياديه وقام بالتدريس فى الجامعة وبعدها عمل فى الوزارة .

وربما وجدها سيد مرعى فرصة ليهدد مراد حتى لا يكرر المحاولة فقال فى رده : انا لاأريد أن أناقش معه اليوم ما يردده دائما حول خلافه مع عبد الناصر .. لقد كنت شاهدا على هذه الواقعة .

- وربما يأتى يوم أسأل عنها - يومها سأقول الحقيقة مجردة .

ورد على مراد قائلا : الدستور المصرى لايعترف بروابط المصاهرة .. والمصاهرة التى تربطنى بالرئيس من الامور العارضة التى لم أستفد منها ولم يكن لها تأثير على مشوارى السياسى .

وحرص فى رده على أن يتجنب اكثر الامور حساسية وهى إنتماؤه لحزب الوسط .. ولكنه ذكر ان حزب الوسط يشكل أغلبية المجلس وله الحق فى اختيار رئيسه .

وارسل حلمى مراد عريضة أخرى لجريدة الاهرام يرد فيها على مقال سيد مرعى لكن رفضت جريدة الأهرام نشره .. وبذلك كان مرعى آخر من أدلى بدلوه .

ولم ينته الموضوع عند هذا الحد فقد كتب حلمى مراد عريضة أخرى قام احمد حسين ناصر - العضو المستقل - بتوزيعها على الأعضاء .. يطالب فيها بترشيح العضو المستقل محمود القاضى رئيسا للمجلس .

وكان لسيد مرعى اليد العليا - طبعا - حيث حصل على ٣١١ صوتا مقابل ٣٥ صوتا لمحمود القاضى .

وبالرغم منه انه قد تعرف بالمستقلين فى ظروف توتر سيئة .. ولم يكن أمامه إلا أن يكشر لهم عن أنيابه إلا أنه حرص على إقامة علاقات طيبة معهم فى الشهور التالية .

وحين وقف عبد المنعم القيسونى أمام الميكروفون فى المجلس لإعلان إجراءاته الاقتصادية برفع الدعم عن عدد من السلع الأساسية .. ترك سيد مرعى مقعده على المنصة وجلس فى مقاعد الأعضاء بجانب حلمى مراد .

وكان تصرف مرعى بهذه الطريقة مقصودا طبعا .. وتعد رسالة موجهة بأنه برىء من هذه الإجراءات وأنه لم يتم مشاورته بشأنها .

وفى أعقاب المظاهرات التى اجتاحت الشوارع بعد بيان القيسونى .. حرص سيد مرعى على أن يداعب الأعضاء قائلا .. إن حلمى مراد لديه حس سياسى وذكاء اكثر من الحكومة عندما توقع المظاهرات فى أعقاب البيان وكان بالطبع يخطب ود المستقلين بهذا الكلام .

وكان على سيد مرعى وحلمى مراد أن يندفعا معا جنبا إلى جنب هذه المرة مع الأحداث ـ بعد أقل من شهر واحد ـ عندما ثارت ثائرة السادات عندما وصله خطاب إستفزازى من كمال الدين حسين عضو المجلس المستقل متجاهلا فيه ان السادات قد اصبح رئيسا للجمهورية .. وكان حسين يعارض فى خطابه الاستفتاء الذى ينوى السادات إجراءه لفرض عقوبات على مثيرى الشغب .

وقد اصدر السادات قرارا حاسما كعادته حيث امر بفصل كمال الدين حسين من عضوية المجلس .. وقام حلمى مراد ليتحدث بالنيابة عن المستقلين بالمجلس خاصة ان كمال الدين حسين واحد منهم وكان على مراد ان يقترب اكثر من سيد مرعى حتى يحتفظ حسين بعضويته ولا مانع فى هذه الحالة من القيام بالوساطة للمصالحة .

وكانت نوايا سيد مراعى واضحة وهى الا يتحول كمال الدين حسين عدوه اللدود الى شهيد بين يوم وليلة ولذلك وافق على تقديم وثيقة للرئيس من جبهة المستقلين يعبرون فيها عن أسفهم وإدانتهم لخطاب حسين .. لكن الرئيس أصر على موقفه .

وتم فصل حسين من عضوية المجلس فى ١٤ فبراير بالرغم من ان ٢٤ عضوا قد عارضوا قرار الفصل ـ وعلى اى حال ـ فقد حاول سيد مرعى مساعدة مراد .. بل وفعل اكثر من ذلك حيث اختفى عن الانظار وترك لممدوح سالم المهمة الثقيلة وبذلك ظهر امام الجميع أبعد ما يكون عن تلك الامور الشائكة ليحظى بسمعه حسنة بين المستقلين .

وقد تحسنت ـ بالفعل ـ علاقته مع مراد ومجموعة المستقلين حتى تعدت هذه العلاقة حدود التعاون بينهما إلى المناورات البرلمانيه المشتركة والتحالفات .

وربما لاتدوم العلاقات الطيبة .. وفى شهر مايو ويونيه خاض مجلس الشعب صراعا للموافقة على مشروع قانون لتنظيم الاحزاب .. وكان البند الاول للقانون ينص على ضرورة موافقة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى على تأسيس اى حزب جديد وان ينضم لهذا الحزب ٢٠ عضوا بالمجلس .

وفى ٢٩ مايو وافقت الأغلبية وهم اعضاء حزب الوسط أتوماتيكيا على أربعة بنود من مشروع القانون ـ وشعر أعضاء احزاب المعارضة انهم ليسوا اكثر من ديكور ـ وفوجىء سيد مرعى بانسحاب اعضاء احزاب المعارضة من المجلس .

ودعا مرعى أحزاب المعارضة للتعبير عن آرائهم بدلا من الانسحاب .. وعاد الاعضاء للقاعة وعبروا عن رأيهم بضرورة إجراء بعض التعديلات فى مشروع القانون .. وتم اقناع قيادات حزب الوسط بقبول هذه التعديلات كتنازلات هذه المرة ولكن لم يتغير بند القانون الذى ينص على ان تكوين حزب جديد يتطلب موافقة ٢٠ نائبا بالبرلمان على الانضمام اليه مع ضرورة موافقة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى .

وقد سبب هذا البند المزعج إنسحابا آخر للمعارضة فى الجلسة التى عقدت يوم ١٢ يونيه .. وأدى ذلك لاصطدام سيد مرعى بالمعارضة مرة اخرى حيث وجه حديثه اليهم قائلا : إذا كان للانسحاب الأول سبب برلمانى .. فإن الانسحاب الذى حدث الآن ليس له اى معنى ديمقراطى لان الانسحاب المخطط ليس الا مناورة برلمانية .. واذا كان البعض يعتقد أنه برلمانى قديم فقد مارست العمل البرلمانى قبله بسنوات طويلة .

وكان ذلك يعنى أن هناك حدودا لدعم سيد مرعى للمعارضة .. ويبدو أنهم قد تعدوا الحدود المسموح بها ولابد من الرد عليهم .. وقد كانت المعارضة ـ على أى حال ـ ترى أن سيد مرعى يتحدث بلغة المنطق ويمكن معه ترتيب الاوراق .

وبالرغم من أنه أحد رموز النظام إلا أن أحزاب المعارضة قد اعتمدته كسياسى لاريب فيه .. وقد توصل حلمى مراد ورفاقه من المستقلين لنتيجة واضحة وهى ان سيد مرعى أفضل من يشغل وظيفة رئيس مجلس الشعب ... والدليل على ذلك انه عندما بدأ حملته لإعادة انتخابه رئيسا للمجلس فى نهاية عام ١٩٧٧ لم يعترضه أحد .

الفصل الخامس

الدفاع عن قطاع الزراعة

والمؤكد ان سيد مرعى لم يعد يحيط به أعوانه على مدى سنوات السبعينات كما كان الحال فى فترة حكم عبد الناصر .. وليس غياب الاعوان من الأمور الغريبة فى تلك الفترة حيث لم يشغل مرعى اى منصب رسمى فى قطاع الزراعة بعد شهر يناير عام ١٩٧٢ ولذلك فقد القدرة على تعيين أبناء الأقارب والمعارف وأفراد الشلة فى عزبة القطاع الحكومى التى كان يديرها بمعرفته فى عصر عبد الناصر ..

والجدير بالذكر ان افراد شلة سيد مرعى ورفاقه القدامى قد وصلوا لسن المعاش فى منتصف السبعينات وأصبحوا يبحثون عن وظائف لاتتطلب جهدا وتدر عائدا كبيرا .

وربما يرجع غياب الأعوان والأتباع لسبب آخر وجيه وهو أن الحكومة قد فقدت الكثير من نفوذها وجاذبيتها فى عصر السادات لحساب القطاع الخاص الذى تألق وأصبح يعطى الكثير لموظفيه .

وبالرغم من أنه قد أصبح بعيدا عن قطاع الزراعة إلا أنه كان حريصا على ألا يستخدم القطاع الزراعى ضده فى يوم من الايام كما حاول صدقى ان يفعل فى عام ١٩٧٢ ولذلك عمل على الإطاحة بحكومة صدقى والتخلص من مصطفى الجبلى وزير الزراعة .. وعمل ـ بعد ذلك ـ على الحد من نفوذ الجبلى بالوزارة بقطع الذيول والأذناب .

وعندما قام ممدوح سالم بتشكيل الحكومة قرر تقديم خدمة خاصة لمصطفى الجبلى خاصة أنه يكره مرعى مثله تماما لذلك وضع ممدوح سالم كل ثقله لترشيح الجبلى مديرا لمنظمة الأغذية والزراعة .

ووجد سيد مرعى أنه لابد أن يفعل شيئا .. وأنه قد جاء الوقت ليستخدم نفوذه فذهب مباشرة إلى السادات وطلب منه ألا يساعد الجبلى فى الوصول لهذا المنصب .

وقامت وزارة الخارجية المصرية بإجراء مفاوضات مع الحكومات الأجنبية لجمع الأصوات دعما للجبلى وتركت الوزارة اصوات بعض الدول معلقة ممايعنى ان الاصوات بصفة عامة غير كافية لنجاحه .

وتقدم للترشيح فى هذه الوظيفة إدوارد صوما اللبنانى الجنسية وفاز بها .. وقد غضب الجبلى من سيد مرعى نتيجة هذه المكيدة ولكنه وجد سلواه فى وظيفة إستشارية مع الحكومة العراقية .

وعلى اى حال فقد استطاع سيد مرعى أن يمنع أى شخص على شاكلة وغرار الجبلى من اقتحام منصب وزير الزراعة بعد عام ١٩٧٣ .. وقد نجح فى تحقيق ذلك حفاظا على مكانته بقطاع الزراعة إلا فى حالة واحدة وهى عبد العظيم أبو العطا .

وتولى وزارة الزراعة فى هذه الفترة وجوه يقبلها سيد مرعى ولهم خلفية سياسية أمثال عثمان بدران وابراهيم شكرى وعبد العزيز حسين .. ووزراء آخرون ليس لهم اى ثقل سياسى أمثال محمد زكى الذى تولى الوزارة عامى ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ فى حكومة السادات « ومحمود عبد الآخر » الذى تولاها فى حكومة عبد العزيز حجازى .

وكان عبد المحسن ابو النور وزيرا طموحا على غرار الجبلى ويعرف ماسوف يفعله ولم يعرف قطاع الزراعة وزيرا مثله منذ العهد البائد حيث كان على درجة عالية من الكفاءة بما يكفى لإثارة غيرة سيد مرعى .

ومع ان « ابو العطا » مهندس مدنى وقد عينه ممدوح سالم وزيرا للرى فى وزارته الاولى .. ثم كسر كل القواعد والتقاليد وضم إليه وزارة الزراعة أيضا فى الحكومة التى شكلها فى ١٩ مارس عام ١٩٧٦ .

والمعروف أن هناك صراعا لاينتهى بين وزارتى الأشغال العامة التى يديرها مهندسو الرى .. والزراعة التى يديرها المهندسون الزراعيون .. وكان لضم « ابو العطا » للوزارتين معا معنى واحد هو ان وزارة الاشغال قد احتلت وزارة الزراعة .

وقد عمل سيد مرعى مع « ابو العطا » لفترة لكن لم يكن بينهما صداقة ابدا ربما لان شقيق « ابو العطا » متزوج من اخت عدوه اللدود كمال الدين حسين .. وقد شغل ابو العطا أيضا منصب مدير مكتب مشتريات احتياجات السد العالى فى موسكو .. وهو من انصار الخطط الطموحة لاستصلاح الاراضى بعكس سيد مرعى .

وعرف ممدوح سالم أن « أبو العطا » هو الاختيار الافضل خاصة أن السادات يهتم كثيرا بخطط استصلاح الاراضى .. ويمكن للسادات ان يقارن بنفسه بين سلبية « مرعى » وإيجابية « أبو العطا » فيما يتعلق باستصلاح الاراضى .

وكان « سالم » يعرف أيضا ان مكائد سيد مرعى وغيره من المهندسين الزراعيين ضد « ابو العطا » سوف تذهب أدراج الرياح لان « ابو العطا » ـ ببساطة من محافظة المنوفية وكان السادات مشهورا بدعم أبناء محافظته طبعا .

وحرص « أبو العطا » الا يخذل « سالم » فبدأ على الفور حملة دعاية واسعة النطاق لتجاربه فى مجال استصلاح الاراضى .. وحرص ايضا على توثيق علاقته بكبار موظفى وزارة الزراعة واستصلاح الاراضى وخاصة « صلاح العبد » .

وكان صلاح العبد وكيلا أول لوزارة استصلاح الاراضى وكانت مجرد وزارة بالاسم فقط أو لافتة على ديوان حكومى ـ وقد قام « ابو العطا » بنقل « العبد » ليشغل منصب وكيل اول وزارة الزراعة .

والمؤكد ان صلاح العبد موظف مهم جدا بالنسبة لأى وزير يعمل فى قطاع الزراعة لانه المدير المصرى لبرنامج الغذاء العالمى وهو البرنامج الذى يقدم دعما سنويا لمصر قدره ١٢ مليون دولار .. وكان سيد مرعى قد عينه فى هذه الوظيفة .. حين كان وزيرا للزراعة .. وعين أيضا إبن عمه وأخيه فى وظائف عليا بقطاع الزراعة باعتبارهم اقارب لعبد القادر العبد احد افراد شلة سيد مرعى فى الجامعة .

وقد شعر سيد مرعى بانزعاج شديد حين عرف ان صلاح العبد بدأ يسعى للتقرب من « أبو العطا » راعى الوزارة الجديد .

وكان شك مرعى فى محله فعلا حيث ساعد « العبد » وزيره « أبو العطا » فى تنظيم حملة إنتخابية ضخمة تكلفت الكثير ... وفاز أبو العطا على كمال الدين رفعت وهو احد الضباط الاحرار بمنطقة الدقى وبعد ان فاز ابو العطا فى الانتخابات لم يعد يهتم بوزارة الزراعة... وبدأ رجال سيد مرعى بقطاع الزراعة يصرخون فى كل مكان ويشكون وزيرهم لطوب الأرض لأنه يستخدم كل امكانيات الوزارة من سيارات وموظفين وأموال لدعم مستقبله السياسى .

ويبدو أن هذه الصرخات قد ازعجت ممدوح سالم فقام بإضافة إسم المهندس الزراعى عبد العزيز حسين وزيرا للدولة للزراعة وشئون السودان فى أول نوفمبر عام ١٩٧٦ تاركا « أبو العطا » على قمة القطاع الزراعى .

ولم يقتنع سيد مرعى وأعوانه بقطاع الزراعة بما فعله ممدوح سالم حيث كانوا يطلبون المزيد .. وكان على رئيس الوزراء ان يسلم ـ وبالفعل ـ قام بتنحية عبد العظيم أبو العطا من وزارة الزراعة ليكون وزيرا للرى فقط فى الحكومة التى شكلها فى الأول من فبراير عام ١٩٧٧ .

والمؤكد ان هذه الاوركسترا السياسية تكشف بوضوح حجم نفوذ سيد مرعى فى قطاع الزراعة فيما بعد عام ١٩٧٢ .. فقد عرف اتباعه أنه قد أصبح أحد المقربين من السادات وان عليهم أن يخطبوا وده بقدر المستطاع .

وكان ممدوح سالم يعرف حجم هذا النفوذ ولذلك قام بمطاردة رجاله بمكاتب الوزارة الفاخرة للحد من هذا النفوذ .. وقد نجح فى ذلك فعلا لأن السادات كان يؤيده .. وبالرغم من أن سيد مرعى كان يبدو مثل البرج الشاهق بين حاشية الرئيس إلا انه لم يعد قادرا على الدفاع عن عزبته القديمة .

الفصل السادس

مرعى ضد الاتحاد الاشتراكى

وبحكم منصبه كرئيس لمجلس الشعب كان عليه ان يخوض صراعا على النفوذ مع امين الاتحاد الاشتراكى ورئيس الوزراء ولايهم الأسماء هنا حيث أنه من الطبيعى ان تحتدم المعارك بين الثلاثة .

واصبح هذا الصراع هو السمة المميزة للسياسة المصرية منذ عام ١٩٧١ حتى تم حل الاتحاد الاشتراكى عام ١٩٧٨ ... وبعد ذلك تحول مجلس الشعب ليصارع الحكومة .. ويرجع ذلك الى ان السادات كان يتبع « سياسة » « فرق تحكم » .

وبدأ الصراع بين سيد مرعى والاتحاد الاشتراكى فى أعقاب توليه منصبه كرئيس لمجلس الشعب فى شهر اكتوبر عام ١٩٧٤ .

وكانت البداية حين قام السادات فى ديسمبر عام ١٩٧٤ بتشكيل لجنة لتطوير الاتحاد الاشتراكى تتكون من سيد مرعى رئيسا وعضوية محمد حافظ غانم امين الاتحاد الاشتراكى وعبد العزيز حجازى رئيس الوزراء وممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية .. وكان الهدف من هذه اللجنة هو انعاش الاتحاد الاشتراكى لاحتواء النشاط السياسى ـ وايا كان الهدف ـ فإن وضع سيد مرعى على قمة هذه اللجنة يعنى الاهانة للاتحاد الاشتراكى ولحافظ غانم . وربما يعطى مؤشرا بان اليد العليا قد أصبحت لسيد مرعى ومجلس الشعب .

وفى منتصف يناير عام ١٩٧٥ ـ وفى أعقاب موجة أخرى من مظاهرات الطلبة والعمال ـ قام سيد مرعى بإعداد التقرير الأول للجنة والذى تضمن مقترحات تطوير الاتحاد الاشتراكى النابعة ـ طبعا ـ من ورقة اكتوبر التى أعدها السادات والتى طالبت بتمثيل افضل للنقابات والاتحادات فى اللجنة العامة للاتحاد الاشتراكى .. لكن احدا لم يلتفت لهذا التقرير فى وسط تسوده الفوضى والاضطرابات .

ويبدو ان الاتحاد الاشتراكى بتكوينه التاريخى غير صالح لتحقيق شعار الحرية السياسية ولذلك بدأ سيد مرعى خطواته لتحقيق هذا الشعار من خلال مجلس الشعب بدلا من الاتحاد الاشتراكى .

وتزيد حدة المنافسة بين اللاعبين طالما ان اوراق اللعب مازالت على المائدة .. وفى مناقشات إعادة تنظيم وسائل التحكم فى الصحافة .. قرر سيد مرعى إلغاء دور الاتحاد الاشتراكى فى هذا الخصوص ـ خاصة أن الكرة فى ملعبه ـ ولذلك طالب بتأسيس مجلس أعلى للصحافة .

وكان الاتحاد الاشتراكى قد قام بالتحفظ على نسخ العدد الاول من جريدة الحرية الاسبوعية والتى كان يرأس تحريرها محمد صبيح .

وبدأ سيد مرعى يلمح لقيادات الاتحاد الاشتراكى الذين كانوا يشكلون تهديدا على عدد كبير من الصحفيين واشار الى ان هذه التجاوزات كانت نتيجة الحساسية والحرص الشديد على الاتحاد الاشتراكى . وبدأ يقارن بين الاتحاد الاشتراكى الذى لايقبل النقد وبين مجلس الشعب الذى يتحمل انتقادات الصحافة وبدأ يجنى ثمار خطته فى شهر ابريل بتنكيس الاتحاد الاشتراكى تمهيدا لهدمه لسطح الارض حيث تم إعفاء حافظ غانم من منصبه كأمين للاتحاد الاشتراكى ليحل محله رفعت المحجوب ..

وفى عام ١٩٧٥ أصبح واضحا ان الاتحاد الاشتراكى قد فقد عناصر وجوده وانه على فراش الموت .. وقد بدأ ينسحب فعلا من الساحة بعد أن اصبح المناخ لا يلائمه فى ظل الحريات وتكوين الاحزاب .

ولوقف حملات التشهير ضد الاتحاد الاشتراكى قام رفعت المحجوب بمحاولة لادخال الفزع فى قلوب الصحفيين بمؤسسة روزا اليوسف بالاطاحة برئيس تحريرها وتعيين رئيس تحرير جديد موال له .

ومع ذلك عادت مجلة روز اليوسف تهاجم المحجوب وتخرج له لسانها .. وانضمت إليها مجلة الطليعة اليسارية فى مواجهة الاتحاد الاشتراكى تطالب بالحرية السياسية من خلال مجلس الشعب وليس الاتحاد الاشتراكى مما يعنى ان الرماح فى حلبة المصارعة قد جعلت خطوات الثور ثقيلة . ولم يعد أمام سيد مرعى أو « التوريرو المصرى » إلا أن يوجه له الضربة القاتلة .

وعهد الرئيس السادات إلى سيد مرعى مهمة تشكيل لجنة المنابر التى تأسست فى نهاية عام ١٩٧٥ وشعور المحجوب معروف طبعا فيما يتعلق برئاسة سيد مرعى مرة ثانية للجنة تقوم بتطوير الاتحاد الاشتراكى .

ويبدو أنه تم تفويض السلطة لسيد مرعى ألا يضم لهذه اللجنة أعضاء الاتحاد الاشتراكى ـ وكان ذلك كثيرا على المحجوب الذى قرر إفساد أعمال هذه اللجنة بعقد سلسلة من الاجتماعات واللقاءات ضمت صناديد الاتحاد الاشتراكى فى القاهرة والإسكندرية لإعلان تضامنهم ضد سيد مرعى وإصلاحاته .

وطالما أن أعضاء الاتحاد الاشتراكى يشعرون بالخوف على المستقبل بعد تكوين المنابر أو الأحزاب . لم يعد أمام سيد مرعى إلا أن يعمل على تهدئة نفوسهم مؤكدا لهم أن تكوين المنابر لن يدمر الاتحاد الاشتراكى وإنما سينظم المعارضة من خلاله ووعد بإعادة انتخاب أعضاء اللجنة المركزية للإشراف على المنابر الثلاثة المزمع تأسيسها .

ولكن ماحدث كان غير ذلك تماما حيث لم تجر انتخابات اللجنة المركزية على الاطلاق وتم فصل المحجوب من وظيفته وتولى مصطفى خليل صديق سيد مرعى القديم منصب امين الاتحاد الاشتراكى .

وبدأ السادات فى تركيز اهتمامه بحزب الوسط وأصبح الاتحاد الاشتراكى مجرد ذكريات حتى تم حله تماما فى عام ١٩٧٨ .

وإذا كان الاتحاد الاشتراكى قد سقط قتيلا فإن الفضل فى ذلك يرجع لسيد مرعى الذى مهد لهذا الحدث ووجه إليه كثيرا من الضربات فى الفترة بين ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ ولم يكن مجرد مصادفة أن يقوم بعد ذلك بضم سلطات الاتحاد الاشتراكى لمجلس الشعب ليصبح مركز ثقل النشاط السياسى فى مصر كالغنائم والأسرى التى تسقط فى الحروب .

الفصل السابع

مرعى ضد « حجازى » و « سالم »

كان الصراع بين سيد مرعى وعبد العزيز حجازى رئيس الوزراء قصيرا ولكنه حاد .. وكرئيس لمجلس الشعب شن هجوما على حجازى باعتباره مسؤلا عن المظاهرات التى اجتاحت شوارع مصر فى شهر يناير عام ١٩٧٥ .

وفى هذا الهجوم لقن لرئيس الوزراء درسا فى السياسة .. واتهمه بانه يفتقر للحس السياسى .. وانه قد اهتم بالمبادىء الاقتصادية وتجاهل الحقائق السياسية .. وأنه قد خدع الجماهير بآمال كاذبة حيث أساء تقدير نتائج سياسة الانفتاح الاقتصادى مما يدل على أنه ضيق الأفق اكثر من سلفه عزيز صدقى .

وعلى اى حال فقد كان حجازى نفسه يشك فى جدوى سياسة الانفتاح .. وربما كان يرى أن سيد مرعى على حق فى انتقاداته .. والدليل على ذلك أن حجازى حاول الاقتراب من مرعى ولكن الأخير رفض لانه لم يكن ينوى سلاما لأن الهدف هو كرسى رئيس الوزارة ولذلك تحالف مع ممدوح سالم الذى يسعى لنفس الهدف .

وأصيب « حجازى » بالإحباط لأن كل الظروف ضده وبمرور الوقت أصبح رئيس الوزراء « مستهلكا » .. وفى ١٦ ابريل عام ١٩٧٥ تمت إقالته من منصبه ولم يكن قد تعدى الأشهر الستة فى هذا المنصب .

وتلقى سيد مرعى جائزة لاتليق به نظير جهوده فى الإطاحة بحكومة حجازى حيث ذهبت وظيفة رئيس الوزراء لممدوح سالم .. وذهبت وظيفة « نائب رئيس الجمهورية » ـ والتى أشيع أنها لسيدمرعى ـ لحسنى مبارك قائد القوات الجوية .. وبالمصادفة تم هذا يوم ١٦ ابريل وهو نفس يوم إقالة حجازى من منصبه .

وقد فسر السادات هذا الموقف قائلا : هؤلاء الذين يقولون إننى أعد سيد مرعى رئيس مجلس الشعب ليكون خلفا لى لم يقرأوا الدستور جيداً .. سيد مرعى هو الشخص الوحيد الذى لايمكن أن يكون رئيسا للجمهورية .. الدستور يقول إنه فى حالة وفاة او استقالة رئيس الجمهورية فإن رئيس مجلس الشعب يتولى رئاسة الجمهورية لمدة ٦٠ يوما يتم خلالها انتخاب الرئيس الجديد .. وغير مصرح لرئيس مجلس الشعب ان يتقدم للترشيح لهذا المنصب وفقا للدستور .

وعرف سيد مرعى ان المنصب الوحيد المتاح أمامه هو منصب رئيس الوزراء وليس اكثر من ذلك وفقا لاعتبارات السادات . وأنه ليس أمامه إلا أن يركز جهوده للتخلص من ممدوح سالم .

ولكنه من ناحية اخرى كان مشغولا بصراعه مع الاتحاد الاشتراكى ولم يكن يريد ان يحارب فى جبهتين فقرر تأجيل الجولة .

وتؤكد الظروف والملابسات انه قد ظل على علاقة طيبة برئيس الوزراء الجديد نحو ما يقرب من عام .. وكان يؤكد دائما على العلاقات الطيبة بين المجلس والحكومة .

وقال سيد مرعى فى نهاية الدورة البرلمانية فى يوليه عام ١٩٧٥ - إنه قد كان هناك تعاون كامل بين الحكومة والمجلس .. وردد نفس الكلام فى خطاب ألقاه بالبرلمان فى ١٨ اكتوبر عام ١٩٧٥ . وهو عكس ما قاله فى افتتاح الدورة البرلمانية منذ عام مضى حيث لن فيها « حجازى » رئيس الوزراء درسا فى مسئولياته تجاه مجلس الشعب وحذره من عدم عدالة توزيع « ثمار التنمية الاقتصادية » على الناس بالتساوى .

وعلى النقيض تماما .. قال سيد مرعى فى خريف عام ١٩٧٥ إنه سيتم مواجهة مشاكل الجماهير بالتعاون الكامل بين المجلس والحكومة .. وكان « يخطب ود » ممدوح سالم بهذا التصريح .

ولكن تغيرت العلاقة تماما فى ربيع عام ١٩٧٦ بعد ان تخلص من جحيم الاتحاد الاشتراكى وأصبح خالى اليدين ويمكنه التعامل مع الحكومة .

وبدأت المعركة الانتخابية بين الأحزاب الثلاثة وقام السادات بتعيين ممدوح سالم رئيسا لحزب الوسط وأصبح سيد مرعى عضوا بهذا الحزب - طبعا - مرؤوسا لسالم حيث لم يكن من المنطقى أن يذهب يمينا أو يسارا فى اتجاه أحزاب المعارضة .. وكأحد افراد حاشية الرئيس لم يعد أمامه إلا أن يلقى بنفسه فى سلة حزب الوسط وان يتقبل رئاسة سالم لهذا الحزب .

وكان يبدو ان هذا الوضع يؤرقه كثيرا واكتشف انه لم يعد أمامه حل إلا ان يكون مستقلا عن اى حزب .. وفى احدى اللجان التى تناقش مستقبل العمل السياسى أوضح سيد مرعى ان رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الشعب وامين الاتحاد الاشتراكى لم يكونوا أبدا أعضاء فى أى حزب سياسى .

وفى يوم ٧ مايو .. قال فى تصريح رسمى إنه لن ينضم لأى أحزاب سياسية وانه سيتقدم للترشيح فى الانتخابات البرلمانية القادمة كمستقل .

وأدرك ممدوح سالم أن مرعى يلقى القفاز فى وجهه إيذانا بالحرب فقام بتعيين عبد العظيم ابو العطا وزيرا للزراعة بالرغم من انه ليس مهندسا زراعيا .

وعلى اى حال فقد كان « سالم » فى مركز أرقى من « مرعى » حيث انه رئيس لحزب الوسط ورئيس للوزراء فى نفس الوقت .

وقد تعرض سيد مرعى لهجوم أعضاء حزب الوسط وهو أمر متوقع بعد تصريحاته بأنه لا ينتمى لحزب الوسط .. ولكن يحدث دائما مالم يكن فى الحسبان حيث أنقذه « سالم » من هجوم قبيلة الوسط ولا أحد يعرف طبعا إن كان قد فعل ذلك من تلقاء نفسه أو أرغمه السادات على ذلك .

وربما شعر سيد مرعى أنه رجل بلا أعوان حين بدأ « سالم » فى الاستعانة بسعد هجرس أحد رجاله السابقين لتوجيه الضربات إليه .. وقد أصبح أحد قيادات حزب الوسط وهى جائزة منحت له نظير الخروج من تحت عباءة سيد مرعى .

ويبدو أن الظروف كلها أصبحت ضده وكانت القشة الأخيرة التى قصمت ظهر البعير هى تحالف « سالم » مع فؤاد محيى الدين وزير الدولة لشئون مجلس الشعب .

وكان فؤاد محيى الدين منافسا خطيرا لسيد مرعى لأنه كان حلقة الوصل بين السادات والمجلس وعلى اى حال فقد كان الرئيس يسعى لإحداث هذا التنافس .

والجدير بالذكر أن فؤاد محيى الدين كان يعمل طبيبا وهو سياسى طموح وله طبيعة هجومية كما أن له علاقات ممتازة بالجيش وكان يؤدى دور « الكرباج » امدوح سالم فى البرلمان حيث كان يدفع أعضاء حزب الوسط للتصويت وفقا لما يريده الرئيس وبذلك لم يعد لسيد مرعى أى دور تحت القبة .

ووجد أن الملجأ الوحيد أمامه هو المعارضة لتقوية مركزه .. وبدأت خطته تثمر خلال مظاهرات يناير حيث أعطته الفرصة للتعبير عن شكوكه فى قدرات سالم وعبد المنعم القيسونى وزير المالية .

وكانت علاقته مع المعارضة قد تحسنت منذ موقفه مع جبهة المستقلين اثناء أزمة كمال الدين حسين وأصبحت العلاقة أفضل عندما أخذ المعارضة فى أحضانه عندما كشرت الحكومة عن أنيابها بعد مظاهرات يناير .

وأصبح شغل الحكومة الشاغل هو منع تضامن ٢٠ عضوا بالمجلس لتكوين حزب كما ينص القانون الخاص بالأحزاب السياسية الذى صدر عام ١٩٧٧ .

وهددت الحكومة بفتح ملفات الفساد لأى عضو يترك حزب الوسط وينضم لأحزاب المعارضة وقد تم اتخاذ هذا الإجراء مع بعض مؤيدى سيد مرعى ومنهم أحمد يونس رئيس مجلس إدارة الاتحاد التعاونى الزراعى المركزى الأسبق .

وقد كان لأحمد يونس دور كبير فى إلغاء مشروع قانون ضريبة البساتين التى اقترحها عزيز صدقى عام ١٩٧٢ .. وكان يشكل ثنائيا جيدا مع سيد مرعى .

وامام تهديدات الحكومة عبر أحمد يونس عن رغبته فى ترك مقعده بحزب الوسط والانضمام لحزب الوفد الجديد .. وتحركت الحكومة بسرعة لتفادى ذلك وأشارت الصحف بعدها لقضايا الفساد الساكنة ضد أحمد يونس فى الاتحاد التعاونى وبسرعة الصاروخ تم رفع الحصانة البرلمانية عنه وأعلنت الحكومة فتح ملف الاتحاد التعاونى .

وللاسف لم يكن سيد مرعى وقتها فى وضع يسمح له بحماية أى شخص وكان كل ما يستطيعه هو أن يجلس على مقعده الوثير فى المجلس ويتفرج على العرض الذى يقدمه ممدوح سالم يوميا ويقوم فيه بدور رئيس الحزب الحاكم ورئيس مجلس الشعب فى نفس الوقت ومع ذلك كان العامة يرون أن سيد مرعى أحد القلائل من أصحاب النفوذ فى مصر .

الفصـل الثـامـن

مـعــــــاش مبكـــــــر

ومع مرور الوقت إنكمش دور سيد مرعى كوسيط سياسى نتيجة لتغير سياسات مجتمع الصفوة . وبعد أن اصيب السادات بالفزع نتيجة لأحداث ١٨ ، ١٩ يناير لم يكن أمام سيد مرعى إلا الرضوخ لأوامر الرئيس ودعمه فى مواجهة كمال الدين حسين والآخرين الذين يطالبون بتأسيس أحزاب جديدة .

وبالرغم من أنه قد تمت صياغة قانون الأحزاب بحيث يفى بالمتطلبات وبالرغم من ارهاب الحكومة وأنيابها إلا أن ذلك كله لم يمنع من تسلل حزب الوفد الجديد الى الساحة السياسية بالشكل القانونى وفقا لقانون الاحزاب فى ٤ فبراير عام ١٩٧٨ .

وبدلا من ان يقوم الوفد بمواجهة اليسار المصرى كما كان السادات يتمنى تحرك الوفد الى مكانه فى التحالف مع باقى أحزاب المعارضة وفقا للرغبة المشتركة لتحقيق قدر أكبر من الديمقراطية .

وفى ١٢ مايو أدى حدث كبير لكهربة الجو السياسى حيث استقبلت الجماهير فؤاد سراج الدين رئيس حزب الوفد الجديد إستقبال الأبطال وهتفت له بلقب « زعيم الامة » وهو لقب لم يطلق إلا على سعد زغلول .

وباختصار اصبح « سراج الدين » من الشخصيات التى تشكل تهديدا على الرئيس خاصة فى ظل انتقادات الحزب التقدمى الوحدوى لسياسات السادات الخارجية .

وفى ربيع عام ١٩٧٨ بات واضحا أن السادات يعيش بين نارين فهو غير قادر على التراجع عن خططه بشأن الحريات .. ومن ناحية أخرى أصبحت أحزاب المعارضة تهدد النظام .. واصبح من الممكن أن يأتى يوم ويسمح فيه لحزب مثل الوفد الجديد أو أى حزب آخر او ائتلاف حزبى معارض بتشكيل الحكومة .. والصورة هكذا لايمكن تخيلها والأقرب للواقع أن يقوم السادات بالإطاحة بالمعارضة ويمارس الحكم بأسلوب ديكتاتورى .

وفى نهاية مارس بات واضحا أن نوايا الرئيس ليست طيبة ـ وعلى أى حال ـ فقد كان حزب الوسط يعمل وفقا لرغبات السادات . وقد طلب الحزب فصل « الشيخ عاشور محمد نصر » العضو الوفدى من المجلس .

وكان الشيخ عاشور قد أعلن استنكاره لما يجرى فى مجلس الشعب مشيرا إلى أن كل شىء يجرى تزييفه تحت القبة . وان هذا المجلس قد سقط مع السادات .

وفى حالة مثل حالة « الشيخ عاشور » .. لم يكن هناك مجال لحلول وسط . وعلى الفور قام ممدوح سالم رئيس الوزراء ورئيس حزب الوسط من مكانه ليقرأ عريضة اتهام « الشيخ عاشور » على أعضاء المجلس .. وعندما تقدم « حلمى مراد » للاعتراض على هذه العريضة وقف سيد مرعى رئيس المجلس له بالمرصاد .. ولذلك انسحب ٢٤ نائبا وفديا من المجلس إحتجاجا على هذا الاجراء .

والمؤكد ان سيد مرعى قد أصبح « كارت محروق » كوسيط سياسى وأنه وصل إلى نهاية الطريق تقريبا .

واستمر السادات فى تجارب الديمقراطية حتى بدأ حزب الوفد الجديد فى تكثيف جهوده لشغل المقعد الذى خلا بطرد الشيخ عاشور .

وقرر السادات إرتداء قناع الديكتاتور مرة أخرى .. واعلن عن استفتاء آخر فى ٢١ مايو .. وكان الهدف منه إحكام القبضة الحديدية على الصحافة ومنع بعض الجبهات من المشاركة السياسية وخاصة قيادات حزب الوفد الجديد وأعضاء مجلس الثورة القدامى واليساريين .

وفى هذا الجو البارد الجليدى تجمدت جهود دعم ومؤازرة مرشح حزب الوفد الجديد .. وفاز مرشح حزب الوسط بمقعد الشيخ عاشور .

وفى اليوم التالى للاستفتاء ظهر ان ٩٨,٢٩٪ من الأصوات قد أكدت مساندتها للرئيس . ومع هذا الواقع الحكومى لجأ حزب الوفد لإجراء لابد منه وهو تطهير صفوفه من أجل البقاء وهو إجراء مشابه لما حدث عام ١٩٥٢ وفقا لأوامر مجلس قيادة الثورة .

وبعد أن ابتعد هذا الخصم المشاغب، او حزب الوفد الجديد ـ عن الطريق .. استدار السادات للصحفيين الذين يكتبون « بصراحة » .. وكانت القائمة تضم سبعة من هؤلاء الصحفيين ـ ومنهم محمد حسنين هيكل ـ وقد صدرت الأوامر بمنعهم من السفر بناء على الاتهام الموجه إليهم وهو نشر مقالات « تسىء لسمعة مصر » .. وأصبحوا هدفا للتحقيقات بصفة مستمرة .

وجاء الدور على اليسار المصرى حيث أجريت التحقيقات مع خالد محيى الدين بشأن المقالات التى نشرت بجريدة الأهالى وتمت مصادرة الجريدة .

ولإدخال الفزع فى القلوب لفترة طويلة قادمة .. جاءت الضربة الاخيرة يوم ٢٦ يونيه وكان سيد مرعى وقتها غائبا عن مقعده فى المجلس ـ ووفقا لاستفتاء مايو ـ رفع أعضاء حزب الأغلبية أيديهم لأعلى بطريقة أتوماتيكية للتصويت لفصل « عبد الفتاح حسن » ـ احد رجال فؤاد سراج الدين المقربين ووكيل حزب الوفد الجديد ـ من عضوية المجلس ومعه العضو اليسارى ابو العز الحريرى لمشاركتهم فى إفساد الحياة السياسية قبل ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

ويبدو أنه لم يعد هناك حجرة آمنة تفصل بين الرئيس والمعارضة يمكن لسيد مرعى من خلالها أن يتدخل « كوسيط » .. والدليل على ذلك انه تم فصل ٤ أعضاء من المجلس فى فترة تزيد قليلا على العام حتى أصبحت « الحصانة البرلمانية » مثارا لسخرية الناس بعد أن عطلت الحكومة نفسها قانون الأحزاب الذى أهداه سيد مرعى للمعارضة .

وأصبح واضحا أن السادات قد رفع عصاه مما يعنى أنه سيتولى كل شىء وحده وصاحب ذلك تغيير فى علاقات القوى داخل مجتمع الصفوة السياسية .. وبدأ الرئيس يستعين بممدوح سالم ضابط البوليس السابق وغيره من المتشددين وذوى الأنياب من أعضاء حزب الوسط .. ولم يعد سيد مرعى مفيدا فى تلك الفترة .. ربما لأن مواهبه تناسب مناخ الحريات .

وفضل سيد مرعى ان يعمل بعد ذلك فى وظيفة تشبه إلى حد كبير « الإحالة للمعاش » وهى وظيفة « مساعد الرئيس » وعندما عرض عليه الرئيس السادات هذه الوظيفة فى أكتوبر عام ١٩٧٨ لم يبد أى علامة من علامات عدم الرضا أو يعترض على ذلك .. بالرغم من أن هذه الوظيفة غير جذابة .

ولا يعنى قبوله لوظيفة مساعد الرئيس أنه قد أعطى ظهره للطموح السياسى .. فقد ظل يؤدى دوره كوسيط من خلال هذه الوظيفة .. وربما كان ينتظر فرصة موجة حريات جديدة أو تغييرا فى نظام الحكم .

وعلى أى حال فقد ظل على مدى فترة طويلة عضوا بارزا فى حاشية الرئيس وشغل وظائف عديدة . وكان يتميز فى أدواره بأنه يتبع خط الرئيس ويعلن دائما تأييده له

ومن ناحية أخرى حرص على أن يقول كلاما آخر تماما فى جلساته الخاصة مع قيادات المعارضة .. فهو يعبر فى حرية عن عدم اقتناعه بسياسات السادات ولكنه كان حريصا الا يقول رأيه بصراحة فيما يتعلق بمفاوضات السلام مع إسرائيل .

ولكن الحقيقة المؤكدة أن سيد مرعى ليس من هواة العزلة عن العالم العربى ولم يكن يتمنى التعرض لهذا المأزق .. والحوار التالى لياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يؤكد هذه الحقيقة ..

● هل صحيح انك تهدد الرئيس السادات ؟

●● ياسر عرفات : أؤكد أن السادات سوف يدفع الثمن فى وقت قريب أو بعيد .. أنا أعرف الشعب المصرى أكثر منك .. لقد قدم سيد مرعى إستقالته من منصبه فى مصر .. وبعث لى برسالة قال فيها بالحرف الواحد : « أنا أود أن يستريح ضميرى فليس لى شأن بها » .. (ويقصد بها طبعا رحلة السادات للقدس) .

والسؤال هو لماذا أرسل سيد مرعى هذه الرسالة لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية ؟ .. ربما يمكن تفسيرها بحدوث انهيار فى علاقته مع السادات .

ويجب الإشارة إلى أن سيد مرعى قد التقى سرا بمناحم بيجين فى بوخارست فى ٢٥ اغسطس عام ١٩٧٧ لمناقشة إمكانية اجتماعه مع السادات .

وعلى أى حال فقد أدى سيد مرعى دوره كوسيط بفتح خطوط الاتصالات مع أعداء الرئيس بينما يعمل فى نفس الوقت على تنمية علاقته بالرئيس نفسه . وليس ذلك غريبا - فهذه هى سمة السياسة المصرية .

الفصل التاسع

خاتمة

وفى يوم ٦ اكتوبر عام ١٩٨١ ـ وهى الذكرى الثامنة لحرب أكتوبر ـ تم اغتيال الرئيس السادات وهو يشاهد العرض العسكرى .

وقد أدت طلقات الرصاص والقنابل اليدوية التى وجهت للمنصة إلى إصابة سيد مرعى الذى كان يجلس فى الصف الأول ولايفصله عن السادات سوى المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة .

وخلال الأسابيع الثلاثة التى قضاها بمستشفى المعادى بعد الحادث عرض سيد مرعى إستقالته من منصبه كمساعد لرئيس الجمهورية .. وقبل الرئيس مبارك هذه الاستقالة .

وعين مبارك فى هذا المنصب عبد العزيز حجازى ومصطفى خليل وممدوح سالم .. ويبدو أن الرئيس مبارك قد عقد العزم على التخلص من بعض رموز النظام الذى ورثه عن السادات .. ولاأحد يعرف إذا كان هذا « الخط الفاصل » هو نهاية مشوار سيد مرعى السياسى أو مجرد نكسة عابرة فى مشواره السياسى .. المؤكد أن الأيام ستقول كلمتها .

فهرست

الموضوع **الصفحة**

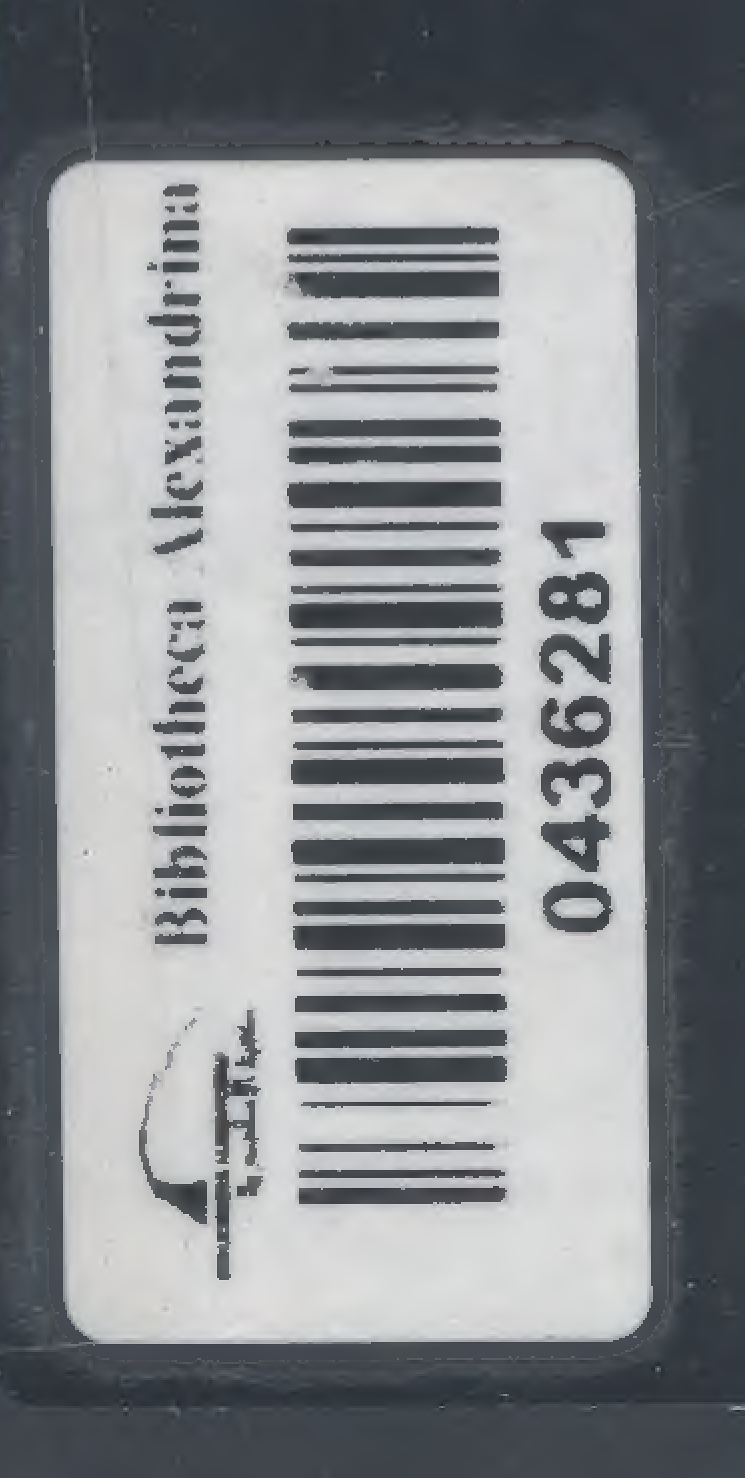
الموضوع **الصفحة**

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

رقم الايداع : ٢٤٤٧ / ٩٣
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٠١٦ ـ ٢٢٩ ـ ٩٧٧



٥ جنيهات

طبع بمطابع مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر